محاضرات في

تاريخ مصر الإسلامية

من الفتح الإسلامي وحتى نهاية الدولة المملوكية

أ.د. محمد عادل عبد العزيز

المقدمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على الرسول المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد .. فهذه صفحات مجيدة خالدة من صفحات تاريخ مصر في ظل الخلافة الإسلامية، والتي تبدأ بالفتح الإسلامي لمصر الذي حمل لواءه القائد الباسل عمرو ابن العاص – رضي الله عنه – وتنتهي بإعلان بريطانيا حمايتها على مصر في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤م، والتي أعقبها سقوط الخلافة الإسلامية في الثالث من شهر مارس سنة ١٩٢٤م، حيث أعلنت تركيا إلغاء الخلافة لتبدأ فترة جديدة ابتعدت كثيراً عن نظم الخلافة، كما ابتعدت كثيراً عن وحدة المسلمين،.

وينقسم الكتاب إلى سبعة فصول : الفصل الأول تناولت فيه الفتح الإسلامي لمصر، والفصل الثاني تناولت فيه مصر في عصر الولاة، والفصل الثالث تناولت فيه مصر في عصر الدولة الطولونية، والفصل الرابع تناولت فيه مصر في عصر الدولة الإخشيدية ، والفصل الخامس تناولت فيه مصر في عصر الدولة الفاطمية، والفصل السادس تناولت فيه مصر في عصر الدولة الأيوبية، والفصل السابع والأخير فقد تناولت فيه مصر في عصر المماليك، وإن كنت قد أشرت إلى دخول مصر تحت السيادة العثمانية في الصفحات الأخيرة من الكتاب، إلا أنني قد أثرت أن أتناول سقوط الخلافة الإسلامية في كتاب مستقل بذاته لخطورة الموضوع،

ويحمل هذا الكتاب عنوان: انهيار الخلافة الإسلامية و توابعه على مصر، وهو كتاب يكشف عن سلسلة المؤامرات الغربية التي أدت إلى تبعية مصر للغرب

وإني لأرجو أن يؤدي هذا الكتاب مهمته بين طلبة الجامعات والقراء عامة فيجدون فيه السجل الصادق، لتكون منه العظة والعبرة والحث على المضي قدماً على أمجاد الأجداد، والله ولي التوفيق والعزة لمصر.

مصر الجديدة في ٢٦/٩/٢٠٠٥م.

د. محمد عادل عبد العزيز

الفصل الأول

الفــتح الإسلامي لمــصــر

الفتح الإسلامي لمصر

لماذا فتح المسلمون مصر؟

تباينت آراء الباحثين حول حركة الفتوح الإسلامية، فبينما يرى **فريــــق** أنـــها كانت اندفاعية استهدفت نشر الإسلام بحد السيف، يرى **فريـــق آخــر** أن حركـــة الفتوح الإسلامية كانت لكسر الحواجز التي وقفت عائقاً أمام حركة الدعـــاة إلـــى الإسلام. **وفريق ثالث** يرى أنها كانت لإقرار الحق ونشر العدل بعـــد أن أجتـــاح العالم ظلم الطغاة الرومان وغيرهم، ومازالت دور النشر تطالعنا حتى اليوم فــــي مختلف أنحاء العالم بمؤلفات عن حركة الفتوح الإسلامية، وبرغم أنها كلها للأسف اجتهادات بالرأي لا تستند إلى دليل علمي، فإنها في نفـــس الوقـــت أراء مـــردود عليها!

فإذا كانت الفتوحات الإسلامية استهدفت نشر الإسلام بحد السيف، فلماذا قبـــل المسلمون الجزية ممن رفضوا اعتناق الإسلام!؟ ولماذا كان انتشار الإسلام عـــن طريق الدعاة أوسع انتشاراً من الفتوحات الإسلامية!؟

وإذا كانت الفتوحات الإسلامية استهدفت كسر الحواجز التي وقفـــت عائقـــاً أمـــام حركة الدعاة إلى الإسلام ، فلماذا انحصرت الفتوحات في منطقة معينة فقط مـــن العالم !؟ وهل معنى هذا أنه لم تكن هناك حواجز في الصين أو في وسط أوروبا!؟

وإذا كانت الفتوحات الإسلامية استهدفت إقرار الحق ونشر العدل بعــد أن اجتـــاح العالم ظلم الطغاة من الرومان وغيرهم . فهل معنى هذا أن البلاد التي لـــم يمتـــد إليها الفتح الإسلامي كانت تنعم بإقرار الحق ونشر العدل!؟

وهل كان الظلم منحصراً فقط في البلاد التي فتحها المسلمون!؟

وإذا كانت الفتوحات الإسلامية استهدفت الاستيلاء على خيرات البلاد المفتوحـــة، فلماذا عاش الصحابة كلهم عيشة الفقراء!؟

لذلك كنا نحن المسلمين أحوج ما نكون إلى تفسير يستند إلى الدليل العلمي لحركـــة الفتوح الإسلامية لعلنا نستطيع أن نصحح فهماً خاطئاً وقع فيه كثيرون حتى مـــن

المسلمين أنفسهم ورددوه في كتبهم الدراسية. الأمر الذي يدعونا إلى ضـــرورة أن نحتكم إلى الشريعة الإسلامية لنتعرف على مشروعية القتال في الإسلام، ثم علينـــا بعد ذلك أن نتتبع الفتوحات الإسلامية في الوثائق التاريخية لنضـــع أيدينـــا علـــى الأسباب الحقيقية التي كانت وراء الوقائع والأحداث.

وقبل أن نتعرض إلى التفسير العلمي لحركة الفتوح الإسلامية ســنحاول بدايــة مناقشة الآراء التي اتفق عليها كل من الفريقين في أنها أهم أسباب حركة الفتـــوح الإسلامية.

أولاً: نشر الإسلام بحد السيف :

للأسف فقد خلط معظم من كتبوا في هذا الموضوع بين عالمية الدعوة الإســلامية، وبين نشر الإسلام بحد السيف. الأمر الذي يجعلنا أن نحتكم إلى الشريعة الإسلامية لنتعرف على مشروعية القتال في الإسلام . قبل أن نتعرض للأسباب الحقيقية التي كانت وراء الأحداث.

القتال في التشريع الإسلامي :

السلام هو الأصل في العلاقات بين الأمة الإسلامية وغيرها مـــن الأمـــم التـــي تخالفها في العقيدة حتى في حالة الحرب، فالنصوص القرآنية تأتي حريصة علـــى حرمة المجتمعات وكرامتها، فيقول سبحانه:(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكـــل على الله)([1])، وجمهور الفقهاء يرى أنه يحرم حمل الكفار على الإيمان بحد السيف ويستدلون على هذا الحكم من القرآن الكريم بقوله تعالى :

(لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) ([2])

(أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ([3])

([1]) ٦١/ الأنفال .

(٢) ٢٥٦/ البقرة.

([3]) ٩٩/ يونس .

﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ﴾ ([1])

كما ثبت بالنص والإجماع أن أهل الكتاب إذا أدوا الجزية حرم قتالهم، وكذلك المجوس مع أنهم ليسوا أهل كتاب. وفي هذا الدليل القاطع على أن حركة الفتوح الإسلامية لم تكن لنشر الإسلام بحد السيف. وإلا فلماذا قبل المسلمون الجزية ممن رفضوا اعتناق الإسلام !؟

وأما قوله (ﷺ) " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله" فإن جميع العلماء متفقون على أن المراد بالناس في هذا النص مشركو العرب خاصة، وغيرهم من أهل الكتاب ، ومشركو غير العرب حكمهم يخالف أولئك الذين قيل في حقهم هذا الحديث، ذلك لأن قتال مشركي العرب كان لدفع شرهم الذي بدأ في توالي المؤامرات، ومداومة الكيد للدعوة، ومحاولات تحطيم القوة الإسلامية والقضاء عليها ، فقتال هؤلاء لدفع الشر لا للدعوة.

ونجد ما يؤكد ذلك فيما كان من أحد رؤساء الدول الذين كاتبهم الرسول (ﷺ) وحملهم مسئولية إبلاغ الدعوة لشعوبهم ، وهو كسرى الذي مزق كتاب الرسول(ﷺ) ، وكان المسلمون آنئذ على مستوى من القوة يتيح لهم التصرف العسكري، ومع ذلك لك يكن من الرسول الكريم سوى التمسك بالمسالمة، وأداء واجب البلاغ، فلم يجاوز ذلك. وقد كانت له مندوحة في المجاورة بيد أنه لم يفعل.

أما الباعث على قتال الكفار عند جمهور الفقهاء فهو دفع عدوانهم وقمع الفتنة. ويستدلون على هذا الحكم من القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا﴾([2])

وقوله تعالى :﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾([3]) وقوله تعالى :﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ ([4])

﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ ([5])

---

(١) ٩٠ / النساء.

(٢) ١٩٠/ البقرة.

(٣) ١٩٣/ البقرة.

(٤) ٣٦ / التوبة.

(٥) ١٩٤/ البقرة .

وقوله تعالى :(وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)(١)

وفي فصل من رسالة ابن تيمية عن القتال بحث فيه الباعث على القتال، أهو اعتداء الكفار على الإسلام ورد عدوانهم؟ أم الباعث على قتال الكفار كفرهم؟ وذكر ابن تيمية أنه ذهب قلة من الشافعية إلى أن الباعث على قتال الكفار هو كفرهم والتمكين للدعوة الإسلامية التي هي أمانة في عنق المسلمين إذ أن عليهم الدعوة إلى الإسلام حتى تكون كلمة الله هي العليا. لكن ابن تيمية يميل إلى الرأي الذي انتهى إليه جمهور الفقهاء وهو أن الباعث على القتال هو رد عدوان الكفار وليس كفرهم.

ونخلص من هذا كله إلى أن القتال في التشريع الإسلامي منهج وليس ضرورة ، إنما هو منهج يستخدم عند الضرورة التي تجعله وحده هو الوسيلة لإقرار السلام، ويمكن حصر بواعث القتال فيما يلي :

١- يستخدم القتال رداً للعدوان مثلما حدث في غزوة بدر وأحد والخندق.
٢- يستخدم القتال دفعاً لهجوم متوقع يعده الأعداء وذلك مثلما حدث مع بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وفتح مكة.
٣- يستخدم القتال ضد من ينقض المعاهدات مثل ما حدث مع بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وفتح مكة.
٤- يستخدم القتال لتأمين المسلمين إذا تعرض لهم من يفتنهم عن دينهم.

ثانياً: دوافع اقتصادية:

يرى فريق من المؤرخين أن حركة الفتوح الإسلامية لا تعدو أن تكون حلقة في سلسلة الهجرات التي خرجت من شبه الجزيرة العربية منذ العصور القديمة متجهة نحو بلاد الهلال الخصيب، ذلك أنه من الثابت علمياً أن شبه الجزيرة العربية تعرض في التاريخ القديم لأدوار متعاقبة من الجفاف والمطر. وفي عصور الجفاف كانت تندفع هجرات من قلب شبه الجزيرة إلى الشمال والتي

---

(١) ١٣٦ / النحل.

أدت إلى استقرار **الأكاديين** في العراق في القرن الثلاثين قبل الميلاد ، **والأموريين** في بابل في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، **والفنيقيين** في الساحل اللبناني فيما يقرب من ١٦٠٠ ق.م، وغير ذلك من الهجرات. ولذا عمد هذا الفريق من المؤرخين على الربط بين حركة الفتوح الإسلامية في القرن السابع للميلاد، وتلك الهجرات التي خرجت من شبه الجزيرة في العصور القديمة، فوصفوا حركة الفتوح الإسلامية بأنها حلقة في سلسلة تلك الهجرات. وبالتالي فإن مؤرخا مثل بيكر " Becker" لم يتردد في القول بأن حرمة الفتوح الإسلامية في القرن السابع للميلاد ليست مفاجئة – كما تبدو – وإنما هي حلقة أخيرة في سلسلة طويلة. بدأت قبل ذلك بعدة قرون، وأدت إلى خروج كثير من الهجرات السامية من قلب شبه الجزيرة العربية نتيجة لتقلب الأحوال الاقتصادية فيها، وما أصاب البلاد نتيجة لذلك من ضعف وتدهور يدل عليه انهيار سد مأرب، وبعبارة أخرى فإن تعرض شبه الجزيرة العربية لأزمات اقتصادية هو الذي دفع شعوبها السامية إلى الهجرة، لا فرق في ذلك بين الهجرات السابقة التي قام بها الآراميون والكنعانيون، وبين الهجرات اللاحقة التي قامت بها بعض القبائل العربية قبل ظهور الإسلام.

ويميل برنارد لويس إلى مشاركة بيكر هذا الرأي، فيقول : إن بلاد العرب شهدت في قديم الزمان خصبا عظيما أعقبه جفاف مستمر، مما أدى إلى زحف الصحراء على حساب الأراضي الخضراء ، فأخذ سكان البلاد يخرجون منها على شكل هجرات، بعد أن ضاقت سبل العيش في وجوههم.

إلى هنا نحن لا نختلف مع من يقول إن شبه الجزيرة العربية أنها في كثير من الأحيان كانت طاردة لسكانها، لكننا نختلف مع من يقول أن حركة الفتوح الإسلامية لا تعدو أن تكون حلقة في سلسلة الهجرات التي خرجت من شبه الجزيرة متجهة نحو البلاد الأكثر خصبا دون أن يستند في قوله هذا على الدليل العلمي.

أما توماس أرنولد فيعبر عن هذه الفكرة تعبيراً أكثر جرأة وأوضح صراحة حين يقول : إن حركة التوسع العربي كانت هجرة جماعية نشطة، دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة وتجتاح بلاداً أكثر خصباً، وكانت ملكاً لجيران أسعد منهم حظاً.

ويستند أصحاب هذا الرأي – ومنهم كيتاني وسبرنجر وونكلر وبيكر والأب لامنس وأرنولد وبرنارلويس وفيليب حتى– لتدعيم الدافع الاقتصادي إلى ثلاثة نصوص تاريخية، أورد البلاذري اثنين منها والطبري أورد منها نصاً واحداً.

فيذكر البلاذري في النص الأول أن أبا بكر إذ أخذ في إعداد الجيوش الإسلامية وتسييرها إلى الشام (كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم ، فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع وأتوا المدينة من كل أوب).

أما النص الثاني للبلاذري فهو جملة وجهها القائد الفارسي رستم إلى المغيرة ابن شعبة رسول سعد بن أبي وقاص نصها : (قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد، ونحن نعطيكم ما تتشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون).

ويذكر الطبري عند حديثه عن موقعة الولجة التي دارت بين خالد بن الوليد والأندرزغر الفارسي نصاً جاء في خطبة ألقاها خالد في المسلمين ليرغبهم في بلاد العجم ويزهدهم في بلاد العرب، فقال : (ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب ؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل، ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه).

في الواقع أن النصوص التاريخية التي استند عليها أصحاب نظرية الدافع الاقتصادي فهي نصوص لا تخدم قضيتهم من قريب أو من بعيد بل على العكس فهي تدحض هذه النظرية من أساسها!!

إن الدفع الذي أورده البلاذري لا يدعم نظرية الدافع الاقتصادي بقدر ما يؤكد أن حركة الفتوح الإسلامية ليست هجرة جماعية إلى بلاد أكثر خصباً حيث يفيد

النص الأول الذي أورده البلاذري أن أبا بكر كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز (يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه). فأين هو تطلعهم إلي التوسع ورغد العيش والرغبة في الهجرة الجماعية؟

كذلك الحال بالنسبة للنص الثاني الذي أورده البلاذري فانه لا يدعم نظرية الدافع الاقتصادي يدحضه. فلو كان ما علمه القائد الفارسي رستم هو الحق لقبل المغيرة بن شعبة رسول سعد بن أبي وقاص التفاوض بناءً على قول رستم (ونحن نطيعكم ما تتشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون).

أما النص الذي أورده الطبري فإنني لا أرى فيه أي تدعيم لنظرية الدافع الاقتصادي من قريب أو من بعيد أيضا بل على العكس تماماً منه يقرر في صراحة تامة(لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ولو لم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف) فالمسلمون إذن لم يخرجوا طلباً لسعة العيش، وإنما خرجوا في سبيل الله رغم الجوع والإقلال الذي هم عليه.

وها هو أبو بكر (ﷺ) كان قبل أن يشتغل بأمور المسلمين تاجراً وبعد ستة أشهر من تولية الخلافة قال: لا والله، ما تصلح أمور الناس والتجارة، وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر في شأنهم ، ولابد لعيالي مما يصلحهم، فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم، ويحج ويعتمر . وكان الذي فرضوه له في كل سنة ستة آلاف درهم، فلما حضرته الوفاة، قال : ردوا ما عندنا من مال المسلمين ، فإني لا أصيب من هذا المال شيئاً، وإن أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم، فدفع ذلك إلى عمر، ولقوحاً وعبداً صيقلاً، وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم ، فقال عمر: لقد أتعب من بعده.

كان من أهم ما ترتب عليه صلح الحديبية في العام السادس من الهجرة أن أصبح رسول الله شخصية اعتبارية في الحجاز، لذلك رأى الرسول (ص) – أنه قد حان الوقت ليخرج بالدعوة الإسلامية خارج الحجاز تحقيقاً لمبدأ عالمية الدعوة الإسلامية.

(أ)- كتب الرسول إلى أمراء العرب :

كان من بين أمراء العرب الذين أرسل إليهم الرسول كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام، المنذر بن ساوى أمير البحرين، فقد بعث إليه الرسول كتاباً مع العلاء ابن الحضرمي، فكتب إليه المنذر بإسلامه وقال : فأني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي يهود ومجوس، فأحدث إلى في ذلك أمرك. فكتب إليه الرسول (ﷺ):

" بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل فإن من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه. وعفوت عن أهل الذنوب، فأقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية.

وكتب الرسول إلى أميري عمان : جيفر وعباد ابني **الجلندي** وهما من الأزد – كتاباً بعثه مع عمرو بن العاص في ذي القعدة سنة ثمان. وجاء فيه:

" بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى جيفر وعباد ابني الجلندي، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعو كما دعا به الإسلام أسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلي تحل بساحتكم وتظهر نبوتي على ملككما. فأجابا إلى الإسلام وصدقا بالنبي".

وبعث الرسول سليط بن عمر العامري إلى **هوذة بن علي الحفني** وإلى **ثمامة ابن أثال** أميري **اليمامة** يدعوهما إلى الإسلام، لم يجيبا دعوته.

وكتب الرسول إلى **الحارس بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق** كتاباً بعثه مع شجاع بن وهب، جاء فيه:" بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله

إلى الحارث بن أبي شمر ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده، لا شريك له يبقى لك ملكك". فلما أتاه الكتاب، قال: من ينزع مني ملكي ، أنا سائر إليه(أي محاربه) ولم يسلم. فقال الرسول: باد وباد ملكه.

كذلك حينما أرسل الرسول(ﷺ) وفداً إلى **ذات الطلح**- على مقربة من الشام- ليدعوهم إلى الإسلام وكان عدتهم خمسة عشر رجلاً، قتلوهم جميعاً إلا رئيسهم وقد أبقوا عليه عمداً ليخبر رسول الله بما رآه عند عودته إليه.

وكتب الرسول إلى **بعض أمراء اليمن**، منهم الحارث بن عبد كلال الحميري وشريح بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال ، ونعمان قيل ذى يزن ومعافر وهمدان، وزرعة ذى رعين يدعوهم إلى الإسلام، وأمرهم أن يؤدوا الصدقة والجزية لمعاذ بن جبل ومالك بن مرارة وأوصاهم بهما خيراً، فبعث إليه مالك بن مرارة وأوصاهم بهما خيراً، فبعث إليه مالك بن مرارة يخبره إسلامهم ودخولهم طاعته.

(ب)- كتب الرسول إلى ملوك وأمراء الدول المعاصرة :

كذلك وجه الرسول إلى **ملوك وأمراء الدول المجاورة** لجزيرة العرب كتباً مؤداها الترغيب في الدخول في الدين الإسلامي، ولم يطلب منهم الخضوع لسلطانه، فأوفد عمرو بن أمية الضمري إلى نجاشي الحبشة، وبعث معه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام. فكتب إليه النجاشي رسالة يخبره فيها بقبوله دعوته وتصديقه إياها.

أما **هرقل قيصر الروم**، فبعث إليه الرسول كتاباً مع دحية بن خليفة الكلبي جاء فيه : " بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن أبيت عليك أثم الأريسيين. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون. فقبل هرقل

كتاب الرسول وكتب إليه :" إلى أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى، من قيصر ملك الروم أنه جاءني كتابك مع رسولك، وإني أشهد أنك رسول الله. نجدك عندنا في الإنجيل، بشرنا بك عيسى ابن مريم، وإني دعوت الروم أن يؤمنوا بك، فأبوا ، ولو أطاعوني لكان خيراً لهم ولوددت أني عندك فأخدمك وأغسل قدميك".

وبعث الرسول إلى **كسرى فارس** كتاباً مع عبد الله بن حذافة السهمي يدعوه فيه إلى اعتناق الإسلام. قال فيه :

" بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله عزو جل فإني رسول الله إلى الناس كلهم لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم، فإن توليت فعليك إثم المجوس، فلما قرأ عليه الكتاب مزقه فبلغ رسول الله (ﷺ) فقال : مزق الله ملكه.

كذلك وجه الرسول إلى **المقوقس حاكم مصر** من قبل هرقل إمبراطور الروم كتاباً مع حاطب بن أبي بلتعه، جاء فيه:

" بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون، فأحسن المقوقس استقبال رسول النبي وقبل كتابه وأجابه بقوله: " كنت أعلم أن نبياً قد بقي، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام- وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله – فأراه قد خرج في العرب في أرض العرب جهد وبؤس، والقبط لا تطاوعني في اتباعه، ولا أحب أن يعلم بمحاورتي إياك"، وبعث معه بهدية إلى النبي(ﷺ).

وهكذا لم يترتب على كتب الرسول(ﷺ) إلى ملوك ورؤساء الدول أي مشاكل تستحق من الرسول وقفة حاسمة إلا ما حدث في منطقة الشام فقد أشفق

النبي(ﷺ) على عاقبة السكوت على كلتا الفعلتين التي قتل فيهما رسله إلى الشام ورأى أن يقتص لأصحابه، وحتى لا تضعف هيبة الإسلام.

وقع اختيار الرسول على مولاه زيد بن حارثة الكلبي ليكون أمير الجيش وأوصى في حالة موته أن يخلفه جعفر بن أبي طالب، وإذا قتل جعفر حل محله عبد الله بن رواحة الأنصاري، وإن أصيب عبد الله بسوء، فليتفق المسلمون على إسناد إمارة الجيش لرجل منهم، فخرج هؤلاء الأمراء إلى **مؤتة** في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، على رأس جيش بلغت عدته ثلاثة آلاف، وشيعهم رسول الله إلى ثنية الوداع، ,أوصى أمراء الجيش بقوله: "**وأوصيكم بتقوى الله** ، وبمن معكم من المسلمين خيراً، أغزوا باسم الله في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله، ولا تغدوا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث، فأيتهن ما أجابوك إليها، فأقبل منهم وأكفف عنهم، ادعهم إلى الدخول في الإسلام، فإن فعلوا فأقبل منهم واكفف عنهم، ثم أدعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين وإن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين وإن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، ويجرى عليهم حكم الله ولا يكون لهم في الفيء ولا في الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعوهم إلى إعطاء الجزية، فإن فعلوا فأقبل منهم واكفف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله، فلا تستنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟ وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإن تخفروا ذمتك وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله. وستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين للناس، فلا تتعرضوا لهم، وستجدون آخرين في رءوسهم مفاحص، فاقلعوها بالسيوف، لا تقتلن امرأة ولا

صغيراً ضرعاً. ولا كبيراً فانياً، ولا تغرقن نخلاً، ولا تقلعن شجراً، ولا تهدموا بيتاً".

ولما فرغ الرسول(ﷺ) من نصيحته لأمراء الجيش، قال له عبد الله بن رواحة: يا رسول الله : مرني بشيء أحفظه عنك، قال: إنك قادم غداً بلداً، السجود فيه قليل، فأكثر السجود، قال: زدني يا رسول الله، قال: اذكر الله فإنه عون لك على ما تطلب".

سار جيش المسلمين إلى تخوم البلقاء. وكانت موطن نفوذ الغساسنة- ولما وصلوا إلى بلدة معان، بلغهم أن هرقل نزل بمكان يقال له مآب في مائة ألف من الروم ومعه من قبائل بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام مائة ألف، يتولى قيادتهم رجل إلى الرسول بكثرة عدد العدو ليبعث إليهم مدداً أو يأمرهم بالعودة إلى المدينة، فشجعهم عبد الله بن رواحة على المضي في القتال وقال:" والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ولا بكثرة سلاح ولا بكثرة خيول إلا بهذا الدين الذي أكرمه الله به، انطلقوا، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله ووعد نبينا وليس لوعده خلف، وإما الشهادة فلنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان، فتغلب على المسلمين الحماسة الدينية وعزموا على المضي في سيرهم، فمضوا إلى بلدة مؤتة حيث وافاهم المشركون معهم ما لا قبل لهم به من العدد والسلاح والديباج والحرير والذهب. ثم دار القتال بين الفريقين، فأخذ زيد بن حارثة اللواء وظل يقاتل حتى قتل، فخلفه جعفر بن أبي طالب في الإمارة . غير أنه لم يلبث أن استشهد في ميدان القتال وخلفه عبد الله بن رواحة فقتل، ثم ولى المسلمون عليهم خالد بن الوليد. فبذل جهده في إنقاذ بقية جند المسلمين وعاد بهم إلى المدينة فقابلهم أهلها بشيء من السخط. غير أن الرسول لم ينظر إلى حادث انهزامهم هذه النظرة، بل أظهر أمله في عودتهم لمهاجمة العدو وإحراز النصر عليه.

وقد رأى الرسول (ﷺ) – أن يقضى على الآثار التي خلفتها غزوة مؤتة ويقوم بعمل حاسم يحول دون أي تهديد من قبل الروم، فلما تم له فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة وانصرف عائداً إلى المدينة، بلغه أن الروم جمعت جموعاً كثيرة

بالشام وضموا إليهم لخم وجذام وغسان وعاملة، فبعث إلى القبائل ورؤساء العشائر يحثهم على الخروج ويرغبهم في الجهاد، كما حض الرسول المسلمين على بذل المال في سبيل الله، فسارعوا إلى تلبية طلبه، فجاء أبو بكر الصديق بكل ماله، وهو أربعة آلاف درهم، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، كما حمل إليه كل من العباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف سعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة مالاً وفيراً، وكان عثمان بن عفان من أكثرهم نفقة، إذ جهز ثلث الجيش. كذلك أقبل أهل الغنى من الرجال والنساء على التبرع ببعض أموالهم.

وكانت حرارة الصيف وقتئذاك شديدة، والثمار قد طابت، ويؤثر الناس البقاء بجوار ثمارهم، فلما دعا الرسول (ﷺ) المسلمين إلى التهيؤ للغزو وجد تثاقلا من بعضهم، فاعتذر جماعة بأعذار واهية منها: مشاق السفر ومتاعبه وشدة الحر، كما جاءه فريق من المنافقين يستأذنونه في التخلف عن القتال دون أن يكون بهم علة يشكون منها، وتشير إلى ذلك هذه الآيات في سورة التوبة.

(يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) أية ٣٨.

(لو كان عرضا قريبا قاصدا لأتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) أية ٤٢،٤٣.

(إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) أية٤٥.

(وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) أية ٩٠.

ولما تغلب الرسول (ﷺ) على الصعاب التي لاقاها في سبيل إعداد الجيش، اعتزم المسير إلى حدود بلاد العرب الشمالية، فخرج ومعه ثلاثون ألفاً في أول رجب سنة تسع، وكان عبد الله بن أبي سلول إذا ذاك قد عسكر مع أنصاره خارج المدينة

شبه الوداع وأخذ يثبط عزائمهم بادعائه أن المسلمين لا محالة منهزمون إذا ما وقفوا أمام الروم، ثم ما لبث أن تخلف عن النبي هو وأتباعه وعادوا إلى المدينة. لم يبال الرسول (ﷺ) بتخلف هؤلاء المنافقون، ومضى في سيره حتى وصل تبوك، فحط بها رحله وصالحه أهلها على الجزية، ثم شاور أصحابه في التقدم شمالاً والسير إلى حدود الشام، فقال له عمر بن الخطاب، إن كنت أمرت بالسير فسر، فقال الرسول(ﷺ) : لو أمرت به ما استشرتكم فيه، فقال له أصحابه : يا رسول الله، إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم حيث ترى وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله في أمرك أمرا، فاكتفى الرسول (ﷺ) بإيفاد بعض سراياه إلى الجهات المجاورة لتبوك.

كذلك رأى الرسول (ﷺ) أثناء إقامته بتبوك أن يبعث خالد بن الوليد إلى دومة الجندل([1]) على رأس حملة، خشية خروج ملكها أكيدر بن عبد الملك ومعاونته جيوش الروم إذا ما أتت من ناحيته وتحقيقاً لسياسته التي ترمي إلى تأمين شمال الحجاز وكان أكيدر من كندة يدين بالنصرانية فأمر الرسول خالد بن الوليد بأن يأتي به إليه، ونهاه عن قتله فسار إليه خالد وقبض عليه، وأظهر استعداده ليجيره من القتل حتى يأتي به الرسول على أن يفتح له دومة الجندل، فقبل أكيدر وفتحت أبواب دومة للمسلمين بعد أن تم الصلح بين خالد وأكيدر على أن ينزل هذا الأخير للمسلمين عن ألفي بعير، وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح، ثم قدم خالد بأكيدر على الرسول بالمدينة، فصالحه الرسول (ﷺ) على أداء الجزية وأخلى سبيله، وكتب له ولأهل دومة كتاباً، وفيما يلي نصه:

" بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر. حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد([2]) والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكنافها: أن له الضاحية([3]) من الضحل([4]) والبور، والمعامي([5])، وأغفال

([1]) دومة الجندل: واحة خصبة، يقيم بها بطون كندة، تقع شمال المدينة على بعد خمس عشرة ليلة.

([2]) الأنداد : الأمثال والشركاء.

([3]) الضاحية : الأرض البارزة.

([4]) الضحل : الماء القليل.

(٥) المعامي : البلاد المجهولة .

الأرض(١) والحلفة، والسلاح، والحافر والحصن، ولكم الضامنة (٢) من النخل والمعين(٣) من المعمور بعد الخمس، لا تعدل(٤) سارحتكم(٥) ولا تعد فاردتكم(٦). ولا يحظر عليكم الثبات ولا يؤخذ منكم إلا عشر الثبات(٧). تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها، عليكم بذلك العهد والميثاق ولكم بذلك الصدق والوفاء، شهد الله ومن حضر من المسلمين"".

بعثة أسامه :

لما رأى الرسول (ﷺ) حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة، وعاد مع أصحابه إلى المدينة أصبح لا يخشى شيئاً من ناحية جزيرة العرب، لكنه كان يرى أن أرض الإسلام لا تزال مهددة بالخطر من ناحية الشمال حيث إن الروم يرابطون على حدود الشام الجنوبية، لذلك وجه اهتمامه إلى تأمين حدود بلاد العرب الشمالية، فأمر بتجهيز جيش لغزو أطراف الشام الجنوبية، وأسند إمارته إلى أسامه بن زيد بن حارثة، وأوصاه بقوله:

" اغز باسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تعدوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا تمنوا لقاء العدو، فأنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم، ولكن قولوا: اللهم اكفناهم، واكفف بأسهم عنا، فإن لقوكم قد أجابوا وصيحوا، فعليكم بالسكينة والصمت ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وقولوا اللهم إنا عبادك، نواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تغلبهم أنت، واعلموا أن الجنة تحت البارقة(٨)".

(١) أغفال الأرض : التي لا آثار بها.

(٢) الضامنة : ما حل من النخل.

(٣) المعين : الماء الجاري.

(٤) لا تعدل : لا تصرف من مرعى تريده.

(٥) السارحة : الماشية التي تسرح في المرعى .

(٦) الفاردة : مالا تجب فيه الصدقة.

(٧) الثابت : النخل القديم الذي ضرب عروقه الأرض ونبت.

(٨) البارقة : السيوف .

وقد لقيت الدعوة التي وجهها الرسول (ﷺ) إلى المسلمين للاشتراك في حملة أسامه قبولاً من كثير من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار، غير أن بعض المهاجرين ساءه تولية أسامه إمارة الحملة لحداثة سنه، فقد كان وقتذاك لا يتجاوز العشرين من عمره، فلما بلغ ذلك الرسول وكان قد بدأ يشتكي من المرض الذي ألم به، غضب غضباً شديداً، وألقى على المسلمين خطبة في المسجد، قال فيها :

" **أما بعد، *أيها الناس، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميرى أسامه؟ والله لئن طعنتم في إمارتي أسامه لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيم الله إن كان للإمارة لخليقاً، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة وإن كان من أحب الناس إلي، وإنهما لمخيلان لكل خير، فاستوصوا به خيراً فإنه من خياركم*** ".

حرص الرسول(ﷺ) رغم المرض الذي مرضه على المضي في إعداد حملة أسامه بن زيد، فقال للمسلمين الذين جاءوا يودعونه قبل خروجهم مع أسامه: "أنفذوا بعث أسامه" فأخذ المسلمون يتهيأون للغزو وركب أسامه إلى معسكره – خارج المدينة، وطلب من أصحابه اللحاق به، غير أنه لم يكد يشرع في السير بحملته حتى أتاه خبر اشتداد المرض على الرسول(ﷺ) فأقبل إلى المدينة بصحبة عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح، وبعد فترة قصيرة من وصوله إليها، انتقل الرسول(ﷺ) إلى جوار ربه، وذلك في يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ.

ولما بويع أبو بكر الصديق بالخلافة، بدأ عمله بإنفاذ بعث أسامه بن زيد لغزو أطراف الشام الجنوبية تحقيقاً لما أمر به الرسول(ﷺ)، فخرج أسامه في أول ربيع الثاني سنة إحدى عشرة على رأس الحملة التي أعدت في حياة الرسول(ﷺ) ولم يتخلف عنه سوى عمر بن الخطاب الذي رأى أبو بكر إبقاءه بجواره في المدينة ليشير عليه، وبلغ من اهتمام أبي بكر بهذه الحملة أن خرج بنفسه يودع أسامه وقال له:

"استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك، إني سمعت رسول الله(ﷺ) يوصيك، فانفذ لأمر أمر به رسول الله(ﷺ)، فإني لست آمرك ولا أنهاك عنه، إنما أنا منفذ لأمر أمر به رسول الله(ﷺ)".

مضى أسامه في سيره قاصداً البلقاء، فلما وصل أبنى([1]) شن الغارة على أهلها وقضى على كل من تعرض له منهم، وغنم بعض الغنائم، ثم عاد ظافراً إلى المدينة بعد ما يقرب من شهرين.

كانت حملة أسامه عظيمة الأثر، فقد أوقفت القبائل العربية التي تقيم في أطراف الشام الجنوبية على قوة المسلمين، كما جعلت الروم يعيدون حساباتهم- رغم أن أسامه لم يلق جيشهم فاضطروا إلى إرسال حامية قوية ترابط في البلقاء، وأثناء حروب الردة كان للمسلمين عدة جيوش على الحدود الشمالية بقيادة خالد بن سعيد بن العاص، لحماية تلك الحدود. فعلم خالد بن سعيد بأن هرقل قد أعد العدة لمهاجمة تلك الجيوش التي على الحدود، فأرسل إلى أبي بكر (ﷺ) يستأذنه إلى منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب بالشام، واستشار أبو بكر كبار الصحابة، فتقرر النفير العام لمواجهة العدوان الآتي من الشام، فلبى المسلمون الدعوة في حماسة وحمية، وسرعان ما أنفذت الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة، وعقد اللواء لأربعة من الأمراء هم : شرحبيل بن حسنة ووجهته وادي الأردن، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين، وأبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص، ويزيد بن سفيان ووجهته دمشق، وأمر أبو بكر هؤلاء القواد أن يتعارفوا بعضهم مع بعض، وأن يكونوا مدداً للجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة.

سار خالد بن سعيد بن العاص نحو الشام وهزم الجيوش التي كان قد جمعها الروم، وبعد ذلك توالى قدوم الجيوش الإسلامية إلى الشام، وانضم الوليد بن عقبة، وعكرمة بن أبي جهل، وذو الكلاع الحميري أحد أمراء اليمن إلى خالد بن سعيد بن العاص، لكن **ماهان** قائد جيش الروم استطاع أن يستدرجه إلى مكان قريب من وادي الصفر إلى الشرق من بحيرة طبرية، حتى أطاح به وقطع عليه خط الرجعة واضطره إلى الفرار هو والوليد بن عقبة، تاركاً وراءه جيش المسلمين يقوده عكرمة وذو الكلاع فتقهقروا إلى الحدود.

لكن هرقل قد سير لمهاجمتهم عدة جيوش كثيفة فتبادل القواد الرأي، وأشار عليهم عمرو بن العاص بجمع قواتهم، كما أرسل إليهم أبو بكر كتاباً قال فيه:

([1]) أبنى : موضع بالشعر من جهة البلقاء، ويقال أنها قرية بمؤته.

"**واجتمعوا عسكراً واحداً وألقوا زحف المشركين بزحفكم فأنتم أعـــوان الله، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره**".

وانصاع المسلمون لأمر الخليفة واجتمعت قواتهم كلها علـــى شـــاطيء الـــيرموك الأيسر، ولما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم كلها على الشاطئ الأيمن للنهر ونزلوا في بطحاء تحيط بها الجبال من ثلاث جهات في منطقة تســـمى **واقوصـــة**، فعـــبر المسلمون نهر الأردن إلى شاطئه الأيمن، ووقفوا أمام جيوش الروم وكان يقودها " تيودريك" (أخو هرقل).

ووقف الجيشان وجهاً لوجه دون أن يتغلب أحدهما على الآخر نحو شهرين، ممـــا أقلق الخليفة، فأرسل إلى خالد بن الوليد في العراق: " **أن سر حتى تأتي جمـــوع المسلمين باليرموك**". فتوجه خالد بن الوليد على رأس جيش كبـــير يتكـــون مـــن عشرة آلاف جندي أدرك به المسلمين في اليرموك، وصادف مجيئه أن هرقل كـــان قد عزز جيوشه بتعيين " ماهان " قائداً وهو الذي قد سبق وأوقع هزيمة خالد ابـــن سعيد.

وبعد أن أعاد المسلمون تنظيم جيشهم حيث جعل أبا عبيدة بن الجراح في القلـــب، وعمرو بن العاص على الميمنة، ويزيد بن أبي سفيان على المســـيرة، ثـــم دارت رحى القتال، ورغم أن المسلمين اضطروا إلى التقـــهقر عـــدة مـــرات، انتصـــر المسلمون في النهاية، واستمرت الجيوش الإسلامية في مواصلة مطـــاردة قـــوات الروم بأمر من الخليفة الجديد عمر بن الخطاب (ﷺ) حيث كان قد توفى أبو بكـــر (ﷺ) في تلك الأثناء، فتوجهت القوات الإسلامية صوب دمشق فـــي نفـــس العـــام الثالث عشر من الهجرة، وهكذا كان فتح الشام رداً لعدوان أهل الشام، ولـــم تكـــن حرباً وقائية من جانب المسلمين.

وقائع فتح مصر :

مصر هي أول أقاليم المغرب جغرافياً، فشبه جزيرة سيناء هي الحد الفاصل بين المشرق والمغرب، وهذا ما يشير إليه النص القرآني، ولكن الصحراء الغربية الشاسعة والتي تفصل بين مصر وما بعدها من بلاد المغرب، جعلت انتمائها إلى المشرق بسبب قربها من بلاد الشام، وترجع أسباب فتح مصر إلى ذلك الانتصار الذي أحرزه المسلمون على الروم في بلاد الشام والذي شطر الإمبراطورية الرومانية إلى شطرين :

الإمبراطورية الأم في آسيا الصغرى وما وراءها، والولايات التابعة لها: مصر وما وراءها في المغرب، ولم يعد هناك ما يصل شطري الإمبراطورية إلا البحر، لذلك كان على الدولة الرومانية أن تحاول استنقاذ إمبراطوريتها عن طريق البحر، وبالفعل أبحرت القوات البيزنطية من الأسكندرية ١٧ هـ/ ٦٣٦م بقيادة قطنسطين ابن هرقل – مما يدل على الأهمية الكبرى التي علقها هرقل على تلك الحملة وألقت هذه الحملة مراساها في إنطاكية ونجحت في الاستيلاء عليها وانضمت إلى القبائل العربية المتمردة من أهل الجزيرة.

الأمر الذي أضطر أبو عبيدة بن الجراح (ﷺ) أن يجمع قواته، وأن يعسكر في فناء حمص، وأقبل خالد بن الوليد من قنسرين وانضم إليهم، واستقر رأي المسلمين على التحصن وطلب المدد من الخليفة عمر (ﷺ)، الذي ما أن علم بخروج القبائل العربية بالجزيرة على المسلمين بحمص حتى سارع بإرسال المدد إليهم، وفي نفس الوقت سرح " سهيل بن عدى " إلى الجزيرة لأن أهلها الذين حرضوا الروم (البيزنطيين) على المسلمين بحمص، وكان لجدية تحركات المسلمين أثر كبير في إلقاء الرعب في نفوس تلك القبائل التي ما أن علمت بوصول المدد إلى المسلمين حتى تخلت عن الروم، وعادت إلى بلادها- ثم شن المسلمون هجومهم على جيش الروم الذي انهارت مقاومته بعد انسحاب القبائل العربية- واضطر إلى الانسحاب بدوره بحراً إلى الإسكندرية، ونتيجة لانتصارات المسلمين هذه وتغلبهم على حملة الروم ثبتت أقدامهم في بلاد الشام، ولكن خروج المسلمين من حوادث حروبهم في

الشام بدرس هام، وهو أن استقرارهم في الشام رهن بتوقف الأعمال العدوانية من مصر.

وجاءت على هذا النحو – حركة هرقل الأخيرة في إنطاكية وشمال سوريا حافزاً حمل قادة المسلمين على إعادة النظر في الموقف الحربي، وذلك لتأمين الفتوحات في بلاد الشام، وخاصة بعد أن مد البيزنطيون إلى جانب تعزيز قاعدتهم في قيسارية (قيصرية) إلى إرسال قسطنطين بن هرقل من الموانيء المصرية.

ويبدو أن عمرو بن العاص هو أول من تنبه إلى أن مصر غدت محور الارتكاز لقوات الروم في شرق البحر المتوسط، فمصر كانت القاعدة التي انسحب إليها "الأرطبون "حاكم الروم على بيت المقدس، وأخذ يجمع الجنود ويحشد الحشود تمهيداً لاسترداد بلاد الشام، ويبدو أن مفاوضة " صفرونيوس" بطريرك بيت المقدس للمسلمين إنما كان رغبة منه في كسب الوقت حتى يتمكن القائد البيزنطي "الأرطبون" من سحب قواته من تلك المدينة، والوصول إلى مصر آمناً، وربما كان هناك ثمة اتفاق مسبق بين " صفرونيوس" و"الأرطبون" من أجل الصالح العام فالأول يحافظ على مدينته والآخر يحافظ على جنوده ويحميهم.

وكانت مصر أيضا- كما سبق أن ذكرنا- القاعدة التي انطلقت منها حملة قسطنطين بن هرقل إلى إنطاكية، وكادت تلك الحملة تزعزع الفتوحات الإسلامية في الشام، ومما لا شك فيه أن قوة تلك الحملة وما بعثته في قلوب المسلمين من فزع جعلهم لا يغضون الطرف عن ذلك الإقليم الذي انبعثت منه الحملة أنهم إذا كانوا قد انتصروا على القوات البيزنطية، فإنهم لم يأمنوا أن تتكرر تلك المحاولة، خاصة أن البحر مازال في أيدي الروم، وعن طريقه يمدون الموانيء التي لم تسقط بعد بالمؤن وبالرجال وخاصة قيسارية التي ظل المسلمون يحاصرونها بعد سقوط بيت المقدس، والتي ظلت صامدة بفضل تلك الإمدادات في وجه المسلمين، وكانت مصر هي أقرب قاعدة زودت قيسارية وغيرها من الموانيء بحاجتها من المؤن، ومن ثم غدت مصر محور ارتكاز القوات البيزنطية في حوض البحر الشرقي.

وكان فتح مصر بعد الشام ضرورة، فقد أدرك قادة المسلمين بالشام أن مصر ليست قاعدة يمكن أن تقضي على الفتوحات في الشام فحسب بل أنها ذات مركز استراتيجي يهيئ موقعه الجغرافي للبيزنطيين القيام بحملة انتقامية على بلاد العرب نفسها أي على المدينة المنورة حينما يفيق البيزنطيون إلى أنفسهم.

وعلى هذا النحو كان في الاستيلاء على مصر حرمان للأسطول البيزنطي من أية قاعدة يستطيع أن يعمل منها ضد المسلمين سواء مياه البحر المتوسط الشرقي قرب سواحل الشام، أو في مياه البحر الأحمر قرب الحجاز.

لذلك انتهز عمرو بن العاص فرصة المؤتمر الحربي الذي عقده عمر بن الخطاب (ﷺ) في الجابية(وهي مرتفعات الجولان الحالية) في ١٨هـ/ ٦٣٩م أثناء حضور عمر بن الخطاب إلى الشام ليستلم بيت المقدس من بطريركها "صفرونيوس".

أحوال مصر عند الفتح الإسلامي :

كانت أحوال مصر في العصر البيزنطي قد بلغت حداً لا مزيد عليه من السوء، ذلك أن الحالة الاقتصادية ساءت بسبب قسوة عبء الضرائب من ناحية والتمادي في نظام الوظائف غير المأجورة من ناحية أخرى. وقد أدى ذلك إلى فرار كثير من صغار الزراع من أراضيهم حتى كادت تختفي في القرن السادس للميلاد طبقة صغار الملاك الزراعيين.

هذا إلى أن تناقص صغار الملاك الزراعيين ترتب عليه استيلاء كبار الملاك على أراضيهم الأمر الذي أدى إلى خلل كبير في ميزان القوى الاجتماعية، فضلاً عن عجز الحكومة عن مواجهة نفوذ كبار الملاك الزراعيين.

وزاد من متاعب المصريين أن الرومان اعتبروهم دائماً الطبقة السفلى في المجتمع التي تأتي بعد الرومان واليونان وحتى اليهود، ففرضوا عليهم أشد الالتزامات قسوة، وفي الوقت نفسه حرموهم من أبسط الحقوق الاجتماعية، ومع ذلك فقد ظل المصريون متمسكين بقدر كبير من عاداتهم ونظمهم وثقافتهم القديمة، وربما أدى

إحساسهم بسوء وضعهم إلى تماسكهم وترابطهم، فضلاً عن تمسكهم وحرصهم على تراثهم وأصولهم الفكرية والاجتماعية.

وكان أن وجد المصريون في المسيحية محوراً روحياً كبيراً يلتفون حوله لتوقظ فيهم شعورهم القومي، وتبرز شخصيتهم وترفع روحهم المعنوية، فعبروا عن حماستهم الدينية التي اشتهروا بها منذ أقدم العصور تعبيراً صادقاً في ظل المسيحية، وأقبلوا على هذه الديانة الجديدة إقبالاً يتفق مع وصف هيرودوت لهم بأنهم قوم يخافون الله، ولم يبالوا بالاضطهاد العنيف الذي تعرضوا له من جانب الأباطرة الوثنيين، وهو الاضطهاد الذي بلغ ذروته على عصر الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م)، ولكن المصريين تحملوا ذلك الاضطهاد بنفس الشجاعة التي يواجه بها كل مؤمن جبروت الطغاة، فأطلقوا على الفترة الأخيرة من حكم دقلديانوس اسم عصر الشهداء ، واختاروا سنة ولايته الحكم – وهي سنة ٢٨٤م – بداية التقويم القبطي؛ إشارة لما عاناه الأقباط منذ تلك السنة المشئومة من أذى وجور، وتحت نير الاضطهاد الديني من ناحية، وفي ظل المقاومة بين مثل المسيحية ومبادئها الكريمة وبين ما كان المجتمع الروماني من فساد من ناحية أخرى، اختار كثير من الأقباط الفرار إلى الصحراء وأماكن العزلة النائية، لينقطعوا لعبادة الرب بعيدين عن فساد المجتمع الحضري، فضلاً عن تجنب قسوة الحكام وغلظتهم، وهكذا كانت مصر أول بلد في العالم شهد مولد حياة الرهبانية والديرية، وأسهم بهذه الحياة الجديدة إسهاماً خطيراً في تاريخ المسيحية وحضارتها.

ولم تهدأ موجة الاضطهاد ضد المسيحيين عموماً وأقباط مصر بوجه خاص إلا عندما اعترف الإمبراطور قسطنطين الكبير بالمسيحية سنة ٣١٣م، وأصدر في تلك السنة مرسوم " ميلان الشهير" الذي أطلق حرية العقيدة للمسيحيين، ولكن حتى مع انتشار المسيحية في العالم الروماني، ثم اعتبارها الديانة الرسمية للإمبراطورية منذ عهد الإمبراطور " ثيودسيوس الكبير" في أواخر القرن الرابع، فإن أباطرة القسطنطينية اختاروا ألا يتركوا أقباط مصر يتمتعون بحرية العقيدة وحق التعبير عن رأيهم في تفسير الآراء المتعلقة بالمسيحية.

ذلك أنه حدث حوالي منتصف القرن الخامس للميلاد أن اشتد الخلاف في المعسكر المسيحي حول تفسير طبيعة السيد المسيح، فقال **البعض** بأن للمسيح طبيعة واحدة، وهذا هو المذهب المونوفيزيتي، في حين قال **فريق آخر** بأن للمسيح طبيعتان إحداها إلهية والاخرى بشرية، وهذا هو المذهب الملكاني.

وكان أجمع المصريون على اعتناق مذهب الطبيعة الواحدة، في الوقت الذي قرر مجمع خلقدونية الديني سنة ٤٥١م،- الذي عقد تحت إشراف السلطة الإمبراطورية- الأخذ بمذهب الطبيعتين، وقد اتخذ تمسك المصريين بالمذهب المونوفيزيتي طابعاً قومياً، الأمر الذي عرضهم لموجة اضطهاد عنيفة من جانب الأباطرة البيزنطيين، وهكذا شهدت مصر في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للميلاد ثورات عنيفة، مما ضاعف من سوء الأحوال الاقتصادية في البلاد، وبلغ من قسوة الاضطهادات التي تعرض لها أقباط مصر في ذلك الدور أن كان يلقى بهم أحياناً في مواقد الحمامات العامة لتكون لحومهم وعظامهم وقوداً لنيرانها. وكان أن استغل كسرى الثاني فرصة اضطراب الإمبراطورية البيزنطية، فغزا الفرس أراضيها سنة ٦١٦م واستولوا على مصر ومدنها من الإسكندرية شمالاً حيث أسوان جنوباً. وعلى الرغم مما قاساه المصريون من قسوة الروم فإنهم لم يرحبوا بالفرس، ولم يروا فيهم المخلص الكفيل برفع الظلم عن كواهلهم، ولعل الغزو الفارسي لمصر وما تعرضت له البلاد والعباد على أيديهم من خراب وعذاب كان مما زاد أوضاع مصر عندئذ سوءاً على سوء حتى انتهى الأمر بأن نجح الإمبراطور هرقل سنة ٦٢٩م في طرد الفرس من آسيا الصغرى والشام ومصر جميعاً.

على أنه إذا كان هرقل قد نجح في طرد الفرس من مصر، فإنه لم ينجح في إيجاد حل للمشكلة الكبرى التي اعترضت سبيل العلاقة بين مصر والقسطنطينية ؛ وهي المشكلة التي كان سببها إصرار الكنيسة المصرية على التمسك بالمذهب المونوفيزيتي حتى اتخذ المصريون لأنفسهم لقب الأرذثوكس - بمعنى أصحاب العقيدة الصحيحة- في الوقت الذي اختارت كنيسة القسطنطينية مذهب الطبيعتين وحرصت عليه. وكان أن وضع هرقل صيغة للتوفيق بين قرارات مجمع خلقدونية

والمذهب المونوفيزيتي، دون أن يحسب حساباً لعناد المصريين، وما قد يترتب على رفضهم صيغة التوفيق التي وضعها الإمبراطور هرقل من مشاكل تهدد بقطع الخيط الواهي الذي يربط مصر بالقسطنطينية، وأدى عناد الإمبراطور هرقل به إلى أنه أرسل إلى مصر سنة ٦٣١م حاكماً يجمع في قبضته بين الزعامتين الدينية والسياسية، بمعنى أن يكون حاكماً إدارياً على مصر من قبل الإمبراطور، وفي نفس الوقت بطريركاً ورئيساً لكنيستها.

أما هذا الرجل فكان قيرس Cyrus- الذي عرفه كتاب العرب باسم المقوقس- وقد اشتهر بالصلابة والبعد عن المرونة والميل إلى العنف، الأمر الذي ضاعف من سوء الأوضاع في مصر على عهده، ويبدو أن المصريين أحسوا بما ينتظرهم من اضطهاد على يد الحاكم البيزنطي الجديد، فلاذ بطريرك الأقباط "بنيامين" بالفرار من الإسكندرية قبل وصول المقوقس إليها، واتجه البطريرك إلى وادي النطرون ومنه إلى طيبة بالصعيد.

ولم يخطىء المصريون في ظنهم، إذ تطرف قيرس- أو المقوقس- في اضطهادهم لحملهم على التخلي عن مذهب الطبيعة الواحدة، وبلغ به الأمر أن قبض على الأب مينا – شقيق البطريرك بنيامين- وأمر بنزع أسنانه وكي جسمه بالنار ليجبره على التخلي عن مذهبه المونوفيزيتي، ولما ازداد الرجل إصراراً على التمسك بعقيدته وضعة في جوال مليء بالتراب وألقي به في البحر.

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك الاضطهاد أن ازداد المصريون كرهاً للحكم البيزنطي، واشتد عداؤهم له ورغبتهم في التخلص منه.

وهكذا دارت الأحداث في مصر في الوقت الذي أخذ عمرو بن العاص يشق طريقه عبر الصحراء الشرقية في طريقه إلى الدلتا.

أحداث الفتح :

وعلى الرغم مما يحيط بأخبار فتح المسلمين لمصر من اضطراب وتناقض بين المصادر التاريخية فضلاً عن نقص في بعض التفصيلات المرتبطة بأحداث الفتح؛

إلا أن الخطوط العريضة لتلك العملية الخطيرة في التاريخ يسهل رسمها في ضوء المقارنة بين ما ذكره المؤرخون العرب مثل : ابن عبد الحكم، والبلاذري، وغيرهما من ناحية، وما ورد في بعض المصادر اليونانية على قلتها – مثل تاريخ حنا النقيوسي من ناحية أخرى.

وقبل أن نتكلم بإيجاز عن أحداث الفتح الإسلامي يصح أن نضع أمام أبصارنا الحقيقة الكبرى التي تبدو في صورة مباشرة أو غير مباشرة بين سطور المصادر السابقة، وهي أن المصريين أنفسهم – أعني الأقباط من أهل مصر – وقفوا موقفاً سلبياً من جهود الإمبراطورية البيزنطية في الدفاع عن مصر ضد الفتح الإسلامي فلم يتحمس المصريون للمشاركة في تلك الجهود، ولم يروا في المسلمين خطراً يهددهم. بل إن حنا النقيوسي – وهو مسيحي مصري مونوفيزيتى – يشير في أكثر من موضع إلى أن أقباط مصر كانوا يهاجمون جند الروم ويجردونهم من أسلحتهم ثم يسلمونهم لخصومهم المسلمين، وهكذا عبر المصريون عن مقتهم للحكم البيزنطي، ووجدوا في الفتح الإسلامي فرصة للتنفيس عما أحسوا به من ألم ومرارة بعد زمن طويل من الاضطهاد الديني، ذاق فيها أقباط مصر جرعة مريرة تركت أثراً عميقاً في تاريخ الكنيسة المصرية. وقد اعترف حنا النقيوسي في صراحة بأن انتصار المسلمين إنما جاء نتيجة لما حل بأقباط مصر من عسف واضطهاد على عهد الإمبراطور هرقل، ونائبه في حكم مصر وهو البطريرك قيرس (المقوقس)!!

كما انه يجب ألا يفوتنا أنّ نقول أن الشام فتحت قبل مصر وعلم الأقباط حرية العقيدة التي أتاحها المسلمون لنصارى الشام، والأهم من ذلك كله هو اعتراف الإسلام بالسيد المسيح، وأن اختلافهم مع الأقباط في طبيعة السيد المسيح لا يختلف كثيراً عن اختلاف المسيحيون فيما بينهم في هذا الموضوع.

سار عمرو بن العاص سنة ٦٣٩م (١٨هـ) من قيسارية على شاطئ فلسطين متجهاً إلى العريش حيث احتفل مع جنده بعيد الأضحى، ومن العريش قصد الفرما ومنها إلى بلبيس فأم دنين شمالي حصن بابليون حيث كان البيزنطيون قد تحصنوا وحشدوا قواهم بها. ويبدو أن عمرو بن العاص أحس عندئذ بقدر من المقاومة لم

بعهده منذ دخوله أرض مصر، فأرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب مستنجداً، وعندئذ أمده الخليفة بأربعة آلاف مقاتل " فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل".

وكان أن أحس " تيودور" القائد العام للجيوش البيزنطية في مصر بأن الخطر الذي يواجهه ليس مجرد غارة من تلك الإغارات التي اعتادت البلاد أن تتعرض لها بين حين وآخر، فحشد قواه وضاعف جهوده للدفاع عن حصن بابليون، الأمر الذي جعل العرب يقضون بضعة أشهر في حصاره.

وعندما طال القتال حاول المقوقس الوصول إلى حل مع المسلمين، فدارت مفاوضات بين الطرفين، لجأ الروم فيها إلى الجمع بين أسلوب التهديد والترغيب، فقالوا للمسلمين :" قد أقمتم بين أظهرنا أشهراً وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بين أيديكم. ونحن نطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نعرض لكل رجل منكم دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به". ولكن عمرو بن العاص ترك للروم اختيار حل من ثلاثة- لا رابع لها – إما الدخول في الإسلام، وإما الجزية، وإما القتال.

وفي خلال المفاوضات التي دارت بين المقوقس والمسلمين، أدرك المقوقس إصرار العرب على تحقيق غرضهم وعدم استعدادهم للمساومة، فاضطر إلى الاستسلام، ووافق على مبدأ دفع الجزية، وبذلك تسلم المسلمين حصن بابليون وأشرفوا من ذلك الموقع الحربي الفريد على مربط الوجهين البحري والقبلي. ثم أن المقوقس اشترط شرطين:

أولهما: أن تترك حرية الاختيار للروم في مصر بين قبول شروط الصلح أو الخروج من أرض مصر.

ثانيهما: أن تبقى الكلمة الأخيرة في الصلح للإمبراطور هرقل، فإن رفضه كانوا جميعاً إلى ما كانوا عليه" أي عادوا إلى القتال. ويفهم من هذا كله أن قبط مصر قد أصبح أمرهم مفر وغامته بمقتضى الصلح السابق، وأنه إذا كانت هناك مساومات بين الطرفين المتنازعين، فإن هذه المساومات كانت تدور فقط حول مصير الروم أو الجالية البيزنطية الموجودة بمصر.

وكان على عمرو بن العاص بعد ذلك أن يسيطر على الإسكندرية، كبرى مدن البلاد وعاصمة مصر منذ أيام البطالمة، والمركز الأول للنشاط السياسي والاقتصادي والثقافي في مصر طوال عصري البطالمة والرومان.

وفي تلك الأثناء كان هرقل قد رد على المقوقس في مصر يؤنبه، ويقول له إنك "رضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في جال القبط أذلاء، فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم". ولكن المقوقس لم يعبأ بهرقل، وأخبر عمرو بن العاص بأن القبط موفون له ما صالحهم عليه. وعندئذ طلب عمرو من المقوقس أن يضمن له الجسور، ويقيم له الإنزال والضيافة في طريقه إلى الإسكندرية، فتعهد المقوقس بذلك، وبذلك " صارت لهم القبط أعواناً كما جاء في الحديث".

على أن الموقف اختلف بالنسبة للإسكندرية عنه بالنسبة لحصن بابليون. ذلك أن الإسكندرية مدينة بحرية قبل كل شيء يحتاج حصارها إلى أسطول يحيط بها من ناحية البحر، في الوقت الذي كان للمسلمين في ذلك الدور يجهلون شئون البحر بل يخافون ركوبه. هذا إلى أن وضع الإسكندرية على شاطئ البحر كان يجعلها سهلة الاتصال بالقسطنطينية مما يجعل في الإمكان إمدادها بالرجال والعتاد والمؤن لتستطيع الصمود في عناد. وقد أدرك الروم أن الإسكندرية – وليس حصن بابليون– هي مفتاح مصر الحقيقي، فحشدوا فيها قواهم، بل لقد استعد الإمبراطور هرقل للخروج بنفسه إلى الإسكندرية للدفاع عنها، لولا أن دهمه الموت في أوائل سنة ٦٤١م(٢٠هـ).

وهكذا طال حصار المسلمين للإسكندرية واشتدت مقاومة البيزنطيين داخلها، حتى لقد انتاب القلق الخليفة عمر بن الخطاب، فأرسل إلى عمرو بن العاص يلومه ويستحثه.

وأخيراً – وبعد حوادث مليئة بالتفصيلات– أدرك المقوقس مرة أخرى تعذر الاستمرار في المقاومة، فتم إبرام معاهدة الإسكندرية في نوفمبر سنة ٦٤١م =(٢١هـ)، وأهم شروطها أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين سنوياً، وأن تعقد هدنة بين الطرفين لمدة أحد عشر شهراً تجلو خلالها الحامية البيزنطية

ومعها أموالها وعتادها عن المدينة، بشرط ألا يحاول الروم العودة إلى المدينة مرة أخرى. أما العرب فقد تعهدوا من جانبهم بعدم التدخل في شئون المسيحيين وعـــدم الاستيلاء على كنائسهم فضلاً عن السماح لليهود بالإقامة في الإسكندرية.

وجدير بالذكر أن عمرو بن العاص لم يغفل أمر داخلية البلاد أثناء انشغاله بحصار بابليون والإسكندرية. ففي أثناء حصار بابليون – وقبل وصول الإمـــدادات التـــي طلبها عمرو بن العاص من الخليفة – غزا عمرو بن العاص إقليـــم الفيـــوم فـــي صيف سنة ٦٤٠م (١٩هـــ). وقبل أن يستسلم حصن بابليون نفسه، قام المســـلمين بغزو إقليم وسط الدلتا حتى منوف الحالية.

وعندما طال حصار الإسكندرية، شغل عمرو بن العاص نفسه بغزو أقاليم دمنـــهور وسخا كما أوغل في وسط الدلتا.

وإذا كانت الإمبراطورية البيزنطية لم ترض عن ضياع مصر، وقامت بأكثر مـــن محاولة لاستردادها من الفاتحين المسلمين، فإن هذه المحـــاولات بـــاءت جميعـــاً بالفشل.

فتح برقة وطرابلس (ليبيا) :

وكان من الطبيعي أن يتوجه عمرو بن العاص إلى فتح برقة وطرابلس بعد فتـــح مصر حيث إنهما كانتا رسمياً تابعتين لمصر، فكان عمرو بن العاص علـــى رأس جيش من فرسانه حتى قدم برقة، فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية، ثم سار عمرو بن العاص بعد ذلك حتى نزل طرابلـــس ســـنة اثنيـــن وعشرين من الهجرة، فوجد سفن جند الروم راسية على الشاطئ، فأسرع بمهاجمـة المدينة التي لم يكن لها أسوار تحميها فلم تفلت الروم إلا بما خلف لهم من ســـفنهم، ونستنتج من وجود سفن الروم على شاطئ طرابلس، إصرار الروم على العـــدوان وأنهم كانوا يعدون العدة لذلك لولا يقظة عمرو بن العاص.

ومن ثم كانت هناك مقدمات لذلك الفتح تمثلت في غارات قصيرة- فيما يشبه السرايا- على الواحات وسكان الصحراء ثم العودة سريعاً إلى مصر وكأنها جس نبض لقوة الروم التي بدأت تنهار.

وكان عمرو بن العاص يراقب ما يحدث في برقة وطرابلس من صراعات وانشقاقات، وينتظر تلك اللحظات التي يصل فيها إلى تلك المناطق، وشجعه على ذلك العلاقات القديمة بين أهل مصر وقبائل كثيرة فيهما علاوة على أن الطرق بينهما مطروقة ومأمونة.

كانت الصحراء الممتدة من مصر إلى برقة تسكنها قبيلة (لواته) وهي قبيلة لها ماض عريق في العصر البيزنطي وهي من أكبر القبائل شأناً وأشدها بأساً، وكان لها الغلبة على ما جاورها من القبائل البربرية في برقة وطرابلس.

أرسل عمرو بن العاص بعضاً من جنده إلى برقة بقيادة عقبه بن نافع ليستطلعوا أحوالها ويوافوه بأخبارها حتى يكون على بينة من أمره ولا يقدم على مغامرة قد تكون غير مأمونة العواقب.

عاد عقبه بن نافع، وأطلع عمرو بن العاص على أحوالها بعد الحملة الاستطلاعية واطمأن عمرة إلى تقرير عقبه فتوجه بنفسه إليها وتم فتحها، وصالح أهلها على جزية يؤدونها وهي دينار عن كل حالم، وضمن عمرو بهذا الصلح كسب أهلها إلى جانب المسلمين كما دخل بعضهم في الإسلام.

وهناك بعض الروايات تشير إلى أن بربر برقة قد أرسلوا رسلاً منهم إلى عمرو بن العاص قبل انتهائه من فتح مصر يعرضون عليه الدخول في الإسلام.

ولا شك أن هؤلاء البربر قد رحبوا بعمرو حين توجه إليهم وتلقوه بالطاعة حتى قيل إنهم كانوا يبعثون بخراج أرضهم إلى مصر من غير أن يأتيهم من يجبي الخراج.

ويغلب على الظن أن البربر قد تأكدوا منذ الوهلة الأولى من قوة المسلمين خلال تلك الحملات الاستطلاعية التي أرسلها عمرو بن العاص أثناء حصار الإسكندرية أو التي أرسلها بعد ذلك في حملة عقبه بن نافع التي سبقت الإشارة إليها فأسرعوا بإظهار الطاعة وإعلان الولاء.

وبعد أن انتهى عمرو بن العاص من برقة بدأ يستعد لفتح طرابلس وما يجاورها من المدن الساحلية، وأرسل فرقة من جنده نحو الداخل لإخضاع الولايات الداخلية لتجنب هجمات البربر الذين عرف عن شدة مقاومتهم للروم فيما دار بينهما من صراعات.

ولما كان انتزاع الساحل من أيدي الروم لا يعني خضوع الولايات الداخلية والواحات التابعة لها في حوزة المسلمين تماماً، لذلك رأى عمرو ضرورة الاهتمام بإخضاع البربر في الداخل في نفس الوقت الذي يقوم فيه بفتح طرابلس.

وقد أسند عمرو بن العاص مهمة إخضاع الولايات والواحات الداخلية إلى عقبة ابن نافع الذي تمكن بمقدرته العسكرية والسياسية أن يخضع هذه النواحي ما بين برقة وزويلة.

وفي عام ٢٢هـ / ٦٤٢م توجه عمرو بن العاص إلى طرابلس فحاصرها ما يقرب من شهر أو أكثر فامتنعت عليه لحصانة أسوارها وكثرة أسلحتها إلى أن تمكن المسلمون من دخولها والاستيلاء عليها عقب ما يشبه المغامرة حين تمكن أحد الجنود من التسلل إلى داخل المدينة من الجهة التي تربطها بالبحر أثناء انحسار المياه عن جزء منها وتبعه المسلمون إلى أن تمكنوا من الاستيلاء على الكنيسة وفتحوا الأبواب ليدخل الجيش، ويتم إخضاع المدينة، وفر الروم في مراكبهم.

بعد أن تم للمسلمين فتح طرابلس أسرع عمرو بن العاص بإرسال سرية من خيله إلى مدينة (صبرة) وكان أهلها يساندون طرابلس أثناء الحصار الإسلامي لها- وتولى قيادتها عبد الله بن الزبير الذي داهم المدينة على حين غفلة من أهلها حيث فوجئوا بالمسلمين وهم يدخلون عليهم فلم يجدوا أمامهم وسيلة إلا الهروب والتوجه إلى صقلية واستولى المسلمون على ما فيها.

وأسرع عمرو بن العاص بالكتابة إلى الخليفة في المدينة المنورة قائلاً له :

" إن الله قد فتح علينا طرابلس، وليس بينها وبين إفريقية (تونس) إلا تسعة أيام ومكوكها كثير. وأهلها في عدد عظيم وأكثر ركوبهم الخيل، فإن أراد أمير المؤمنين أن يغزوها يفتحها الله على يديه فعل".

فكتب إليه عمر :

" ***إنها ليست بإفريقيا ولكنها المفرقة الغادرة لا يغزوها أحد ما بقيت".***

عاد عمرو بن العاص إلى مصر تاركاً عقبة بن نافع الذي اتخذ من برقة مقـــراً للجيش الإسلامي، وقد نجح عقبة في كسب كثير من أهالي البـــلاد مـــن قبـــائل : لواته، نفوسه ، وغيرهما الذين دخلوا في الإسلام.

الفصل الثاني

مصر في عصر الولاة

مصـــر في عـــصر الـــــولاة

لم تمض سنوات قليلة على الفتح الإسلامي، حتى ظهر مـــن خـــلال الأحـــداث أن مصر غدت فعلاً جزءاً أساسياً من أجزاء الخلافة الإسلامية ينفعل أهلها لما ينفعـــل به أهل الدولة الكبرى من أحداث، وينهضون بدورهم كاملاً في تحمل المسئوليات- الحربية والسياسية والحضارية - التي واجهت الخلافة الإسلامية. ذلـــك أن تلـــك الخلافة ما كادت تنطلق خارج حدود شبه الجزيرة العربية وتصل إلـــى ســـواحل البحر المتوسط من ناحية وهضبة إيران وجبال القوقاز مـــن ناحيـــة أخـــرى، إلا وأخذت تموج بعديد من الحركات السياسية والدينية التي قد يتحول بعضـــها إلـــى مشاكل من ذلك النوع الذي تواجهه كل دولة في فجر تاريخها. وفي جميـــع هـــذه المشاكل صار لمصر ولأهل مصر صوت مسموع ونصيب مرموق، مما يدل على أن مصر اندمجت فعلاً في دائرة الدولة الجديدة وأسهمت في حل مشاكلها.

وقد تولى إدارة مصر منذ الفتح الإسلامي حتى استقل الطولونيين بها ستة وســـتون والياً، وقد تولى بعضهم مرتين، وبعضهم تولى ثلاث مرات، تبلغ عدد العهود التـــي صدرت للولاة بمصر مائة عهد؛ وفيما يلي أشهر هؤلاء الولاة:

عصر الخلفاء الراشدين :

- عمرو بن العاص	سنة ٢١هـ
- عبد الله بن سعد بن أبي سرح	سنة ٢٥هـ
- قيس بن سعد بن عبادة	سنة ٣٥هـ
- محمد بن أبي بكر	سنة ٣٦هـ

العصر الأموي :

- عتبة بن أبي سفيان	سنة ٤٣هـ
- مسلمة بن مخلد	سنة ٤٧ هـ
- عبد العزيز بن مروان	سنة ٦٥ هـ
- عبد الله بن عبد الملك بن مروان	سنة ٨٤ هـ
- قرة بن شريك	سنة ٩٠ هـ

- محمد بن عبد الملك بن مروان سنة ١٠٥ هـ
- حفص بن الوليد سنة ١٠٨ هـ
- الحكم بن قيس سنة ١١١ هـ
-عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير سنة ١٣٢ هـ

العصر العباسي :

- صالح بن علي سنة ١٣٣ هـ
- عبد الملك بن زيد الخراساني سنة ١٣٣ هـ
- يزيد بن حاتم بن قبيصة سنة ١٤٤ هـ
- عبد الصمد بن علي بن عبد الله ابن العباس سنة ١٤٥ هـ
- مطر مولى المنصور سنة ١٥٩ هـ
- واضح مولى المهدي سنة ١٦٢ هـ
- إبراهيم بن صالح بن على بن عبد الله ابن العباس سنة ١٦٥ هـ
- الفضل بن صالح سنة ١٦٩ هـ
- على بن سليمان بن على سنة ١٦٩ هـ
- موسى بن عيسى بن موسى سنة ١٧١ هـ
- جعفر البرمكي " حاكم فخرى أناب عنه عمرو بن مهران سنة ١٧٦ هـ
- هرثمة بن أعين سنة ١٧٨هـ
- عبد الملك بن صالح سنة١٧٨ هـ
- إسماعيل بن صالح سنة ١٨١ هـ
- السري بن الحكم سنة ٢٠٠ هـ
- ابنا السري (محمد بن عبدالله) سنة ٢٠٥ هـ
- عبد الله بن طاهر بن الحسين سنة ٢١١ هـ
- إيتاخ التركي سنة ٢٣٥ هـ

- عنبسة بن إسحق سنة ٢٣٨ هـ
- الفتح بن خاقان سنة ٢٤٢ هـ
- مزاحم بن خاقان سنة ٢٥٣ هـ
- باكباك التركي سنة ٢٥٤ هـ
- يارجوخ التركي سنة ٢٥٦ هـ

وسنتكلم في كلمة موجزة عن الولاة الذين ارتبطت باسمهم أحداث ذات بال وهم :

عمرو بن العاص :

أبرز الولاة، وأول من ولي مصر بعد أن قاد بنجاح جيش الفتح، له عدة منشآت مهمة بمصر، فهو الذي أسس مدينة الفسطاط، وبنى الثروات فيها واقتناء" الضياع والدور"، في وقت كان المسلمون قريبي عهد بتقشف الرسول(ﷺ) وبساطة أبي بكر وتشدد عمر، ومنها استياء كثيرين – وبخاصة من عرب الجنوب – من تسلط قريش، فاعتبروها مغتصبة لحقوقهم وتمنوا الخلاص من سيادتها وحكومتها. وأنفت بعض القبائل العربية، مثل بني بكر ووائل وعبد القيس وربيعة من الخضوع لقريش، ووسط هذه التيارات المتضاربة ظهر اتجاه يستهدف الكيد للإسلام والنيل منه بإضرام نار الفتنة في جوف الدولة الإسلامية، وقد كان هذا اتجاهاً فارسياً يتظاهر بمساندة حق علي بن أبي طالب في الخلافة، ولكنه في حقيقة الأمر لا ينبغي إلا إثارة الفتنة وهدم البناء الكبير الذي شيده المسلمون في مدى قصير لا نظير له في التاريخ. وهنا يقفز اسم رجل من أهل صنعاء باليمن، هو عبد الله بن سبأ الذي كان يهودياً فأسلم، ثم استغل ذكاءه في الكيد للدولة الإسلامية الناشئة وإثارة الفتنة في جوفها بغية هدمها.

وكان أن تظاهر ذلك اليهودي الذي اعتنق الإسلام بالتشيع لعلي بن أبي طالب، أخذ يستميل بعض كبار الصحابة إلى جانبه، وخاصة بعد أن استقر له المقام في مصر عقب أن طاف بالحجاز والبصرة والكوفة والشام. وكان ابن سبأ يحاول بذر بذور الفتنة في كل مركز من هذه المراكز حتى يكتشف أمره ويطرد، فينتقل إلى المركز التالي.

وفي مصر بالذات وجد ابن سبأ عوامل كثيرة مساعدة أدت إلى استياء الناس من عثمان، وقريبه عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامله على مصر. وقد استغل عبد الله بن سبأ فرصة انشغال عبد الله بن سعد بن أبي سرح بحروبه الخارجية في النوبة وإفريقية، فضلاً عن الحرب البحرية ضد الروم، وأخذ يحكم خطته لتوحيد برنامج العمل بين أهل مصر والبصرة والكوفة، بحيث كانت الزعامة في تلك الحركة لأهل مصر. وتم الاتفاق على أن يخرج من كل قطر من هذه الأقطار وفد كبير على ا، تتلاقى هذه الوفود في المدينة.

وفي تلك الأثناء كان أهل مصر قد انتهزوا فرصه سفر عبد الله بن سعد بن أبي سرح من مصر (سنة٣٥ هـ=٦٥٥م) لمقابلة الخليفة عثمان في المدينة و أعلنوا الثورة وطردوا خليفة ابن أبى سرح من الفسطاط وعندما سمع الخليفة عثمان بذلك حاول علاج الموقف علاجا هادئا فأرسل سعد بن أبي وقاص لمحاولة تهدئة المصريين.

وفي تلك الأثناء كان أهل مصر قد انتهزوا فرصة سفر عبد الله بن سعد بن أبي سرح من مصر(سنة ٣٥هـ= ٦٥٥م) لمقابلة الخليفة عثمان في المدينة، وأعلنوا الثورة وطردوا خليفة ابن أبي سرح من الفسطاط. وعندما سمع الخليفة عثمان بذلك حاول علاج الموقف علاجاً هادئاً، فأرسل سعد بن أبي وقاص لمحاولة تهدئة المصريين. ولكن أهل مصر رفضوا السماح له بدخول البلاد، وكذلك فعلوا مع عبد الله بن أبي السرح، وبادروا بإرسال وفدهم إلى المدينة لمقابلة بقية الوفود الممثلة للثورة ضد الخليفة. ويقال أن الخليفة عثمان أحسن مقابلة وفد مصر، وأجاب الوفد إلى مطالبه، فشرع أهل مصر في العودة إلى بلادهم. ولكن حدث أثناء طريقهم إلى مصر أن اشتبهوا في شخص يتعرض لهم تارة ويفارقهم أخرى، ففتشوه فإذا هو يحمل كتاباً عن لسان عثمان وعليه خاتمه إلى عامله على مصر، يأمره بقتل ذلك النفر ولبهم. وكان أن عاد أعضاء الوفد مرة أخرى إلى المدينة وواجهوا عثمانً بكتابه، فأنكره وأقسم على أنه بريء منه. ولما تبين لهم أن الذي بعث بالخطاب المذكور هو مروان بن عبد الحكم طلبوا من عثمان أن يسلمهم مروان ليقتلوه، فأبى عثمان ذلك. وهكذا انتهى الأمر بمحاصرة عثمان في داره

اثنين وعشرين يوماً، حتى اقتحموا داره وقتلوه سنة ٣٥هـ =٦٥٥م، فكانت هذه أول فتنة، أو الفتنة الكبرى في الإسلام.

وبعد مقتل عثمان، عاد وفد مصر إلى بلاده، ويبدو أنهم أحسوا بسوء فعلهم وخشوا عاقبة غدرهم، فنادوا عند دخولهم المسجد العتيق بالفسطاط" إنا لسنا قتلة عثمان ولكن الله قتله".

النزاع بين على ومعاوية :

على أن مقتل ثالث الخلفاء الراشدين على تلك الصورة كان له رد فعل عميق في العالم الإسلامي، إذ اشتد الخلاف بين على بن أبي طالب الذي بويع بالخلافة بعد مقتل عثمان، وبين معاوية بن أبي سفيان والي بلاد الشام من قبل عثمان بن عفان.

ويعنينا من أمر هذا النزاع المتداخل الحلقات أنه أدى إلى نوع من الفوضى والنزاع في مصر، فاغتصب محمد بن أبي حذيفة ولاية مصر لنفسه" وملكها من غير ولاية من خليفة"، في الوقت الذي اشتد القتال في البلاد بين شيعة عثمان المطالبين بدمه وشيعة على بن أبي طالب.

وظهر من القتال الذي شهدته مصر في تلك الآونة بين شيعة عثمان وشيعة على، أن النصر كان في جانب الفريق الأول، الأمر الذي شجع معاوية بن أبي سفيان على القدوم إلى مصر(سنة ٣٦هـ= ٦٥٦م). وعندما تصدى محمد بن أبي حذيفة لمعاوية ومنعه من دخول مصر، لم يلجأ معاوية إلى استخدام العنف لشق طريقه داخل البلاد، وإنما نادى بأنه حضر للانتقام من قتلة عثمان وعلى رأسهم عبدالرحمن بد عديس وكنانة بن بشر، اللذين تزعما الوفد المصري الذي قتل عثمان في المدينة. وفي الوقت نفسه استعمل معاوية مهارته السياسية في القضاء على الحزب العلوى في مصر، وعلى رأسه ابن أبي حذيفة نفسه الذي قتل بعد قليل.

ولما علم على بن أبي طالب بمقتل ابن أبي حذيفة، عين بدله في ولاية مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، "وكان عنده رأي ومعرفة ودهاء" فاستمال شيعة عثمان في مصر" ورد عليهم أرزاقهم، وقدموا عليه بمصر فأكرمهم وأنعم عليهم".

ولم يرض معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص عن ذلك الوضع "واجتهدا كثيراً ليخرجاه منها فلم يقدرا على ذلك، فدبرا حيلة للإيقاع بين على بن أبي طالب وقيس، ونجحت الحيلة، وتم عزل قيس عن ولاية مصر ليحل محله الآشتر النخعى والياً على مصر من قبل على ابن أبي طالب. وكان الآشتر من كبار القواد المشهود لهم بالشجاعة والبأس، فتخوف معاوية من تعيينه والياً على مصر" وعظم ذلك يديه"، فدبر مؤامرة لقتله على حدود مصر، ونجحت المؤامرة، إذ مات مسموماً عند القلزم.

وقد وصفت المراجع محمد بن أبي بكر، الذي ولى مصر(سنة ٣٧هـ= ٦٥٧م) بأنه كان سيء التدبير، ففتك في المصريين وهدم دور شيعة عثمان بن عفان ونهب دورهم وأموالهم وهتك ذراريهم، وكان أن استغل معاوية بن أبي سفيان حالة الفوضى التي وقعت فيها مصر وأرسل جيشاً (سنة ٣٨هـ=٦٥٨م) بقيادة عمرو بن العاص، وانتهى الأمر بهزيمة محمد بن أبي بكر ومقتله.

ومنذ ذلك الوقت انتهى حكم الخلفاء الراشدين في مصر، وصارت مصر ولاية تابعة للدولة الأموية، وعاد عمرو بن العاص والياً عليها مرة أخرى؛ ولكن كان في هذه المرة من قبل معاوية بن أبي سفيان.

مصر وحركة ابن الزبير :

صحب قيام الدولة الأموية انقسام المسلمين إلى ثلاثة أحزاب كبرى هي شيعة بني أمية ومعظمهم من أهل مصر والشام، وشيعة على بن أبي طالب ومعظمهم ببلاد العراق وقليل منهم بمصر، ثم الخوارج الذين خرجوا على الفريقين واستحلوا دماءهم جميعاً ونادوا بأن الخلافة حق لكل مسلم مستوفي شروطها دون التقيد بقرشي أو غير قرشي.

وقد حدث أن خرج عبد الله عن طاعة الأمويين، ودعا لنفسه بالخلافة في المدينة (سنة ٦١هـ= ٦٨٠م)، فبايعه بعض أهالي الأمصار الإسلامية ومنهم أهل مصر، ويبدو أن الخوارج بمصر ظنوا أن ابن الزبير يؤيدهم في مذهبهم، فأرسلوا إليه وفداً يعلن تأييدهم له ويطلب منه تعيين رجل من قبله ليحكم مصر. وكان أن

استجاب ابن الزبير لدعوة أهل مصر، وأرسل إليهم عبد الرحمن بن عتبة ابن جحدم الفهري لينوب عنه في حكمها(سنة ٦٤هـ= ٦٨٣م).

ولكن الخليفة الأموى مروان بن الحكم لم يرض عن ضياع مصر من قبضة الخلافة الأموية، فأرسل إليها جيشاً بقيادة ابنه عبد العزيز لطرد عبد الرحمن ابن جحدم عامل عبدالله بن الزبير. ولم يستسلم ابن جحدم في سهولة، وإنما حفر خندقاً حول الفسطاط، وأرسل الجيوش والمراكب لقتال مروان وابنه عبد العزيز. ومع ذلك فقد انتصرت جيوش مروان، الذي حضر بنفسه إلى مصر وأنزل الهزيمة بابن جحدم في عين شمس، ثم دخل الفسطاط(سنة ٦٥هـ= ٦٨٤م) وبنى بها الدار البيضاء لتكون مقراً له. وكان أن بايع الناس الخليفة مروان، ما عدا ثمانين رجلاً تمسكوا ببيعة ابن الزبير فقتلهم. وبعد أن أقام مروان شهرين في مصر، غادرها إلى الشام بعد أن ولى عليها ابنه عبد العزيز.

صدى النزاع بين اليمنية والمضرية :

وثمة عامل هام من عوامل ضعف الدولة الأموية، ترك أثراً خطيراً في أحوال مصر في ذلك العصر، هو ظهور روح العصبية بين عرب الشمال وعرب الجنوب- أو بين مضر واليمن- وتحولت هذه الروح إلى عداء سافر خطير. وقد اشتدت هذه الفتنة في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، إذ ثار ضده يزيد بن الملهب وهو من عرب الجنوب، فأدى تطرف الخليفة في قمع حركته إلى إستثارة العنصر اليمني. ومنذ ذلك الوقت ومشكلة العداء بين المضرية (أوالقيسية) واليمنية في تفاقم مستمر، حتى ولى الخلافة مروان بن محمد آخر الحلفاء الأمويين في المشرق، فتطرف في محالفة المضرية ضد اليمنية، ا؟لأمر الذي أثار اليمنيين في مصر، وعندما استقال حفص بن الوليد الحضرمي والى مصر، عين مروان ابن محمد بدله حسان بن عتاهية، فبدأ الوالي الجديد يحل الفرق التي كان حفص بن الوليد قد جندها، الأمر الذي أثار رجال تلك الفرق.

ولم يلبث أن ثار اليمنية في مصر وحاصروا دار حسان بن محمد، فاضطر إلى الفرار إلى الشام بعد أن لبث في ولاية أياماً معدودة. ولم يكتف الثائرون بذلك، بل

عينوا حفص بن الوليد واليا عليهم على كره من الخليفة مروان بن محمد. وعندما عين الخليفة حنظلة بن صفوان الكلبي واليا على مصر، رفضه المصريون وحاربوا حنظلة وأخرجوه، وظل حفص بن الوليد واليا على مصر رغم أنف الخليفة طوال سنة ١٢٧هـ وبعضا من سنة ١٢٨هـ(٧٤٥-٧٤٦م)، الأمر الذي يدل على اضطراب الأحوال في مصر ومدى الاستهانة بكلمة الخليفة الأموى.

ولم يستطع مروان بن محمد التغلب على الموقف العدائي الذي اتخذه المصريون منه إلا بعد أن أرسل جيشا كبيرا بقيادة حوثرة بن سهيل الباهلي الذي ولاه على مصر، وتمكن حوثرة بفضل جيشه القوي من القبض على اليمنية في البلاد- وعلى رأسهم حفص بن الوليد نفسه- وقتلهم جميعا(سنة ١٢٨هـ=٧٤٦م). ويروي أبو المحاسن أن حوثرة " بعث في طلب رؤساء مصر فجمعوا له، فضرب أعناقهم وفيهم رجاء بن الأشيم الحميري من كبار المصريين".

ويثبت التاريخ دائما أنه إذا نجح العنف في خلق جو من الهدوء، فإنه هدوءا يخفي تحته نارا تضطرم، ولم يلبث المصريون واليمنيون أن عبروا عن استيائهم من الخليفة مروان بن محمد عندما فر الأخير إلى مصر من وجه أعدائه بني العباس.

مصر بين الأمويين والعباسيين :

إذا كان معاوية بن أبي سفيان قد نجح في انتزاع الخلافة من على بن أبي طالب ووضع دعائم الخلافة الأموية في دمشق، لتحكم سيطرتها على العالم الإسلامي من المحيط إلى الخليج، فليس معنى ذلك أن الأمور سارت في هدوء بالنسبة للأمويين. ذلك أن موقف بني أمية من على بن أبي طالب وذريته، وما اتصف به هذا الموقف من خداع وبعد عن مبادئ الأخلاق حينا أو عنف وقسوة بلغت حد الوحشية أحيانا، كل ذلك أثار شعور العطف بين كثير من المسلمين على العلويين، وهو الشعور الذي لم يلبث أن تحول إلى حركة ضخمة زلزلت قواعد الخلافة الأموية وأصابتها بهزات متوالية. عرضت بناءها الكبير للتصدع السريع، ولم تكن حركة التشيع لآل على هي الحركة الوحيدة التي أخذت تنخر في جسم الدولة الأموية، وإنما اشتد ساعد الخوارج منادين بتجريد قريش من امتيازاتها السياسية

وحرمانها من الاستئثار بشرف الخلافة، فضلاً عن استياء الموالي لأن الخلفاء الأمويين لم يساووا بينهم وبين العرب وفقاً لشريعة الإسلام، وميزوا العرب عليهم في الحقوق والواجبات.

وهكذا أخذت عوامل الضعف تتجمع لتنخر في جسم الدولة الأموية، وزاد من وقع هذه العوامل انقسام البيت الأموى على نفسه منذ عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٢٥-١٢٦هـ= ٧٤٣-٧٤٤م)، وهو الانقسام الذي أتاح للعوامل السابقة فرصة الظهور والعمل. وهنا استغل بنو العباس – عم الرسول (ﷺ) – تلك الأوضاع للدعاية لأنفسهم، فاستفادوا من نقمة الموالى من جهة وحنق الشيعة من جهة أخرى، وأخذوا يدعون إلى بني هاشم بوجه عام، أو على وجه التحديد إلى " الرضا من آل محمد".

وكان أن انتشر دعاة العباسيين يعملون سراً في كثير من أمصار الدولة الإسلامية، ومنها مصر، ويروى أبو المحاسن أن الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك عزل عامله على مصر – وهو عبد الرحمن بن خالد– لأن " دعاة بني العباس أرسلوا إليه سراً فأكرمهم ووعدهم، فبلغ ذلك هشاماً فعزله". وإذا كانت مصادر التاريخ لا تمدنا بقدر كاف من المعلومات عن دور مصر في الأحداث التي صحبت الدعوة للعباسيين، فإننا من جانبنا لا نميل إلى المبالغة في تقدير ذلك الدور. ذلك أن الدعوة لبني العباس اتخذت مراكزها الأساسية في الشرق، وخاصة في إقليم خراسان بالذات، ومن هناك اندلعت الثورة التي عصفت بالدولة الأموية في المشرق (سنة ١٣٢هـ= ٧٤٩م).

ولما حلت الهزيمة بمروان بن محمد– آخر الخلفاء الأمويين– في موقعة الزاب ا؟لأصغر بالعراق، فر مروان إلى الموصل ثم إلى حران وفلسطين حيث توالت عليه الهزائم، فلم يجد أمامه سوى مصر. وكان أن دخل مروان بن محمد الفسطاط، ولكن العباسيين لاحقوه إلى مصر. ويبدو أن مروان بن محمد وضع خطة تستهدف عدم تمكين العباسيين من عبور النيل من ناحية ومن الاستفادة من المدن الكبرى من ناحية أخرى، فأمر بإحراق كافة السفن في النيل، كما أمر بإحراق كافة المدن الكبرى الواقعة على الضفة الشرقية وعلى رأسها الفسطاط.

وهنا ارتكب مروان بن محمد خطئاً كبيراً لأنه لم يحاول اكتساب أهـــل مصـــر - وخاصة من الأقباط الذين مازالوا عندئذ يكونون نسبة لا بأس بها من السكان- بــل على العكس لقد استثارهم وقبض على بطركهم أنبا ميخائيل وزج به مع عدد كبـير من القساوسة في السجن، الأمر الذي جعل الأقباط يرحبون بالعباسيين ويرشـدونهم إلى مسالك البلاد، وهكذا وجد القائد العباسي صالح بن على حليفاً في المصرييــن، فطارد مروان بن محمد حتى لحق به في قرية بوصير من أعمال الفيوم، وهنـــاك هجم جند العباسيين على عسكره، وضربوا الطبول وكــبروا منــادين" بالثـــار ات إبراهيم" يعنون إبراهيم الإمام الذي سمه الأمويون في حران، وانتهى الأمر بقتـــل مروان في ذي الحجة سنة ١٣٢هـ= ٧٤٩م، وبذلك شهدت أرض مصر مصـــرع آخر الخلفاء الأمويين في المشرق، وكان أن أظهر العباسيون مرونة فـــي معاملـــة أقباط مصر، فأفرجوا عن البطرك السجين، وتعهدوا له بحماية ممتلكات الكنيســـة ومصالحها الحيوية في البلاد، وخففوا الخراج عن الأقباط بوجه عام.

وإذا كانت مصر قد أصبحت ولاية عباسية منذ أوائل سنة ١٣٣هـ = ٧٥٠م، فإنه ليس معنى ذلك أن الأحوال هدأت في مصر في العصر العباسي، ذلـــك أن أبنـــاء البيت الأموى لم يرضوا بزوال ملكهم، فاستمر من قدر له البقاء والحيــــاة منـــهم يثيرون المتاعب في مختلف الأمصار ضد الحكم العباسي الجديد، من ذلك أن أحـد أبناء البيت الأموى- واسمه دحية بن مصعب بن الأصبغ - خرج في مصر علـــى الخلافة العباسية في عهد الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ)، واتخذ الصعيد مركزاً لنشاطه حتى صار معظم الوجه القبلي في قبضته، الأمر الـــذي أفـــزع الخلافـــة العباسية وهدد بخروج مصر كلها من قبضتها، لذلك اهتم العباسيون بـــأمر هـــذا الخطر، وأرسلوا الجيوش والولاة لمكافحته، فاضطر دحية إلـــى الالتجـــاء إلـــى الواحات حيث انتهى الأمر بأسره وضرب عنقه في الفسطاط (ســـنة ١٦٩هـــ= ٧٨٥م)، ثم أرسل رأسه "إلى الخليفة الهادي العباسي، ولم يجرؤ أحد من أنصـــار البيت الأموى أن يرفع رأسه في مصر، وربما عبروا عن كرههم للعباسيين عـــن طريق مساندة الحركة العلوية.

العلويون في مصر والخلافة العباسية :

كان أول الخارجين من العلويين ضد الخلافة العباسية هو محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية، وأخوه إبراهيم. وقد اتخذ محمد المدينة المنورة مركزاً لدعوته، ووجد من أهل الحجاز تأييداً قوياً له، في حين أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر الدعوة بالعراق، ولا تعنينا في هذا المقام تفاصيل تلك الثورة، إذ انتهى أمر محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم إلى القتل سنة ١٤٥هـ(٧٦٢م) واجتزت رأسيهما، مما أضاف فضلاً جديداً إلى مأساة العلويين. وإنما الذي يعنينا هو أن على بن محمد النفس الزكية قدم إلى مصر قبل مقتل أبيه وعمه بمدة وجيزة لنشر الدعوة لهما، وكان الوالي على مصر وقتئذ من قبل الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور هو حميد بن قحطبة (١٤٣-١٤٤هـ= ٧٦٠-٧٦١م) الذي اتهمه الخليفة بالتقاعس عن مطاردة على بن محمد، فعزله من ولاية مصر، وعين بدله يزيد بن حاتم (١٤٤-١٥٢هـ= ٧٦١-٧٦٩م)، وقد بادر يزيد بن حاتم بمنع " أهل مصر من الحج" سنة ١٤٥هـ= ٧٦٢محتى لا يتأثروا بثورة محمد النفس الزكية في الحجاز. فلما قتل محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم " أذن لهم في الحج". أما على بن محمد النفس الزكية فقد انتهى أمره نهاية صامتة، وتضاربت الأقوال حول نهايته. على أن الأمر الجدير بالذكر فعلاً هو أن بعض أفراد البيت الأموى الذين كانوا بمصر انتهزوا الفرصة وأسرعوا إلى مبايعة على بن محمد النفس الزكية. ومن هؤلاء مصعب ومنصور وزيد أبناء الأصبغ بن عبد العزيز ابن مروان.

ولم تكن ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم سوى الحلقة الأولى في سلسلة من ثورات العلويين التي شهدها العصر العباسي. ففي سنة ١٦٩هـ أي في عهد الخليفة الهادي العباسي خرج الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب، ودعا إلى نفسه بالمدينة، ولكن العباسيين قضوا عليه في موقعة فخ الشهيرة، وكان ممن يؤيده في حركته يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن، وهما أخوة محمد النفس الزكية، ففر يحيى عقب موقعة فخ إلى بلاد الديلم في حين فر إدريس إلى مصر في طريقه إلى بلاد المغرب. وكان الوالي على

مصر من قبل الخليفة هارون الرشيد وقت مجيء إدريس إليها هـو علـى ابـن سليمان(١٦٩-١٧١هـ= ٧٨٥-٧٨٧م)، ويقال إنه علم بقدوم إدريس إلى مصـر ولكنه تستر عليه، وظل إدريس مختفياً بمصر إلى أن حمله واضـح المنصـوري صاحب البريد إلى المغرب حيث أسس دولة الأدارسة.

ويبدو أن كثيراً من العلويين اختاروا الفرار إلى مصر هرباً من مطاردة العباسـين لهم، وممن أتى إلى مصر في ذلك العهد السيدة نفيسة (رضـي الله عنـها) بنـت الحسن بن زيد، وقد أتت مع زوجها من المدينة إلى مصر هاربين مـن اضطـهاد العباسيين، وقيل أنها كانت فيمن صلى على الإمام الشـافعي عنـد موتـه سـنة (٢٠٤هـ=٨١٩م)، وتوفيت في شهر رمضان سنة (٢٠٨هـ=٨٢٣م)، وقبرهـا اليوم من المقابر الشهيرة بالقاهرة، وربما أحس العلويون في مصـر بنـوع مـن الاطمئنان لبعدهم عن مركز الخلافة العباسية في بغداد، حتى كان عـهد الخليفـة المتوكل العباسي(٢٣٢-٢٤٧هـ= ٨٤٦-٨٦١م) فأمر عاملـه علـى مصـر- إسحاق بن يحيى- بإخراج آل على بن أبي طالب مـن مصـر، فـأخرجوا مـن الفسطاط إلى العراق ومنها إلى المدينة المنورة سنة ٢٣٦هـ=٨٥٠م.

وإذا كان قد بقي بمصر بعد ذلك بعض العلويين، فـهؤلاء تعرضـوا للاضطـهاد الشديد في عهد المتوكل ثم ابنه الخليفة المنتصر، حتى أن والي مصر يزيد بن عبد الله تتبعهم " وأبادهم وعاقبهم وامتحنهم وقمع أكابرهم وحمل منـهم جماعـة إلـى العراق على أقبح وجه".

وقد أرسل الخليفة المنتصر العباسي إلى يزيد بن عبد الله بمصر يأمره بألا يسـمح لعلوى بركوب فرس ولا امتلاك أكثر من عبد واحد وأنه إذا اختصـم إليـه أحـد الطالبيين وفرد من سائر الناس يرفض قول الطالبي ويقبل قـول خصمـه دون أم يطالبه ببينة!!.

ولكن على الرغم مما تعرض له العلويون في مصر مـن أذى وامتـهان، إلا أن اضطراب أحوال الخلافة العباسية منذ منتصف القرن الثـالث للـهجرة (التاسـع للميلاد) وازدياد نفوذ الأتراك في الدولة، أدى إلى خلل الأحوال في الأقاليم، الأمـر الذي أتاح الفرصة للعلويين - في مصر وغير مصر - لرفـع رءوسـهم ضـد

الخلافة العباسية. وقد حدث في خلافة المعتز (٢٥٢-٢٥٥هـ= ٨٦٦-٨٦٩م) أن ثار بالإسكندرية رجل اسمه جابر بن الوليد المدلجي سنة (٢٥٢هـ=٨٦٦م)، وبلغ من خطورة ثورته أنه استطاع أن يبسط نفوذه على كثير من بلاد الوجه البحري، وهنا انتهز العلويون في مصر الفرصة، فأنضم إلى تلك الثورة أحدهم وهو عبد الله بن أحمد المعروف بابن الأرقط. ولكن الخليفة المعتز عندما لمس عجز واليه يزيد بن عبد الله عن إخماد تلك الثورة أرسل جيشاً كبيراً بقيادة مزاحم بن خاقان الذي استطاع إنزال الهزيمة بجيوش جابر بن الوليد والقبض على ابن الأرقط وإرساله إلى العراق. وبعد ذلك ولى الخليفة مزاحم بن خاقان على مصر، فتعسف في معاملة الأهالي " وشدد على الناس حتى أبادهم" . ويبدو أن مصر شهدت في ذلك الدور حركات كثيرة ضد سلطة الخلافة العباسية، بدليل ما يشير إليه أبو المحاسن من " خروج جماعة كبيرة من المصريين" ومن أن مزاحم بن خاقان " كثر إيقاعه بسكان النواحي" فلم يقتصر الأمر على مقاتلة أهل الحوف وأهر تروجة وإنما قاتل أيضا أهل الفيوم وغير ذلك من الجهات.

وهكذا ظل العلويون وراء كثير من الحركات التي ظهرت في مصر منذ عهد الخليفة المتوكل العباسي. ولم تهدأ هذه الحركات إلا بقيام الدولة الفاطمية في مصر سنة (٣٥٨هـ=٩٦٩م) وهي الدولة التي جاء قيامها انتصار للعلويين وشفاء لقلوبهم بعد قرون طويلة تعرضوا فيها لعسف الأمويين من جهة ثم العباسيين من جهة أخرى.

صدى النزاع بين الأمين والمأمون :

شهدت الدولة العباسية بين سنتي (١٩٣،١٩٨هـ= ٨٠٨،٨١٣م) فتنة خطيرة بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون، وذلك حين عزم الأمين على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد. وكان أبوهما الرشيد قد أخذ البيعة من بعده لأبنه الأمين ثم المأمون، ولكن الأمين ما كاد يلي الخلافة حتى عزم على خلع أخيه المأمون، وجعل ولاية العهد لابنه موسى.

ولا يعنينا في هذا الصدد الحروب الطويلة التي قامت بين الأمين والمأمون، والتي انتهت سنة (١٩٨هـ=٨١٣م) بقتل الأمين وانتقال الخلافة إلى المأمون؛ وإنما يكفي أن نشير إلى حقيقيتين هامتين :

الأولى هي : أن الفتنة بين الأمين والمأمون هي في حقيقة الأمر نزاع حزبي بين الفرس وهم أنصار المأمون وبين العرب أنصار الأمين، وكان وراء المأمون الفضل بن سهل وهو فارسي، في حين وقف خلف الأمين الفضل بن الربيع وهو عربي.

والحقيقة الثانية هي : أن تلك الفتنة تركت أثراً سيئاً في ولايات الدولة وأثارت نوعاً من الفوضى في مختلف ربوعها، وأتاحت فرصة للعناصر الناقمة على العباسيين – مثل الأمويين والعلويين جميعاً– للثورة، بل لقد امتد الانقسام بين حزبي الأمين والمأمون إلى كثير من الولايات، مما أوجد حالة خطيرة في بعض الولايات التابعة للخلافة العباسية.

وكانت مصر من البلاد التي تأثرت تأثراً واضحاً بتلك الحالة التي نجمت عن النزاع بين ألأمين والمأمون ، فظهر فيها حزبان كبيران ، حزب يناصر الأمين وحزب يؤيد المأمون، فلم يكد أهل مصر يسمعون أن الأمين خلع أخاه المأمون من ولاية العهد. حتى غضب فريق من الجند بزعامة السري بن الحكم بن يوسف ونادوا بخلع الخليفة الأمين، ومن ناحية أخرى فإن المأمون حرص على أن يكتسب أنصاراً لنفسه في مصر، فأرسل إلى أعيان البلاد ووجوه القوم يدعوهم لمناصرته، فأجابه كثيرون، وهكذا انتهى الأمر بخلع الأمين في مصر سنة (١٩٦هـ=٨١١م) فطرد عامله على البلاد جابر بن الأشعث وحل محله من قبل المأمون عباد بن محمد.

وكان ضياع مصر من قبضة الأمين خسارة كبرى، ولما كان الموقف لا يسمح بإرسال جيش إلى مصر في الوقت الذي كان الأمين في حاجة إلى تعبئة قواه للمعركة الفاصلة ضد أخيه المأمون، لذلك لجأ الأمين إلى الحيلة فأرسل إلى ربيعة بن قيس زعيم قبيلة قيس بالحوف كتاباً بتعيينه والياً على مصر، كما أرسل إلى فريق من وجوه البلاد يستميلهم إليه، فأجابوه، وكان أن سار هؤلاء لمهاجمة عباد

بن محمد الذي كان قد حفر خندقاً حول الفسطاط لحمايتها من السقوط في أيدي المهاجمين. وقد طال القتال بين الفريقين حول هذا الخندق دون أن يستطيع أي فريق الانتصار على الآخر. وبينما الموقف على ذلك الوضع إذا بالأخبار تأتي إلى مصر بمقتل الأمين وقيام المأمون في الخلافة، فانسحب أهل الحوف، وعين المأمون المطلب بن عبد الله الخزاعي والياً على مصر بدلاً من عباد بن محمد.

على أن الأمور لم تستقر في مصر بتلك السرعة، إذ طمع أحد رجال عباد بن محمد- وهو عبد العزيز الجروى- في ولاية مصر. وفي الوقت نفسه عزل المأمون المطلب بن عبد الله عن ولاية مصر بعد بضعة أشهر من تعيينه، ولكن الجند تمسكوا به وولوه عليهم سنة (١٩٩هـ=٨١٤م) رغم أنف الخليفة، وهكذا أصبحت مصر ميداناً للنزاع بين الطامعين دون أن يكون الخليفة العباسي فيها كلمة مسموعة. وبينما مصر غارقة في بحر من الفوضى بسبب الحروب بين المتنازعين على السلطة فيها إذا بحشد ضخم من أهل الأندلس – يبلغ خمسة عشر ألف شخص عدا النساء والأطفال- يصلون عن طريق البحر إلى الإسكندرية بعد طردهم الحكم بن هشام الأموى سنة (١٩٨هـ=٨١٣م) عقاباً لهم على ثورتهم ضده " لجوره وفسقه"، وقد رأى بعض المتنازعين على السلطة في مصر أن يستعين ضد خصومه بأولئك الأندلسيين، الأمر الذي زاد الموقف في مصر تعقيداً. وقد لاقى الأندلسيون كثيراً من المتاعب لكنهم تمكنوا في نهاية الأمر من السيطرة على الإسكندرية والاستقلال بها سنة (٢٠٠هـ=٨١٥م).

وهكذا لم تزل الفتن بالأندلسيين في الإسكندرية متصلة إلى أن قدم عبد الله بن طاهر إلى مصر من قبل أمير المؤمنين المأمون، ذلك أن الخليفة المأمون أوفد عبد الله بن طاهر بن الحسين من الشام سنة (٢١٠هـ= ٨٢٥م) ليعيد الاستقرار في مصر ويعالج أمورها بعد فترة من الفوضى استمرت أكثر من عشر سنوات. وقد استطاع عبد الله بن طاهر أن يقضى على رءوس الفوضى من الطموحين. وفي سنة (٢١٢هـ=٨٢٧م) اتجه عبد الله بن طاهر إلى الإسكندرية حيث قاتل الأندلسيين وأجلاهم عنها، فاتجهوا إلى جزيرة كريت واستقروا فيها وظلت بقايا من أولادهم بها حتى أيام المؤرخ أبو المحاسن في القرن التاسع الهجري.

وعلى الرغم من جهود عبد الله بن طاهر لإصلاح أحوال مصر، إلا أن ولايته لم تطل، فعاد إلى العراق؛ وعادت الثورات إلى مصر، فثار القبط، وخرج فريق من عرب مصر الذين كانوا يناصرون الأمين، ولم يسع المأمون إزاء ذلك الوضع أن يرسل قائده الإفشين من برقه " لقتال القوم". وقد استمرت الحروب حتى قدم الخليفة المأمون بنفسه إلى مصر سنة (٢١٧هـ= ٨٣٢م)" فجهز العساكر لقتال أهل الفساد" ولم تطل إقامة المأمون في مصر، إذ قضى فيها تسعة وأربعين يوما عمد خلالها إلى إعادة الأمن والاستقرار في مصر وأمر بعدة إصلاحات في البلاد ثم عاد إلى بغداد.

المحنة بخلق القرآن :

احتلت مسألة خلق القرآن مكانة كبيرة في الحركة الفكرية في ضحى الإسلام بعد أن أثار المعتزلة هذه المسألة ودعوا لها، ثم تبنتها الدولة وعملت على فرضها وتنفيذها بالقوة، الأمر الذي جعل لها جانبا سياسيا فضلا عن جانبها الفكري والثقافي.

وخلاصة هذه المسألة أن المعتزلة نادوا بأن القرآن صفة من صفات الله عز وجل، لأن الله– ذاته وصفاته– وحدة لا تقبل التجزئة، في حين أن القرآن يضم حقائق وخصائص متباينة، فيها الأمر والنهي. وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يكون القرآن كلاما قديما أزليا، وإنما هو كلام خلقه الله عز وجل ووصل إلى النبي (ﷺ) عن طريق الوحي.

على أن المعتزلة لم يمضوا في قولهم بخلق القرآن دون أن يصادفوا معارضة قوية؛ وخاصة من جانب " السلف" الذين رأوا أن للعقل البشري حدود لا يصح أن يتجاوزها وأنه أضعف من أن يبحث في كنه الله وصفاته،؛ وعلى ذلك لا يصح النقاش والجدل حول هذه الأمور بل يجب الإيمان بها وفق ما جاء به الأنبياء. كذلك عارض المعتزلة في القول بخلق القرآن فريق من الحنابلة، وهؤلاء نادوا بأن كلمات الله أزلية غير مخلوقة.

وهكذا شهد العالم الإسلامي انقساماً فكرياً بدأت بذوره في أواخر الدولة الأموية في الشام، ثم امتد مع قيام الدولة العباسية إلى العراق، حيث أخـــذت المشـــكلة تنمـــو وتتفاقم حتى كانت أيام الخليفة المأمون.

والمعروف عن المأمون أنه كان واسع الثقافـــة يميـــل إلـــى المعتزلـــة وآرائـــهم التحررية، فأخذ برأيهم في خلق القرآن، وعمد إلى البطش بالخارجين علـــى هـــذا الرأي.

ويهمنا في هذا الصدد أن الخليفة المأمون أرسل إلى عماله في الأمصار يـــأمرهم بحمل الناس على القول بخلق القرآن، واستأنف هذه السياسة بعد المـــأمون أخـــوه الخليفة المعتصم ثم الخليفة الواثق، فأرسل المعتصم إلى كيدر نصر بـــن عبـــد الله عامل مصر سنة (٢١٨هـ=٨٣٣م) يأمره أن يمتحن القضاة والمحدثين والفقـــهاء، ويعزل من لا يقر منهم القول بخلق القرآن. ويبدو أن علماء مصر لـــم يظـــهروا معارضة للقول بخلق القرآن الأمر الذي جعل أهل مصر لا يتعرضوا لما تعـــرض له أهل العراق من تعذيب وقسوة بسبب هذه المشكلة، هذا وإن كنا نسمع عن بعض علماء مصر – مثل أبي يعقوب يوسف بن يحيى– أنهم امتنعوا عن القـــول بخلـــق القرآن مما عرضهم للتعذيب والأذى.

الفصل الثالث

مصر في عصر الدولة الطولونية

مصر في عصر الطولونيين

ـــــــــــ

تطور أحوال الخلافة الإسلامية :

بدأت الخلافة العربية بداية قوية ناجحة، وظهرت هذه القوة أشد ما تكون وضوحاً على عهد عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين؛ ولكن للتاريخ مبادىء ثابتة لا يحيد عنها غالباً، منها أن أية دولة مهما يبلغ سلطانها وجبروتها ويظهر بأس حكامها وقوة جيوشها، لابد وأن يكمن خلف ذلك السلطان والجبروت، ويتوارى وراء بطش الحكام وسطوة الجيوش، بعض عوامل الضعف الداخلية والخارجية.
وقد تبدو هذه العوامل المستترة في أول أمرها أضعف من أن تشكل خطراً حقيقياً على الدولة، ولكن الذي يحدث دائماً في التاريخ هو أن بذور الضعف المتوارية بين ثنايا عوامل القوة، تأخذ في النمو تدريجياً، وتتشعب وتتكاثر في بطء أو سرعة لتنخر في عظام الدولة. وفي الوقت الذي تتضح عوامل الضعف في الداخل تتحرك الأخطار في الخارج، ويرى الأعداء المتربصون على الحدود أن فرصتهم قد حانت للانتقام، فتقع الدولة بين عوامل الضعف في الداخل وعوامل الطمع أو الثأر في الخارج، وعندئذ تنهار أعمدة البناء الكبير ويهوى الصرح الشامخ ليفتت إلى وحدات صغيرة، قد تربطها خيوط واهية بالمركز الأم، وقد تتقطع هذه الخيوط لتستقل الأطراف عن ذلك المركز تماماً، أو تقع فريسة في قبضة قوة أخرى جديدة تظهر على مسرح التاريخ.

هذه هي التجربة التي مرت بها دولة الإسكندر ودولة الفرس والإمبراطورية الرومانية في العصور القديمة، والتي تعرضت لها الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى في العصور الحديثة.

ولم تكن الدولة الإسلامية في العصور الوسطى- وهي أعظم وحدة سياسية وحضارية شهدها العالم في تلك العصور- بمنجاة من سنة التاريخ وقانونه العام. فالدولة الإسلامية قامت أشد ما تكون قوة وانطلاقاً، ولكن الباحث المدقق يستطيع منذ فجر هذه الدولة أن يضع يده على نقاط الضعف: عصبية قبيلة ولدت صراعاً

خفياً أو تنافساً مكشوفاً بين اليمنية والمضرية؛ حقد على قريش لاستئثارها بالسيادة وخروجها بنصيب الأسد من مال الفيء والغنائم دون سائر قبائل العرب التي لم تتقاعس عن القيام بواجبها في الجهاد والفتح؛ خلاف بين بني هاشم وبني أمية حول الفوز بالخلافة؛ انقسام بين الشيعة والسنة؛ تباعد بين العرب والموالي.

هذه كانت بذور الضعف في قلب الخلافة نفسها، فإذا انتقلنا إلى الأطراف وجدنا حالات من السخط الذي استتر أحياناً خلف ستار الديانة الجيدة وقد أخذت تنتشر انتشاراً سريعاً من المحيط إلى الخليج. فأهالي الأمصار التي فتحها العرب معظمهم من أصحاب الحضارات القديمة والأصول العريقة التي تفخر بماضيها وتعتز بكيانها المستقل. وهل هناك شعوب في التاريخ القديم أعظم من أهل مصر والشام والعراق وفارس؟ أجل هل هناك في الحضارات القديمة أعرق من حضارات النيل والفرات والهلال الخصيب ومرتفعات إيران؟ فإذا كان الأمر كذلك، فكيف ترتضى هذه الشعوب الخضوع لقوة سياسية تحكمها من خارج حدودها حكماً مركزياً شاملاً؟ وربما اتخذت تلك القوة الديانة الإسلامية مبرراً لبسط سيطرتها على تلك الشعوب الجمة ذات الأصول المتنوعة. ولكن هل يتعارض الإسلام مع الاستقلال؟ وهل هناك ما يمنع أهل مصر – على سبيل المثال – من أن يعيشوا مستقلين داخل حدود بلادهم، في ظل حكومة محلية ترعى شئونهم، وذلك مع تمسكهم بأصول الديانة الإسلامية الجديدة التي أقبلوا على اعتناقها طائعين مختارين عن عقيدة وإرادة حرة ؟

فإذا تركنا الأمصار واتجهنا إلى حدود الدولة الإسلامية الكبرى، وجدنا مجموعة من العداء يتربصون الدوائر بالدولة الإسلامية، وانتمى معظم هؤلاء الأعداء إلى الكتلة المسيحية؛ فما كاد يبدو ضعف الدولة الإسلامية واختلال أمورها، حتى أدرك أولئك الأعداء أن ساعة الانتقام قد حانت، فخرج الروم من آسيا الصغرى في القرن العاشر للميلاد يغزون إقليم الجزيرة، ويتوغلون في بلاد الشام حتى جنوبها، وشرع ملوك الفرنجة والممالك المسيحية التي قامت في شمال أسبانيا يهاجمون المسلمين في الأندلس؛ بل لقد خرجت في القرن التالي الجيوش الجرارة من الغرب الأوربي قاصدة جوف الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى؛ هذا في

الوقت الذي لم تنقطع إغارات أهل النوبة المسيحيين على حدود مصر الجنوبيـــــة. ومهما يقال في تفسير هذه الأحداث والهجمات المتعددة المصادر، فإنه ينبغـــــي أن أمام أعيننا حقيقة كبرى،هي أن الكنيسة المسيحية ظلت منذ القرن السابع للميـــلاد تشعر بمرارة قاسية لنجاح حركة الفتوح الإسلامية في تحويل بلاد ارتبطـــت بـــها أصول المسيحية وتاريخها الأول- مثل الشام ومصر والجزيرة وشمال أفريقيـــة- إلى الإسلام والعروبة. ولكن ماذا كانت تستطيع أن تفعل الكنيسة في القرن الســابع للميلاد وقد دب الضعف في العالم المسيحي وساد التفكك أطرافه؟ لم يكـــن أمـــام الكنيسة سوى الانتظار حتى تـــتاح لها الفرصة وتدور الدوائر على دولة الإســـلام وعندئذ تخرج الجيوش من مختلف أنحاء العالم المسيحي- من الشـــمال والغـــرب والجنوب- في محاولة للثأر والانتقام.

وفي وسط هذه العوامل العديدة التي تحاول الاستعانة بها لتفسير انحـــلال الدولـــة الإسلامية، يتبادر إلى أذهاننا سؤال قد تكون له وجاهته. لقد رأينا أن كثـــيراً مـــن القبائل العربية نزحت من شبه الجزيرة العربية غداة حركة الفتوح، واستقرت فـــي الأمصار الجديدة لتصبغها تدريجياً بصبغة إســـلامية جديـــدة، فمـــا دور هـــؤلاء المستوطنين العرب في قمع الحركات الانفصالية التي قامت في الولايات من جهـــة ثم في دفع الأخطار الخارجية التي تعرضت لها مـــن جهـــة أخـــرى؟ الواقـــع أن العنصر العربي الذي دخل الأمصار وانتشر فيها واستقر بين ربوعها لم يستطع أن يحتفظ بعزلته طويلاً، إذ لم يلبث أن اختلط هؤلاء الوافدين تدريجيا بـــأهل البـــلاد الأصليين ، وخاصة بعد انتشار الإسلام بين هؤلاء الأخيرين ، ونتـــج عـــن هـــذا الاختلاط مولد شعب واحد في كل مصر من الأمصار ، وربما رأي هذا الشـــعب مصلحته في الاستقلال عن الخلافة وتنظيم أموره علي مستوي إقليمي محلي . هذا بالإضافة إلي ظاهرة هامه يلمسها المشتغلون بالتاريخ هي أن الشعوب المناضلـــة التي ألفت الحرب والجهاد ، واعتادت في وطنها الأول حياة الخشونة والبـــداوة ، هذه الشعوب كثيراً ما تتعرض للذبول السريع عندما تتحول إلى حيـــاة الاســـتقرار ودعة العيش. لأنها في ظل تلك الحياة الهادئة اللينة السهلة تفقد كثيراً من صلابتـــها

وقوة احتمالها وفضائل أخلاقها التي كانت في حقيقة أمرها السر فيما حققته من انتصارات أيام حركتها وبساطتها الأولى.

ظهور أحمد بن طولون في مصر :

في ضوء العوامل السابقة نستطيع أن نفسر ما أصاب الخلافة الإسلامية من ضعف ووهن ثم انقسام وتفتت، فالخلاف بين بني هاشم وبني أمية انتهى بانتصار بني أمية وقيام الخلافة الأموية في دمشق، ولم يرض العلويون بتلك النتيجة وإنما ظلوا يشعلون الثورات ضد بني أمية، وعندئذ استغل العباسيون الفرصة فحولوا الدعوة إلى الرضا من آل محمد، بمعنى أنهم جعلوا الإمامة لآل البيت النبوي، وهي صيغة عامة تشمل العلويين والعباسيين جميعاً. واختار العباسيون بلاد خراسان مركزاً لنشر دعوتهم، وعنصر الفرس دعامة يقيمون على أكتافها هذه الدعوة، وبذلك قامت الخلافة العباسية على أكتاف الفرس، الأمر الذي أدى إلى إهمال العنصر العربي وإضعاف عصبيته تدريجياً.

وعندما أحس العباسيون بخطر الخراسانية عليهم نتيجة لازدياد نفوذهم، غدروا بهم بعد أن قتلوا زعيمهم أبا مسلم الخراساني، كما نكبوا البرامكة هم ووزرائهم من الفرس، ولم يلبث أن اشتد الصراع العنصري بين العرب والفرس في الدولة، وهو الصراع الذي اتخذ شكل فتنة بين الأمين وأخيه المأمون، وهنا بحث الخلفاء العباسيون عن عصبية جديدة تغنيهم عن العرب والفرس جميعاً، فوجدوا ضالتهم في الأتراك الذين سكنوا بلاد ما وراء النهر، والذين اشتهروا بالطاعة وحب النظام والشجاعة. ولم يلبث أن أخذ الأتراك يتسللون إلى قلب الخلافة العباسية، حيث رحب بهم الخلفاء العباسيون- وخاصة بعد عهد المأمون – وقلدوهم المناصب الكبرى في الجيش والإدارة، فصار منهم الوزراء والولاة. وإلى العنصر التركي هذا ينتمي أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية في مصر (٢٥٤-٢٩٢هـ = ٨٦٨-٩٠٥م).

على أن أحمد بن طولون لم يكن أول من تولى ولاية مصر من ألأتراك، فقد قلد الخليفة المعتصم أبو جعفر أشناس التركي مصر (٢١٩-٢٣٠هـ= ٨٣٤-٨٤٤م)،

وقلد الخليفة الواثق إيتاخ التركي مصر (٢٣٠-٢٣٥هـ = ٨٤٤-٨٤٩م) وقلد الخليفة المتوكل الفتح بن خاقان بن أرتق مصر (٢٤٢-٢٤٧هـ = ٨٥٦-٨٦١م) وولى الخليفة المعتز بالله مزاحم بن خاقان بن عرطوج مصر (٢٥٣هـ=٨٦٧م)، فلما توفى عين الخليفة المعتز بدله ابنه أحمد بن مزاحم والياً على مصر (٢٥٤هـ=٨٦٨م) على أن أحمد بن مزاحم لم يلبث أن توفى هو الآخر، فولى بعده أمرة مصر الأمير باكباك التركي.

ولا أدل على انحلال نظام الحكم في الخلافة العباسية في القرن الثالث للهجرة من أن كثيراً من الولاة الذين كان يعنيهم الخليفة العباسي على الولايات والأمصار المختلفة، كانوا يفضلون البقاء في العاصمة قرب الخليفة، وينيبون عنهم بدورهم نواباً يحكمون البلاد باسمهم، ويدعون لهم بعد الخليفة على المنابر وينقشون أسمهم على السكة، وعلى هذا الأساس فإن بعض الولاة الأتراك السابق ذكرهم الذين عينهم الخلفاء العباسيون لحم مصر، لم يروا مطلقاً أرض مصر حتى وفاتهم، وإنما ظلوا متربعين في بيوتهم على مقربة من الخلافة وجاهها، واكتفوا بأن أرسلوا إلى مصر من ناب عنهم في تصريف شئونها. ومن هؤلاء كان باكباك التركي الذي ولى مصر سنة ٢٥٤هـ = ٨٦٨م، ولكنه اختار أن يرسل إليها أحمد بن طولون لينوب عنه في حكمها، وكان باكباك زوج أم أحمد بن طولون.

وقد ترجم المؤرخون لحياة أحمد بن طولون، فقالوا إن أباه طولون مولى نوح ابن أسد بن سامان الساماني عامل بخارى وخراسان، أهداه نوح في جملة مماليكه إلى الخليفة العباسي المأمون، فترقى حتى صار من جملة الأمراء، وولد له ابنه أحمد هذا سنة ٢٢٠هـ=٨٣٥م أو في سنة ٢١٤هـ= ٨٢٩م ببغداد. وقيل إن أحمد هذا لم يكن ابن طولون، وإنما تبناه طولون لما رأى فيه من مخايل النجابة.

ومهما يكن من أمر، فقد وصف المؤرخ أبو المحاسن أحمد بن طولون بأنه" نشأ على مذهب جميل، وحفظ القرآن الكريم وأتقنه، وكان من أطيب الناس صوتاً به، مع كثرة الدرس وطلب العلم ... وكان جميع خصال ابن طولون محمودة، إلا أنه حاد الخلق والمزاج، فإنه لما ولى مصر والشام ظلم كثيراً وعسف وسفك كثيراً من الدماء ... وكان فيه ذكاء وفطنة وحدس ثاقب".

هذا هو الرجل الذي ظهر على مسرح مصر سنة ٢٥٤هـ= ٨٦٨م ليدير شئونها نائباً عن زوج أمه باكباك.

أحمد بن طولون والاستقلال بمصر :

ومع اعترافنا بذكاء أحمد بن طولون وطموحه وعريض آماله، إلا أننا نرفض أن ننساق وراء مبالغات بعض المؤرخين الذين يحرصون على تصويره في صورة الرجل الذي أتى إلى مصر، وفي عقله خطة مرتبة للاستقلال بها وإقامة ملك عريض لبيته فيها. فالتاريخ كما نعلم مليء بالمبالغات وبعض كتبه محشوة بالآراء التي تفتقر إلى أدلة الإثبات. وما أكثر أن يلجأ بعض كتاب التاريخ في العصور السابقة إلى اختلاق القصص ليضفوا على هذا البطل أو ذاك هالة من المجد الموهوم، وكأنهم يعيشون في سريرته ويحيطون بمكنون أسرار، دون أن يحفلوا أو يدخلوا في تقديرهم الظروف التي تحيط بالإنسان والتي كثيراً ما توجهه فجأة وجهة معينة لم يكن قد عمل لها حساباً من قبل. ولماذا نفترض أن يكون أحمد ابن طولون قد أتى إلى مصر وفي رأسه خطة معينة عزم على تنفيذها قبل أن يرى أرض مصر، ولا نقول أنه أتى إلى هذه البلاد شأنه شأن كل وافد على بلد غريب يتحسس طريقه في حذر، حتى إذا ما رأى أحوالها الداخلية، وعظم ثروتها وإمكانياتها، ربط بين هذا كله وبين ضعف الخلافة العباسية وسوء أوضاعها وعندئذ فقط استغل أحمد بن طولون ذكاءه ومواهبه في محاولة للاستئثار بمصر وإقامة حكم مستقل لبيته فيها ؟

ويبدو أن أحمد بن طولون عندما أتى إلى مصر سنة ٢٥٤هـ=٨٦٨م على رأس جيشه الذي أمده به باكباك، لم يجد كل شيء ممهداً أمامه وإنما كان عليه أن يواجه منافسين أقوياء، وأعداء أشداء، ثاروا ضده ونازعوه السلطان. ذلك أن ولاة مصر في ذلك العصر كانوا لا ينيبون عنهم شخصاً واحداً في الإشراف على جميع مرافق البلاد، وإنما اعتادوا أن يقسموا أعمالها الأساسية بين عدة أفراد بحيث لا يتمكن أحدهم من استغلال أوضاع البلاد وبعدها عن مركز الخلافة في تحقيق استقلال لنفسه. وهكذا حضر أحمد بن طولون إلى مصر سنة ٢٥٤هـ= ٨٦٨م

ليجد الإسكندرية بيد اسحق بن دينار، وبرقة – التي كانت من الناحية الإدارية تابعة لمصر – بيد أحمد بن عيسى الصعيدي، في حين كان يلي شئون القضاء بكار ابن قتيبة، وشئون البريد شقير الخادم غلام قبيحة أم الخليفة المعتز، وشئون الخراج أحمد بن المدبر.

وهنا ظهرت مهارة أحمد بن طولون في التغلب على منافسيه من كبار الموظفين. ولم يكن ميدان الصراع بينه وبينهم أرض مصر فحسب، بل من الموظفين السابقين كان له سند في بلاط الخليفة يعتمد عليه في تثبيت مركزه، وفي النيل من خصومه. فابن المدبر عامل الخراج في مصر – وكان من ألد خصومه أحمد بن طولون – اعتمد على أخيه إبراهيم بن المدبر وهو من أصحاب الكلمة المسموعة في بلاط الخليفة. وشقير عامل البريد كان كما ذكرنا مولى قبيحة أم المعتز. ولهذا لجأ أحمد بن طولون إلى محاربة خصومه في بلاط الخليفة العباسي عن طريق جواسيسه تارة، وعن طريق عملائه في بلاط الخليفة الذين غمرهم بهداياه تارة أخرى.

وشاءت الأقدار أن تتدخل لمساندة أحمد بن طولون، فالخلافة العباسية كانت عندئذ غارقة في بحر من الفوضى بسبب الثورات الداخلية من ناحية والمنازعات حول السلطان من ناحية أخرى. ثم إنه حدث عندما عزل باكباك عن ولاية مصر، ثم قتل بعد قليل، أن حل محله في ولاية مصر ياركوج حمو أحمد بن طولون. ولو كان رجل آخر فاز بولاية مصر لعزل أحمد بن طولون في تلك المرحلة الأولى، ولكن شاءت الظروف أن يعزل باكباك – وهو زوج أم أحمد بن طولون – ليحل محله في ولاية مصر ياركوج وهو أبو زوجته، وبذلك احتفظ أحمد بن طولون بمركزه ومنصبه.

وهكذا تمكن أحمد بن طولون من التغلب على المتاعب الداخلية، فقضى على ثورة بغا الصغير – بين برقة والإسكندرية سنة ٢٥٥هـ = ٨٦٩م – وقضى على ثورة ابن الصوفي العلوي في الصعيد سنة ٢٥٦هـ = ٨٧٠م؛ واستغل ثورة عيسى ابن الشيخ ضد الخلافة في بلاد الشام لإنشاء جيش مستقل خرج على رأسه لإخماد تلك الثورة. وساعد أحمد بن طولون في تحقيق كل هذه الانتصارات أن حماه ياركوج –

صاحب ولاية مصر الفعلي – أطلق يده في مصر وجعل منه الحاكم الفعلي عليها، وقال له :" تسلم من نفسك لنفسك".

وفي خلال ذلك واصل أحمد بن طولون مساعيه في بلاط الخليفة العباسي لتحقيق سيادته الفعلية على مصر، فورد عليه كتاب الخليفة " بأنه يتسلم الأعمال الخارجة عن أرض مصر، فتسلم الإسكندرية، ولما علم أحمد بن طولون أن عامل البريد – وهو شقير غلام أم المعتز – يرسل سرا إلى دار الخلافة يحذر من أحمد طولون ومطامعه، أخذ يسعى لعزل شقير من منصبه حتى حقق غرضه بعد مصرع المعتز وزوال سلطان أمه، وأصبح البريد خاضعا لابن طولون. أما ابن المدبر عامل الخراج فكان الصراع بينه وبين أحمد بن طولون مريرا طويلا، حتى إذا ما أرسل الخليفة المعتمد إلى أحمد بن طولون يستحثه في جمع الأموال، كتب ابن طولون إلى الخليفة يقول :" لست أطيق ذلك والخراج في يد غيري!!" فقلده الخليفة الخراج كما ولاه الثغور الشامية؛ وبذلك " صار الأمر كله بيد أحمد بن طولون، وقويت شوكته بذلك وعظم أمره بديار مصر". وكان ذلك سنة ٢٦٣هـ= ٨٧٦م.

ولكن هذا لم يكن كل شيء في نظر أحمد بن طولون، لقد أخذ يطمع في تحقيق الاستقلال لنفسه بحيث يضمن عدم عزله وبقاء الحكم في بيته، مع اعتراف الخلافة العباسية بوضعه، حيث أن المسلمين في تلك العصور كانوا لا يحترمون حاكما لا يحظى بعطف الخلافة وتأييدها. ولم تكن الصعوبة التي تواجه أحمد بن طولون من جانب الخليفة المعتمد الذي ربطته بابن طولون رابطة صداقة قوية، وإنما نشأت هذه الصعوبة من جانب أبي أحمد الموفق، أخي الخليفة الذي استأثر بالنفوذ في دار الخلافة ولم يبق للخليفة من الخلافة إلا اسمها، وقد حدث أثناء اشتداد ثورة الزنج ضد الخلافة في العراق أن طلب الموفق من أحمد بن طولون معونة مالية تستعين بها الخلافة على إخماد تلك الثورة، فأمده أحمد بن طولون بمليون ومائتي ألف دينار. ولكن الموفق لم يرض بهذا المبلغ وأرسل إلى أحمد بن طولون رسالة يوبخه فيها وينذره، فرد عليه ابن طولون برسالة قاسية.

وكان أن أضمر الموفق لأحمد بن طولون شرا، فحاول أن يعزله عن ولاية مصر، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل سنة ٢٦٤هـ= ٨٧٧م، لأن أحمد بن طولون كان

قد قوى مركزه في البلاد فلم يجرؤ أحد على مهاجمة لإخراجه من مصر بالقوة، وعندما اكتشف الموفق عجزه عن زحزحة أحمد بن طولون من مصر، وواصل سعيه حتى استصدر من الخليفة أمراً بعزله عن ولاية ثغور الشام، ولكن أحوال تلك الثغور أختلت واضطرب الأمن فيها وثار أهل طرسوس، الأمر الذي اضطر الخليفة إلى إعادة أحمد بن طولون إلى ولاية الثغور مرة أخرى سنة ٢٦٤هـ = ٨٧٧م، بل لم يلبث الخليفة أن قلده إمرة بلاد الشام كلها لا ثغورها فحسب.

ولم يكن منتظراً أن يرضى الموفق بتلك الهزيمة، فأستغل فرصة انتصار قواته على صاحب الزنج سنة ٢٦٧هـ= ٨٨٠م من ناحية، وظهور بوادر الخلاف بين أحمد بن طولون وغلامه لؤلؤ الذي كان قد ولاه على حلب وقنسرين وديار مضر وحمص من ناحية أخرى، وعاود هجماته ضد ابن طولون. ولكن أحمد بن طولون أثبت مهارة سياسية تدل على بعد نظر، فكما أن غلامه لؤلؤ انحاز إلى الموفق، لماذا لا يسعى هو لكسب الخليفة المعتمد، وهو صاحب الحق الشرعي في السلطان وينحاز إليه ضد أخيه الموفق مغتصب السلطة؟ وفعلاً أرسل ابن طولون إلى الخليفة المعتمد يستهويه للقدوم إلى مصر ليستعيد كرامته وحريته بعد أن ضيق عليه أخوه الموفق، وفعلاً خرج المعتمد متظاهراً برغبته في الصيد حتى وصل إلى الرقة، ولكن أمره اكتشف وأعيد إلى العاصمة تحت حراسة رجال الموفق.

وكان ابن طولون قد وطد مركزه تماماً في بلاد الشام، فأخذ يتقدم في قوة، وعندما فشلت جهوده في استدراج الخليفة لتوفير الحماية له، عقد مؤتمراً في دمشق لتقرير عزل الموفق من ولاية العهد بحجة أنه غير أهل لإمامة المسلمين. بل لقد أمر أحمد بن طولون يلعن الموفق على المنابر وإسقاط اسمه من الدعوة.

وهكذا مضى الصراع بين أحمد بن طولون والموفق، وفي كل حلقة من حلقاته تزداد قدم ابن طولون رسوخاً وثباتاً، مما يدعم استقلاله بمصر. وأخيراً عجز الموفق عن النيل من ابن طولون، في الوقت الذي تعب ابن طولون من ذلك النزاع الذي طال أمده، فتم الصلح بين الطرفين بعد أن أطلق الموفق سراح أخيه الخليفة المعتمد ورد إليه اعتباره. وكان أن عدل ابن طولون عن لعن الموفق، ورد الدعوة له. وبذلك تحققت آمال أحمد بن طولون في الاستقلال بمصر.

سياسة أحمد بن طولون الداخلية :

اتبع أحمد بن طولون سياسة داخلية أكسبته حب المصريين وتأييدهم. ومن الواضح أن أحمد بن طولون كان يسعى لتأمين مركزه في مصر وتثبيت استقلاله بها، فكان لابد له من الاعتماد على سلامة الجبهة الداخلية للصمود في وجـــه أعدائـــه فـــي الخارج، وبصفة خاصة الموفق، لذلك حرص أحمد بن طولون على إقرار الأمـــن والنظام داخل البلاد، وقضى في حزم على الثورات والفتن الداخليـــة، مثـــل بغـــا الصغير وثورة ابن الصوفي العلوى وثورة ----، وبذلك اطمأن النـــاس علـــى أرواحهم وأموالهم، وساد البلاد جو من الهدوء والأمن والاستقرار.

ومن المعروف في التاريخ أن الرخاء الاقتصادي هو المفتاح الـــذي يســـتطيع أي حاكم أن ينفذ به إلى قلوب الشعب، لذلك حرص أحمد بن طولون على اســـترضاء أهل مصر عن طريق إلغاء الضرائب الظالمة التي فرضها والي الخراج الســـابق- ابن المدبر- عليهم، وأقصى ابن طولون عن ديوان الخراج كل من تشـــكك فـــي ذمته، بحيث صار ديوان الخراج لا يضم إلا مجموعة مـــن الموظفيـــن الأكفـــاء المشهود لهم بالأمانة والعدالة. ولكن يضفى ابن طولون جـــواً مـــن الثقـــة علـــى المعاملات الاقتصادية، سك ديناراً جديداً عرف بالدينار الطولوني امتاز بدقة عياره وثقل وزنه وخلوه من الغش والفساد.

وصحب هذه السياسة حرص شديد من ابن طولون على رعاية شـــئون الزراعـــة والصناعة والتجارة، فأحسن إلى الفلاحين وخفف عنهم الأعباء المالية، وقدم لـــهم من الإصلاحات الزراعية، ما جعل إنتاج القمح يتضاعف في البلاد حتـــى بيعـــت العشرة أرادب بدينار واحد، وشجع الصناعة عن طريق تخفيف الأعباء المالية عن الصناع، كما أمن الطرق وخفف الضرائب مما أدى إلى تشجيع التجارة الداخليـــة والخارجية. وقد رفض ابن طولون أن يحتكر بعض أصناف المتاجر، بل رفـــض أن يشغل بعض أمواله في التجارة لما في ذلك من مضاربه للتجار في أرزاقـــهم. وروى الذهبي وأبو المحاسن أن بعض التجار حسن لأحمد بن طولـــون التجـــارة، فدفع له أحمد بن طولون خمسين ألف دينار يتجر له بها. ولكن ضمير ابن طولـون لم يلبث أن أنبه فأرسل في الحال إلى التاجر وأخذ معه المال وتصدق به.

هذا كله بالإضافة إلى ما أجمعت عليه المصادر من أن أحمد بن طولون كان يتصدق كل شهر بألف دينار، فضلاً عن المنشآت الجليلة النافعة قام بها، ويقول المقريزي عن صدقات أحمد بن طولون " وكانت صدقاته على أهل المسكنة والستر من الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة.... سوى مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها، ويذبح فيها البقر والكباش، ويغرف للناس في القدور الفخار والقصاع، على كل قدر أو قصعة أربعة أرغفة... وكانت تعمل في داره وينادي : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر، وتفتح الأبواب ويدخل الناس، وابن طولون ينظر ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته".

لذلك لا عجب إذا أحب الناس في مصر ابن طولون، وعندما اشتد عليه مرض الموت " خرج المسلمون بالمصاحف واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل، والمعلمون بالصبيان إلى الصحراء ودعوا له" وكان ألم الجميع عظيماً عندما توفى أحمد بن طولون سنة ٢٧٠هـ = ٨٢٣م بعد أن حكم مصر سبع عشرة سنة.

منشآت أحمد بن طولون :

ولا أدل على ثروة مصر في أيام أحمد بن طولون، وحرصه على الظهور في صورة الحاكم المستقل، من كثرة المنشآت التي قام بها، وما أنفق من أموال خلدت اسمه في التاريخ.

ذلك أن رغبة أحمد بن طولون في الاستقلال جعلته يفكر في ترك مدينة العسكر - مقر الولاة العباسيين السابقين - ويختط لنفسه حاضرة جديدة في الجزء الواقع إلى الشرق من مدينة العسكر وإلى الشمال الشرقي من مدينة الفسطاط، وأطلق على هذه العاصمة الجديدة اسم القطائع، لأنها قسمت إلى أحياء وقطائع، كل قطيعة منها لطائفة أو جنس من طوائف الجيش الطولوني، فضلاً عن الغلمان والموالي وأصحاب الحرف، بحيث يكون " لكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم". وهكذا كانت هناك قطيعة السودان وقطيعة الروم وقطيعة الفراشين ...

وحرص أحمد بن طولون على أن يجعل من القطائع مدينة مكتملة المرافق، فعمرها " عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة، وعمرت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت والشوارع".
وأقام أحمد بن طولون في عاصمته الجديدة قصراً كبيراً له أبواب عديدة، لكل باب منها اسم يدل على الغرض منه، فباب الميدان الكبير كان منه الدخول والخروج لجيشه وخدمه، وباب الخاصة لا يدخل منه إلا خاصته، وباب الجبل يلي جبل المقطم... وبهذا القصر ميدان كبير خاص بلعب الكرة، وسمي القصر كله بالميدان، ويقال أنه أنفق عليه خمسين ألف دينار، هذا عدا المنشآت الأخرى التي أقامها أحمد بن طولون وصرف عليها الأموال الطائلة، مثل البيمارستان الذي أنفق عليه ستين ألف دينار، وحصن الجزيرة الذي أنفق عليه ثمانين ألف دينار، وغير ذلك من المنشآت التي زال معظمها واندثر، ولم تبق إلا أوصافها في كتب التاريخ.
على أنه إذا كانت معظم منشآت أحمد بن طولون قد اندثرت ومحيت آثاره، فإن ثمة أثر خالد له مازال باقياً يحمل اسمه، وهو الجامع الشهير على جبل يشكر خارج القاهرة. وتجمع المراجع على أن أحمد بن طولون أنفق على هذا الجامع مبلغاً كبيراً يصل إلى مائة وعشرين ألف دينار. وثمة قصة متواترة في المراجع، خلاصتها أن أحمد بن طولون عثر على كنز في صحراء الصعيد في مكان يعرف باسم تنور فرعون، وأنه أرسل بخبر هذا الكنز إلى الخليفة المعتمد، وأنه بنى منه أعمال الخبر، ونحن لا نستبعد أن يكون أحمد بن طولون قد عثر على مقبرة سليمة غنيمة من مقابر الفراعنة استمد منها تلك الثروة الطائلة التي قدرها المقريزي بألف ألف دينار.

ومهما يكن من أمر، فإن هناك قصة تروى أن جبل يشكر مشهور بإجابة الدعاء، لأن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات؛ فاختار أحمد بن طولون هذا الوضع لبناء جامعه العظيم بمبانيه الجميلة الواسعة ومنارته الفريدة على نفس طراز جامع سامراء ومنارته، وألحق به ميضأة وخزانة أدوية وخصص له طبيب يجلس به يوم الجمعة على استعداد لإسعاف من يصيبه مرض طارىء من

المصلين، ولم يضن ابن طولون على جامعه الكبير " بسلاسل النحاس المفرغة والقناديل المحكمة، وفرشه بالحصر العبدانية والسامانية".

سياسة أحمد بن طولون الخارجية :

رأينا ما كان من موقف أحمد بن طولون من الخلافة العباسية في العراق. والواقع أن رغبة ابن طولون في الاستقلال بمصر من ناحية والموقف العدائي الذي وقفه منه الموفق في العراق من ناحية أخرى، أمليا عليه إحكام سيطرته على بلاد الشام حتى يحمي نفسه في مصر، وحتى يكون على مقربة من المسرح الرئيسي في قلب العالم الإسلامي وهي قاعدة الخلافة في العراق. وما زال أحمد بن طولون يسعى لتحقيق هدفه حتى قلده الخليفة بلاد الشام سنة ٢٦٤هـ= ٨٧٧م، فزحف على بلاد الشام على رأس جيوشه، وأخذ ينتقل من الرملة إلى دمشق إلى حمص، يثبت سلطانه ويقيم نوابه، حتى وصل إلى أنطاكية.

وقد رفض سيما الطويل صاحب أنطاكية أن يسلم المدينة لابن طولون، فحاصرها الأخير واقتحمها عنوة وأخضعها لسلطانه. وبعد ذلك تقدم حتى وصل إلى طرسوس، وهو الثغر الإسلامي الشهير على أطراف بلاد الروم. وكان من الممكن أن يواصل من ذلك المركز سياسة الجهاد ضد الروم لولا عدم اطمئنانه إلى جانب الموفق. لذلك اكتفى أحمد بن طولون بأن أرسل قواته للسيطرة على حران والرقة؛ وعاد هو إلى مصر سنة ٢٦٥هـ= ٨٦٨م، بعد أن بسط نفوذه على بلاد الشام حتى حدود العراق والروم.

وفي سنة ٢٦٩هـ= ٨٨٢م اتجه أحمد بن طولون إلى الشام مرة أخرى ليواجه مؤامرة غلامه لؤلؤ الذي انضم إلى جيش الموفق، فضلاً عن استقبال الخليفة العباسي المعتمد بعد أن أرسل له الأموال ورسم له خطة الفرار. هذا فضلاً عما قم به ابن طولون في تلك المرة من محاولة للقضاء على الفتنة التي أشعلها يازمان في طرسوس. ولكنه لم يمكث في منطقة الثغور الثغور طويلاً، وعاد بسبب مرضه، وهو المرض الذي أدى إلى وفاته في العام التالي.

وفاته :

توفى أحمد بن طولون سنة ٢٧٠هـ= ٨٨٣م، وترك من بعده ثلاثة وثلاثين ولـداً منهم سبعة عشر ذكراً. وكان المفروض أن يخلفه في إمرة مصـر ابنـه الأكـبر العباس، ولكن والده أحمد بن طولون غضب عليه لأنه عصى على والده، ودخـل الغرب، حتى تمكن أحمد بن طولون من القبض عليه وحمل إليه فحبسه. ويقـال إن أحمد بن طولون احتفظ بابنه العباس حبيساً، ولم يأمن له بعد ذلك، حتى أنه عندمـا خرج إلى الشام في العام السابق لوفاته، أخذ العباس معه مقيداً، وعاد بـه كذلـك، خوفاً من أن يتركه في مصر فيتآمر مرة أخرى ضده.

على أن أحمد بن طولون لم يشأ أن يحرم ابنه الأكبر من ملكه كلية، فأوصى لـه ببلاد الشام ومنطقة للثغور، بشرط أن يبايع أخاه الثاني خمارويه الذي أوصى لـه أبوه بأمرة مصر من بعده.

خمارويه وتدعيم الاستقلال (٢٧٠-٢٨٢هـ= ٨٨٣-٨٩٥م) :

أدرك خمارويه أن نجاحه في الميدانين الداخلي والخارجي يتوقف قبل كل شـيء على تماسك بنى طولون، والحيلولة دون حدوث أي انشقاق داخل الأمرة بعد وفـاة عميدها أحمد بن طولون، فضلاً عن الاعتماد على عصبية قويـة وجيـش كبـير يحمي المكاسب التي حققها أحمد بن طولون من ناحية، ويرد أي عدوان على دولة الطولونيين أو محاولة للانتقاض من استقلالها من ناحية أخرى.

وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف لم يتردد خمارويه في التصرف بحزم؛ الأمر الـذي جعله يلجأ إلى قتل أخيه الأكبر العباس عندما امتنع عن تنفيـذ أبيـهما ومبايعـة خمارويه بالإمارة. ولا شك في أن هذه الخطوات أدت إلى وحدة الدولة الطولونية، لأنه بصرف النظر عما كان يحتمل حدوثه بين الأخوين من شقاق، فإن بقاء الشـام في قبضة العباس وبقاء مصر في قبضة خمارويه، أمر يحمل بين ثنايـاه بـذور الفرقة بين شطري الدولة الطولونية كما أسسها عميد البيت الطولوني أحمـد بـن طولون.

على أن خمارويه كان يدرك تماماً أن الأمر لم يتم لأبيه إلا في حماية القوة المسلحة، وأنه لولا اعتماد أحمد بن طولون على جيش قوى لما استطاع الصمود في وجه المنافسين والخصوم والأعداء جميعاً، وخاصة ابن الموفق في العراق الذي إذا كان قد اضطر اضطراراً إلى مصالحة ابن طولون فإنه فعل ذلك رضوخاً أمام الأمر الواقع عندما أعجزته قوة ابن طولون عن القضاء عليه. لذلك كان على خمارويه أن يضاعف العناية بالجيش إذا أراد أن يحمي استقلاله ويدعم هذا الاستقلال، وهو ما قام به فعلاً.

سياسة خمارويه الخارجية :

لم يكد الموفق – أخو الخليفة المعتمد – يعلم بوفاة أحمد بن طولون حتى رأى فرصته قد حانت لاسترداد مصر والشام جميعاً من قبضة الطولونيين. وقد أحس خمارويه بنيات الموفق، فبادر بإرسال جيشين إلى الشام أحدهما بقيادة كاتب أبيه أحمد بن محمد الواسطي، والآخر بقيادة سعد الأيسر، وعزز هذين الجيشين بقوة بحرية ضخمة من المراكب" لتقيم بالسواحل الشامية".

ولم يكن خمارويه مسيئاً في ظنه بالموفق، الذي خرج بدوره من العراق واستعان بابن كنداج والى مصر، ومحمد بن أبي الساج والى أرمينية والجبال، وزحف الجميع على الشام. وفي الوقت نفسه لجأ الموفق إلى أساليب الخديعة والسياسة، فاستمال الواسطي قائد جيش خمارويه إلى جانبه. ويقال إن الواسطى كان يخاف غدر خمارويه به، لأن الواسطى هو الذي حرض خمارويه على قتل أخيه العباس، لذلك بادر الواسطي بالاتصال بالموفق؛ يستحثه في غزو الشام، مقللا له من شأن خمارويه الذي كان في العشرين من عمره.

وهكذا كشف الموفق عن نياته، فاستولت قواته على الرقة وقنسرين والعواصم، ومضت في بلاد الشام حتى استولت على دمشق، ثم تقدمت جنوب الرملة تريد غزو مصر نفسها. وهنا أظهر خمارويه رباطة جأش كبيرة، فخرج بنفسه إلى بلاد الشام لمواجهة قوى العدوان. وعلى الرغم من أن الهزيمة حلت بجيوشه في أول الأمر في موقعة الطواحين بين الرملة ودمشق، إلا أن الجيوش الطولونية

استطاعت أن تعيد تنظم صفوفها بقيادة سعد الأيسر، وبذلك حققت انتصارها علــى القوات العباسية وطردتها من بلاد الشام. وكان خمارويه قد عاد إلى مصــر بعــد هزيمته الأولى، فأستغل سعد الأيسر فرصة انتصــاره وأراد أن يعمــل لحســابه، فدخل دمشق واستولى عليها "واستخف بخمارويه وغيره".

وعندما بلغ خمارويه نبأ ما فعله الأيسر، خرج إلى الشام سنة ٢٧٢هـــ= ٨٨٥م، فحارب سعد الأيسر حتى هزمه وقتله. وبعد أن قضى بضعة أيام في دمشق خــرج لقتال ابن كنداج حليف الموفق، فأنزل به الهزيمــة، وظــل أصحــاب خمارويــه يطاردونه حتى أبواب سامراء، " فعظم أمر خمارويه في هــذه الموقعــة وهابتــه الناس".

وأخيرا أدرك أبو أحمد الموفق – أخو الخليفة – أن خمارويه مع صغر سنه لا يقل عن أبيه قوة وعزيمته، فوافق الموفق على الصلح الذي طلبه خمارويــه " وكتــب لخمارويه بولايته على مصر والشام جميعه والثغور، ثلاثين سنة، وقــدم بالكتــاب بعض خدام الموفق إلى الشام شهر رجب، وعرفه الخادم أن الكتاب كتبه الخليفــة المعتمد وأخوه الموفق وابنه، بأيديهم تعظيما لخمارويه"!!

ولم تنته متاعب خمارويه بهذا الصلح؛ وإنما بلغه مسير محمد بن أبــي الســاج – عميل الموفق– إلى مصر، فخرج إليه خمارويه وقاتله على نـــهر دجلــة " حتــى هزمه أقبح هزيمة"؛ وذلك سنة ٢٧٦هـ= ٨٨٨م.

وكان من أثر ذلك أن دانت لسلطان خمارويه الموصل والجزيــرة، وخضــع لــه يازمان الخادم والي طرسوس بعد أن كان قد أعلن خروجه عن طاعة الطولونيــن سنة ٢٧٠هـ= ٨٨٣م، وسرعان ما أدى استقرار الأمور لخمارويه فــي الأنحــاء الشمالية لدولته إلى استئناف سياسة الجهاد ضد الروم ســنة (٢٧٨-٢٧٩هـــ= ٨٩١-٨٩٢م) الأمر الذي جعل الروم يطلبون الصلح سنة ٢٨٣هـ= ٨٩٦م.

سياسة خمارويه الداخلية :

وعندما استراح خمارويه من ناحية المتاعب الخارجية بوجه عام والموفق بوجه خاص، أخذ " في إصلاح ممالكه" أي أخذ يوجه عنايته نحو شئون البلاد الداخلية، ذلك أن خمارويه عمل على استرضاء أهل البلاد مثلما فعل أبوه أحمد بن طولون من قبل، فتسامح مع النصارى وأحسن إليهم، وتحبب إلى المسلمين من المصريين وأجزل لهم العطاء، الأمر الذي جعله محبوباً من العامة والخاصة سواء.

وقد أجمعت المصادر التاريخية على عظم ثروة مصر في عهد خمارويه، وعلى إسرافه وكثرة منشآته وميله إلى الترف والإمعان في التنعيم. ويعطينا المؤرخ أبو المحاسن صورة واضحة عن ذلك بقوله:" ولما ملك خمارويه الديار المصيرية بعد موت أبيه أحمد بن طولون، أقبل على عمارة قصر أبيه وزاد فيه محاسن كثيرة؛ وأخذ الميدان الذي كان لأبيه المجاور للجامع، فجعله كله بستاناً، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف البنجر، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم وأنواع الورد، وزرع فيه الزعفران، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء، فينحدر إلى فساقي معمولة، ويفيض الماء إلى بحار تسقى سائر البستان".

وغرس في أرض البستان من الريحان المزروع في زي نقوش معمولة وكتابات مكتوبة، يتعاهدها البستاني بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة، لئلا يشكل ذلك على القارئ ....، وبعد أن يروى أبو المحاسن أصناف الطيور الجميلة الصادحة التي عنى خمارويه بتربيتها في ذلك البستان، والاستراحة الخاصة التي أقامها خمارويه لنفسه فيه وسماها دار الذهب لأن حيطانها كلها طليت بالذهب، يشير إلى الفسقية التي عملها خمارويه وملأها بالزنبق، لأنه شكا إلى طبيبه من الأرق فأشار عليه بأن ينام على سرير من الجلد المنفوخ بالهواء، ويوضع السرير على سطح من الزئبق ليهتز الفراش في رفق ونعومة، مما يجلب النوم في عيني خمارويه؛ " وكانت هذه البركة من أعظم الهمم الملوكية العالية، وكان يرى بها في

الليالي المقمرة منظر عجيب، إذا تآلف نور القمر بنور الزئبق... ولقد أقام الناس مدة طويلة بعد خراب هذا القصر يحفرون لأخذ الزئبق من شقوق البركة".

ثم أن خمارويه بنى داراً كبيرة أسماها دار الحرم، نقل إليها أمهات أولاد أبيه مع أولادهن، وجعل معهن المعزولات من أمهات أولاده، وخصص لهن جميعاً المال الجزيل والخدم والأتباع. ويروى المقريزي كيف أن الطعام الفائض كل يوم من دار الحرم كان يوزع على الخدم والطباخين وغيرهم، فيفوز كل واحد منهم بكميات ضخمة من الدجاج ولحوم الضأن والقطائف والهرائس الشيء الكثير، فكانوا يبيعون تلك الكميات الضخمة من الطعام للأهالي بحيث أن الفرد إذا فاجئه ضيق، خرج إلى باب دار الحرم فيجد فوراً ما يشتريه من أفخر الأطعمة بأرخص الأثمان " مما لا يقدر على عمل مثله".

وهكذا عم الرخاء البلاد والعباد جميعاً في عهد خمارويه، فلهج الجميع بشكره وحمده، وساد البلاد جو من الرضى والهدوء.

زواج قطر الندى :

ولا أدل على مدى الرخاء الذي عم مصر على أيام خمارويه ومدى ثروة خمارويه نفسه، من الأوصاف التي تحفل بها المصادر عن جهاز ابنته قطر الندى التي تزوجت من الخليفة المعتضد العباسي. والواقع أنه إذا جاء كان خمارويه قد صادف في بداية عهده متاعب من جانب الموفق وأخيه الخليفة المعتمد العباسي فإن الأول لم يلبث أن توفى سنة ٢٧٨هـ= ٨٩٢م ولحق به المعتمد في العام التالي، وعندئذ ولى الخلافة العباسية المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفق. وقد رأى خمارويه في ذلك التغيير فرصة طيبة لإقرار العلاقات بينه وبين الخلافة العباسية على وضع متين دائم من الصفاء والمودة. لذلك بادر خمارويه بتهنئة الخليفة الجديد المعتضد، وأرسل إليه الهدايا والتحف، وعرض عليه أن تتزوج قطر الندى – ابنة خمارويه – من المكتفي بالله ابن الخليفة، فلما سمع الخليفة المعتضد ذلك قال : "بل أنا أتزوجها"، واختار قطر الندى لنفسه، فتزوجها سنة ٢٨١هـ= ٨٩٤م، بعد أن دفع لها صداقاً قدره ألف ألف درهم، ويروى المؤرخون

أن الخليفة العباسي أراد أن يقفز خمارويه بزواجه من ابنته، وذلك حتى يستنزف أمواله في جهاز ابنته " وكذا وقع" أي أن الخليفة نجح في تحقيق غرضه، ولا داعي للدخول في تفاصيل هذا الجهاز، ولكن تكفي الإشارة إلى أنه " جهاز عظيم يتجاوز الوصف، حتى قيل أنه دخل معها في جملة جهازها ألف هاون من الذهب، " وكان من جملة جهازها دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها قيمة، وعلى طول الطريق من مصر إلى بغداد بنى لها قصر مفروشاً به جميع ما تحتاج إليه على رأس كل منزلة تنزل فيها، بحيث أنها طوال الطريق من مصر إلى بغداد" كأنها في قصر أبيها!!!".

وإذا كان المعتضد قد حقق غرضه وحمل خمارويه في جهاز ابنته ما أجهده فإن خمارويه قد حقق من ناحيته غرضه في تحسين العلاقة مع الخلافة العباسية" فزالت الوحشة من بينهما، وصار بينهما مودة كبيرة". ويبدو أن الخليفة المعتضد أحبها حباً شديداً لجمال صورتها وكثرة أدبها. ويقال إن الخليفة في بعض الأيام وضع رأسه على ركبتها فنام، فلما أدركه النعاس تلطفت به، وأزالت رأسه عن ركبتها، ووضعتها على وسادة، ثم جلست على مقربة منه. ولكنه لم يلبث أن تنبه وعاتبها أنها تركته وحيداً، فربما اعتدى عليه أحد في نومه، فأجابت عليه بأن والدها خمارويه علمها- فيما أدبها به - " أنى لا أجلس مع النيام ولا أنام مع الجلوس !!" فأعجبه ردها " إلى الغاية".

سقوط الدولة :

ويقال أن خمارويه قضى الفترة الأخيرة من حياته تعيساً معذبا؛ فقد كانت له حظية عزيزة على قلبه اسمها بوران- هي التي بنى لها القصر المعروف ببيت الذهب- فلما ماتت هذه الحظية انكسر قلبه" وكدر موتها عيشه، وأنكسر انكساراً بان عليه" على قول المؤرخ أبي المحاسن.

وقد حكى عن خمارويه أنه كان " كثير الفساد بالخدم" متعسفاً معهم. فبعد أن جهز ابنته قطر الندى وأرسلها إلى زوجها خرج إلى دمشق حيث أساء معاملة بعض

خدمه، فتآمر بعضهم عليه وذبحوه في سنة ٢٨٢هـ= ٨٩٥م، بعد أن حكم مصر والشام اثنتى عشرة سنة. وكان أن حمل جثمانه في تابوت إلى مصر حيث أقيمت المآتم واشتد الحزن عليه.

وقد حكم مصر بعد مقتل خمارويه ثلاثة من آل طولون، لم يزد حكمهم جميعاً على عشر سنوات، سقطت بعدها الأسرة الطولونية. وشهدت هذه السنوات العشر الأخيرة من تاريخ الدولة الطولونية انحلالاً واضحاً وتدهوراً سريعاً، بعد أن بلغت تلك الدولة أوج قوتها ومجدها وعظمتها على عهد خمارويه، وزاد من ذلك الانحلال انقسام البيت الطولوني على نفسه، فأبناء خمارويه كانوا صغاراً ضعفاء ليس لهم من أسباب الهيبة والنضج ما يجعلهم موضع احترام الجند، وأخوة خمارويه كانوا أشداء أقوياء كل منهم متحفز للحصول على نصيب الأسد من تركة أبيهم أحمد بن طولون، وجند خمارويه وغلمانه وقادة جيشه أفسدتهم النعمة العريضة التي عاشوا فيها في كنف خمارويه، بعد أن دللهم وأغدق عليهم " وألبسهم الأقبية من الحرير والديباج وصاغ لهم المناطق، وقلدهم بالسيوف المحلاة يضعونها على أكتافهم".

ومن الواضح أنه وسط المنازعات التي نشبت بين أبناء البيت الطولوني بعد مقتل خمارويه، كانت الكلمة الأولى للجند والموالى والغلمان؛ إذ صار في استطاعتهم – بحكم ما لهم من قوة– ترجيح كفة أحد الطامعين في الحكم على كفة آخر. والواقع أن رجال الجيش أخذوا يتدخلون في الشئون الداخلية منذ أيام خمارويه نفسه، وخاصة بعد أن هدأت العلاقات مع الخلافة العباسية، ولم توجد حروب تشغلهم، فانصرفوا إلى جمع الأموال ومدوا أصابعهم إلى مالا يعيهم من الأمور الداخلية، ولم يجد خمارويه ما يسكنهم به في هذه الحالة سوى إعطائهم مزيدا من المال أو الاستعانة بالفقهاء لاسترضائهم.

ولم يكن من مصلحة قادة الجيش أن يلي أمور البلاد بعد مقتل خمارويه أحد أخوته من الرجال الأشداء، فتظاهروا بالولاء لأبناء خمارويه، واختاروا ابنه أبا العساكر جيش الذي لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، وبذلك يسهل عليهم أن يلعبوا به لأنه " صبي لم يؤدبه الزمان ولا محنة التجارب والعرفان".

وكان أن أقبل أبو العساكر جيش على الشرب واللهو مع مجموعة من " عامة أوباش" الناس، اتخذ منهم بطانة له، فزينوا له الغدر بعمه أبي العشائر حتى قبض عليه وقتله، الأمر الذي أغضب الناس عليه. وكان أن غضب أمراء الجيش وقادته عندما وجدوا أبا العساكر يهملهم ولا يستمع إلا لتلك المجموعة من "الأوباش" الذين اتخذهم أصفياء وندماء له. وزاد غضب القادة عندما علموا أنه عندما يستبد الخمر بعقله يقول لندمائه واحداً بعد آخر:" غداً أقلدك موضع فلان وأهب لك داره وأسوغك نعمته" فأنت أحق من هؤلاء الكلاب(يقصد قادة الجيش)".

وكان أن خرج بعض القادة والغلمان – وهم نحو ثلثمائة – من مصر وقصدوا العراق سنة ٢٨٣هـ= ٨٩٦م ليلوذوا بالخليفة المعتضد الذي أحسن استقبالهم وأكرمهم. ويبدو أن هؤلاء كانوا قد دبروا مؤامرة للتخلص من أبي العساكر جيش، ولكن أمرهم افتضح، ففروا من مصر قبل أن يتعرضوا لنقمته.

وفي الوقت الذي خرج أمير دمشق وأمير الثغور عن طاعته، استمر جيش في غيه، الأمر الذي جعل قادة الجيش يقومون بمحاولة أخرى لخلعه. وفي هذه المرة واجهوه بالحقيقة وطلبوا منه أن يتنحى ليحل محله عمه مضر في الحكم، ولكن جيش رد عليهم بأن دخل على عمه – وكان معتقلاً- فقتله، وقذف برأسه إلى الجند قائلاً لهم :" خذوا أميركم"!! وعندئذ لم يستطع قادة الجيش صبراً فخلعوا أبا العساكر جيش وحبسوه سنة ٢٨٣هـ= ٨٩٦م، بعد أن ولى أمر البلاد ستة أشهر، ولم يلبث أن قتل في السجن بعد بضعة أيام.

ومرة أخرى اتجه قادة الجيش نحو تعيين أحد أبناء خمارويه، تظاهراً بالولاء لبيته وتخوفاً من أن يلي الإمرة بعض إخوة خمارويه الناضجين.

وكان أن تمت مبايعة هارون بن خمارويه – وكان صبياً صغيراً- فقام بالوصاية عليه أبو جعفر محمد بن أبي، وهو رجل ذو " دهاء ومكر" على قول أبي المحاسن، وقد استمر هارون يحكم حكماً إسمياً مدة ثماني سنين وثمانية أشهر؛ في حين كانت السلطة الفعلية في يد محمد بن أبي وأعوانه من كبار رجال الجيش. وقد ظلت أمور البلاد مضطربة في عهد هارون بن خمارويه، واستمر هو

متشاغلا " باللهو والسكر"، حتى انتهى الأمر بقتله سنة ٢٩٢هـ= ٩٠٤م، وسنه يومئذ اثنان وعشرون سنة.

وبعد قتل هارون نادى قتلته بعمه شيبان أميراً على مصر. وكان شيبان هذا " أهوج، جسوراً، جسيماً، جلداً، شديد البدن في عنفوان شبابه، فصار يسرع في أموره" وكانت المشكلة التي واجهت حكام مصر بعد مقتل خمارويه هي عدم وجود المال الكافي لمنح العطاء للجند، الأمر الذي جعل الجند في حالة ثورة دائمة بسبب الرغبة في العطاء. ولا يخفى علينا أن خمارويه كان قد أنفق كل ثروته في جهاز ابنته قطر الندى بحيث ترك الخزانة خاوية، مما جعل ابنه وخليفته أبا العساكر جيش يعاني حرجاً" لقلة المال وعجزه عن أن ينعم عليهم، لأن أبا الجيش خمارويه كان أنفق في جهاز ابنته قطر الندى لما زوجها للخليفة المعتضد جميع ما كان في خزانته ومات بعد ذلك بمدة يسيرة، فمات حقاً حين حاجته إلى الموت لأنه لو عاش أكثر من هذا حتى يلتمس ما كانت جرت عادته به لا مستصعب ذلك عليه، ولو نزلت به ملمة لا فتضح!!. وهكذا استمر حكام مصر من الطولونيين بعد خمارويه يعانون الضيق الشديد نتيجة للإسراف في جهاز قطر الندى.

ولم يكن في وسع شيبان – مع قلة موارده وضيق ذات يده واختلال أمور جيشه– الثبات في وجه الخلافة العباسية، التي أخذت تفيق لتسترد نفوذها الضائع في مصر والشام، وكان أن استأمن شيبان لمحمد بن سليمان قائد الجيوش العباسية التي غزت مصر سنة ٢٩٢هـ= ٩٠٤م، فحمل أسيراً إلى العراق. وقبل أن نتكلم عن زوال ملك بني طولون من مصر، نلقي نظرة على بلاد الشام وأثر انحلال الأسرة الطولونية في أوضاعها.

انفصال بلاد الشام وظهور القرامطة :

رأينا كيف نبعت قوة الطولونيين في عهد أحمد بن طولون ثم في عهد ابنه خمارويه من وحدة مصر والشام، تلك الوحدة التي مكنتهم من حماية موقفهم الداخلي من ناحية، والصمود في وجه الخلافة العباسية من ناحية ثانية، ثم النهوض بين حين وآخر بحلقة من حلقات الجهاد ضد الروم من ناحية ثالثة. ولكن

انحلال الدولة الطولونية بعد خمارويه ترتب عليه تمزق تلك الوحدة بين مصر والشام، فانسلخت الشام عن مصر، مما أدى إلى تغيير صورة الدولة الكبيرة القوية التي عرفها التاريخ على أيام أحمد بن طولون، ثم ابنه خمارويه.

ذلك أن طغج بن جف أمير دمشق وابن طغان أمير الثغور لما سمعا بأمر أبي العساكر جيش " خلعاه وأسقطا اسمه من الدعوة والخطبة على منابر أعمالهم ". ولا شك في أن ذلك الحدث له خطورته لأنه لم يعرض حدود مصر الشرقية للخطر فحسب، وإنما مكن أولئك الخوارج من التحكم في أحوال الشام مع وفرتها وكثرتها. ولا أدل على تبلد حكام مصر من أبناء خمارويه من أن جيشاً عندما سمع بانفصال أمير دمشق " لم يكربه ذلك ولا استشنعه ولا رئى له على وجهه أثر !!".

على أن الأمر انتهى بقتل جيش بن خمارويه، فخلفه هارون، وفي عهده رأى أمراء الجيش في مصر أنهم أضعف من أن يخضعوا الأمير طغج أمير دمشق. فأرسلوا إليه سفارة تساومه على أن يعلن الطاعة لهارون ويبقى له نفوذه في الشام. وإذا كان الأمير طغج قد وقف موقفاً مائعاً، فإن ابن طغان أمير الثغور، وخليفته راغب من بعده، رفضا مبايعة حاكم صبي في الوقت الذي يتطلب موقع بلادهما يقظة شديدة لمواجهة الروم وجهادهم.

ولا يخفى علينا أن أمراء الشام والثغور وجدوا في ذلك الدور تأييداً قوياً من الخلافة العباسية المتطلعة إلى استعادة نفوذها في الشام ومصر، بل لقد بادرت الخلافة العباسية عندما اكتشف سوء أوضاع الطولونيين بعد وفاة خمارويه إلى استرداد منطقة الجزيرة من الطولونيين، ثم خرج الخليفة المعتضد نفسه إلى آمد ليتطلع إلى الخطوة التالية. وهنا تصرف الطولونيين تصرفاً يدل على الضعف والخوف، ويناقض الموقف الصريح الذي سبق أن وقفه كل من أحمد بن طولون وخمارويه من الخلافة العباسية من قبل. ذلك أن هارون بادر بالاتصال بالخليفة العباسي يطلب منه تجديد الاتفاقية القديمة بين الطولونيين والخلافة، فرفض الخليفة المعتضد ذلك. وأخيراً رضي هارون بشروط الخليفة العباسي، وأهمها دفع

٤٥٠ألف دينار للخلافة العباسية سنوياً، فضلاً عن الاعتراف باستيلاء الخلافة العباسية على الجزيرة والعواصم من ديار ربيعة وديار مضر.

وزاد من اختلال الأمور ببلاد الشام في ذلك الدور ظهور القرامطة على مسرحها. وهؤلاء القرامطة جماعة من الخوارج ادعوا النسب إلى العلويين، ونادوا بمبدأ شيوع الثروة، الأمر الذي مكنهم من اجتذاب جموع الدهماء والمعدمين والحاقدين. وكان أول ظهورهم من منطقة واسط سنة ٢٧٧هـ= ٨٩٠م، ثم نفذوا إلى بلاد الشام سنة ٢٨٩هـ= ٩٠٢م، حيث وجدوا في اضطراب أمورها بيئة خصبة لنشر تعاليمهم الهدامة. وقد عجز أمير دمشق طغج بن جف عن صدهم، وفي الوقت الذي عجز الطولونيين في مصر والشام عن قمع خطر القرامطة والحد من عبثهم ببلاد الشام، كان الخليفة المكتفي العباسي " متيقظاً في هذا الحال"؛ فبادر بإرسال جيش كثيف بقيادة محمد بن سليمان إلى الشام للقضاء على القرامطة. وكان هذا الجيش هو الذي قضى على القرامطة والطولونيين جميعاً في الشام ومصر وأعادهما إلى حظيرة الخلافة العباسية.

الخلافة العباسية واسترداد مصر :

والواقع أن الخلافة العباسية رغم ما أصابها من عوامل الضعف في القرن الثالث إلا أنها استطاعت أن تدخل مرحلة جديدة من الإقامة بعد القضاء على ثورة الزنج(٢٥٥-٢٧٠هـ= ٨٦٩-٨٨٣م). وبدأت هذه الإفاقة في صورة واضحة علي عهد الخليفة المعتضد الذي استعاد نفوذ الخليفة المسلوب وحرص على الظهور في صورة الحاكم القادر على مباشرة سلطانه والتمتع بحقوقه، ويؤكد الباحثون أنه كان في استطاعة الخليفة المعتضد أن يسترد الشام ومصر، ويقضي على ما تبقى من نفوذ الطولونيين، لولا حرصه على علاقة المصاهرة ووفائه لزوجته قطر الندى وعدم رغبته في التعرض لأخيها أبي العساكر جيش.

ويدل على هذا كله أن المعتضد غير سياسته تجاه الطولونيين عقب وفاة زوجته قطر الندى، وقد انتهى الأمر بينه وبين الطولونيين بعقد الاتفاقية السابق الإشارة إليها مع هارون.

ومهما يكن من أمر، فإن موقف الخليفة المكتفي كان أقوى بكثير، ذلك أن الموقف الداخلي في العراق كان هادئاً مما مكنه من النفاذ إلى شئون الشام، فاستغل فرصة فتنة القرامطة، وأرسل جيشاً بقيادة محمد بن سليمان الذي أنزل الهزيمة بالقرامطة قرب حماه وقضى عليهم، وحمل زعماءهم أسرى إلى العراق.

ولم يكن منتظراً من الخليفة المكتفي أن يقنع بالسيطرة على بلاد الشام وأمامه مصر يترنح فيها الحكم الطولوني. لذلك ما كاد محمد بن سليمان يفرغ من القضاء على القرامطة بالشام، حتى أمره الخليفة بالزحف على مصر، يؤيده الأسطول العباسي في البحر المتوسط. وكان أن انضم إلى محمد بن سليمان أمير دمشق وغيره من الأمراء الناقمين على البيت الطولوني، وشرع الجميع في الزحف على مصر.

ومن الخطأ أن نتصور الطولونيين في النزع الأخير وقد استسلموا دون مقاومة، إذ جمع هارون قواته عند العباسة بالشرقية، في الوقت الذي التقى الأسطول الطولوني بأسطول الخلافة عند تنيس، فانتصر الأسطول العباسي واستولى العباسيون على دمياط، وفي ذلك الموقف الحرج قتل هارون، وانضم كثير من قواته إلى الغزاة، فخلفه شيبان سنة ٢٩٢هـ= ٩٠٥م.

ويذكر أبو المحاسن أن شيبان ناوش العباسيين ساعة، أدرك بعدها " قلة من معه من الرجال وكثرة جيوش محمد بن سليمان".

لذلك استجاب شيبان لمحمد بن سليمان عندما كتب إليه الأخير يؤمنه على نفسه وأهله وولده وماله" فجمع إخوته وبني عمه في الليل وتوجهوا إلى محمد بن سليمان وصاروا في قبضته".

وهكذا دخل محمد بن سليمان على رأس الجيوش العباسية مدينة مصر " من غير أن يمنعه عنها مانع"، فقتل كثيراً من الناس، وأحرق بعض القطائع" وزالت دولة بني طولون كأنها لم تكن".

الفصل الرابع

مصر في عصر الدولة الإخشيدية

مصر في عصر الدولة الإخشيدية

ـــــ

مصر بين العباسيين في المشرق والفاطميين في المغرب :

نجح محمد بن سليمان الكاتب قائد جيوش الخلافة العباسية في القضاء على الدولة الطولونية سنة ٢٩٢هـ= ٩٠٥م، فأحرق عاصمتهم القطائع بحيث لم يسلم منها سوى جامع أحمد بن طولون، وقبض على بني طولون وكبار أتباعهم وساقهم جميعاً أمامه إلى بغداد.

ولا شك في أن المصريين أسفوا أسفاً عميقاً لتلك النهاية المؤلمة التي انتهت إليها دولة الطولونيين؛ إذ مهما يقال في أصل الطولونيين وفي أنهم من ناحية الدم أغراب عن البلاد، فإنه يكفي أنهم حكموا مصر حكماً مستقلاً وأن إداراتهم كانت نابعة من جوف البلاد لا من أوامر صادرة إليهم من دار الخلافة ببغداد. هذا إلى ما تمتعت به مصر في عصر الطولونيين من ازدهار حضاري وانتعاش اقتصادي. حقيقة إن الجزء الأكبر من ثروة البلاد فاز به الحكام ومواليهم، ولكنهم كانوا ينفقون تلك الأموال داخل البلاد فيعم الخير المواطنين جميعاً. وشتان بين هذا الوضع وبين ما دأب عليه الولاة العباسيون من استنزاف موارد البلاد لإرسالها كل سنة إلى مقر الخلافة في بغداد أو سامراء.

هذا إلى أن عودة الحكم العباسي المباشر إلى مصر جاء فيما يبدو مصحوباً بروح التشفي والانتقام، فأساء رجال الخليفة العباسي إلى المصريين وامتهنوهم وتطرفوا في معاملتهم، ولعلهم أرادوا أن يعاقبوهم على استكانتهم للطولونيين وتقبلهم لحكم بني طولون، بل إشادتهم به.

ويقول أبو المحاسن عن محمد بن سليمان – القائد العباسي الذي قضى على دولة بني طولون– إن "حكمه في أهل مصر كان بضرب أعناقهم وبقطع أيديهم وأرجلهم جوراً، وتمزيق ظهورهم بالسياط، وصلبهم على جذوع النخل، ونحو ذلك من أصناف النكال...." لذلك لم يسع المصريون وسط تلك النغمة سوى أن

يترحموا على آل طولون ويذكروا حلو أيامهم، ونظم الشعراء الشعر في رثائـــهم، ومن ذلك ما قاله ابن أبي هاشم :

يا منزلاً لبني طولون قد دثرا	**سقاك صرف الغوادي القطر والمطرا**
يا منزلا صرت أجفوه وأهجره	**وكان يعدل عندي السمع والبصرا**
بالله عندك علم من أحبتنا	**أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا**

والواقع إن زوال الدولة الطولونية لم يتم دون محاولـــة مـــن جـــانب أنصارهـــا لإحيائها. ذلك أن الخليفة المكتفي العباسي لم يكد يولي على مصـــر أبـــا موســـى عيسى بن محمد النوشري حتى قامت ثورة كبرى لإحياء الدولة الطولونية بزعامـــة محمد بن على الخلنجي المعروف بابن الخليج. وكان ابن الخليج هذا أحـــد رجـــال الطولونيين الذين ساقهم معه إلى العراق القائد العباسي محمد بن سليمان الكـــاتب. ولكنه تمكن من الفرار أثناء الطريق إلى بغداد، وعاد مسرعاً إلى مصـــر للقيـــام بحركة تستهدف إحياء الدولة الطولونية. وعندما وصل ابن الخليج مدينـــة الرملـــة دعا على منابرها لإبراهيم بن خمارويه، ثم لنفسه بوصفه نائباً عن إبراهيم الـــذي حمل أسيراً في بغداد. وكان أن صادف ابن الخليج تأييداً كبيراً مـــن المصريـــين فازداد أتباعه، وتوالت انتصاراته على والي مصر النوشري الذي اضطـــر إلـــى الجلاء عن الفسطاط، ولم تلبث أن دانت الدلتا بأكملها لابن الخليـــج، ممـــا أنـــذر بخروج مصر مرة أخرى من قبضة الخلافة العباسية.

وعندما أحس الخليفة المكتفي بخطر حركة ابن الخليج، أرسل الجيش تلـــو الآخـــر لإخضاعه، حتى حلت الهزيمة بابن الخليج قرب بني سويف سنة ٢٩٣هـ=٩٠٥م، ففر إلى الفسطاط حيث ألقى القبض عليه، وأرسل إلى بغداد ليشهر به قبل إعدامه. وبذلك عادت مصر مرة أخرى إلى قبضته الخلافة العباسية.

والواقع أن سرعة نجاح ابن الخليج واستطاعته التغلب على نفوذ الخلافة العباســـية في مصر نحواً من سبعة أشهر، إنما يرجع الفضل فيها إلـــى " تحمـــس الشـــعب المصري ضد الخلافة التي قضت على دولة لها في مصر طابع قومي"، وإذا كانت ثورة الخلنجي – أو ابن الخليج – قد فشلت، فلا أقل من أن يعبر المصريون عـــن

استيائهم من الخلافة العباسية وما فعلته ببني طولون تعبيرا جديداً عن طريق التجاوب مع النفوذ الفاطمي الذي ظهر في المغرب.

ذلك أن عبيد الله المهدي- وهو من سلالة فاطمة الزهراء - استطاع أن ينتقل إلى بلاد المغرب حيث كان أبو عبد الله الشيعي قد نجح في نشر الدعوة للفاطميين.

وعلى الرغم من أن عبيد الله المهدي مر متخفياً بمصر في طريقه إلى المغرب، إلا أنه من الصعب فهم كيف فات أمره على محمد بن سليمان أو عيسى النوشري، فلم يقبضا عليه رغم الأوامر المشددة التي أصدرها الخليفة العباسي بالقبض عليه.

ويفهم من كلام المؤرخين الذين عالجوا هذا الموضوع أن عبيد الله المهدي حمل معه أثناء رحلته مالاً كثيراً استطاع أن يرشو به هذا أو ذاك من الولاة أثناء رحلته، حتى وصل سليمان إلى سجلماسة بالمغرب.

ومهما يكن من أمر، فإن أقدام الفاطميين لم تكد تثبت في المغرب حتى تطلعوا لامتلاك مصر، نظراً لما لها من موقع فذ وخيرات ضخمة.

وهنا يؤكد الكندي أن بعض المصريين كاتبوا الفاطميين في المغرب وطلبوا منهم غزو مصر، الأمر الذي يشير إلى أن المصريين وجدوا في هذه القوة الجديدة على حدود بلادهم الغربية منفذاً للخلاص من سيطرة الدولة العباسية، وكان أن أرسل المهدي جيشاً لغزو مصر سنة ٣٠١هـ= ٩١٣م، بقيادة حباسة بن يوسف، فاستولى الفاطميون على برقة ثم الإسكندرية ومنها أوغلوا في الوجه البحري، وكان والي مصر عندئذ أبو منصور تكين الذي عين والياً على مصر بعد وفاة عيسى النوشري سنة ٢٩٧هـ= ٩٠٩م، فلم يستطع وقف الغزو الفاطمي وأرسل إلى الخليفة العباسي مستنجداً به. وقد أفزعت هذه الأخبار الخليفة المقتدر العباسي فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة مؤنس الخادم، وتمكن هذا الجيش من إنزال الهزيمة بحباسة قائد الجيش الفاطمي، فاضطر إلى الانسحاب إلى المغرب حيث قتله الخليفة الفاطمي.

أما مؤنس الخادم - قائد الجيش العباسي - فقد عزل تكين عن ولاية مصر سنة ٣٠٢هـ= ٩١٤م، وأقره الخليفة المقتدر على رأيه، وأرسل والياً جديداً هو ذكا الأعور أو ذكا الرومي(٣٠٣-٣٠٧هـ= ٩١٥-٩١٩م).

ويبدو أن هذا الوالي الجديد أتى إلى مصر مزوداً بتعليمات استئصال شأفة أنصار الفاطميين من مصر، فتتبع كل من أتهم بالاتصال بهم، وعاقبهم بالسجن، كما قطع أيدي بعضهم وأرجلهم. على أن هذه الإجراءات لم تمنع الفاطميين من معاودة التفكير في غزو مصر، وفي الوقت نفسه لم تمنع المصريين من التجاوب مع الفاطميين بقلوبهم وأحاسيسهم. وكان أن غزا مصر سنة ٣٠٧هـ=٩١٩م جيش فاطمي بقيادة أبي القاسم بن المهدي، فاستولى على الإسكندرية وسار إلى الجيزة. وكان ذكا الرومي قد توفى في نفس السنة، فخلفه في ولاية مصر تكين للمرة الثانية، ولكن تكين لم يستطع أن يحرز انتصاراً على الفاطميين، الأمر الذي جعل الخليفة العباسي يرسل جيشاً إلى مصر بقيادة مؤنس الخادم سنة ٣٠٨هـ=٩٢٠م، ويبدو أن الموقف كان خطيراً عندئذ لأن النفوذ الفاطمي امتد في البلاد حتى الأشمونين والفيوم، ولكن الهزيمة حلت بهم، واضطر أبو القاسم ابن المهدي إلى الفرار إلى المغرب بعد أن خسر كثيراً من جنده وسفنه.

ومهما يكن من أمر، فإنه من الواضح أن هذه المحاولات الأولى التي قام بها الفاطميون لغزو مصر لم يقدر لها النجاح، لأن الخلافة العباسية كانت عندئذ لا تزال على درجة من القوة مكنتها من مدافعة الفاطميين.

هذا وإن كانت الخلافة العباسية نفسها قد اهتزت أمام الخطر الفاطمي، لأن هذا الخطر لم يكن مجرد تهديد عادي بضياع مصر مرة أخرى من قبضة الخلافة العباسية، وإنما زاد من وقع هذا الخطر أنه نابع من جانب العلويين فضلاً عن أن سيطرة الفاطميين على مصر من شأنها أن تمهد لامتداد نفوذهم إلى الشام مما يهدد الخلافة العباسية في عقر دارها.

أما عن مصر نفسها، فقد غدت ساحة للصدام بين القوتين اللتين أخذتا تتناطحان حول اقتسام العالم الإسلامي، وهما الخلافة العباسية السنية، والخلافة الفاطمية الشيعية، ولا شك في أن وقوع هذا الصدام أكثر من مرة على أرض مصر أنزل كثيراً من الأضرار بأهلها وعرضهم لمتاعب قاسية من جانب الجنود، فساءت أحوال البلاد وتعرضت مرافقها للإهمال.

وفي الوقت الذي كانت أمور مصر قسمة بين الولاة من ناحيـــة وقــادة الجيــش العباسي فيها من ناحية أخرى، استطاع الماذرائيون أن يحتفظوا لأنفســـهم بكلمــة مسموعة في تصريف شئون البلاد.

أما هؤلاء الماذرائيون فهم أسرة فارسية الأصل، نزحت من العراق إلـــى مصــر حيث تمتعوا بنفوذ كبير أيام الطولونيين وبعد أيام الطولونيين.

وظهر هذا النفوذ الواسع في تقلدهم بعض الوظائف الرئيسية في البلاد. وقد اشتهر منهم أبو على الحسين الماذرائي، الذي تولى منصب عامل الخراج في مصر بعــد عودتها إلى حظيرة الخلافة العباسية. وهكذا سيطر الماذرائيون في ذلك الدور على الحياة الاقتصادية والنشاط المالي في مصر والشام، وجمعوا من وراء ذلك ثـــروة طائلة، الأمر الذي جعل منهم قوة لها حسابها ووزنها في تاريخ مصر عنــد قيــام الدولة الإخشيدية.

ظهور الإخشيديين :

ولا شك في أن هذه ألأحداث المتداخلة تعطينا فكرة واضحة عما وصل غليه العالم الإسلامي من تفكك في القرن الرابع الهجري- العاشر الميلادي- فبعد أن كـــانت هناك خلافة واحدة يجلس صاحبها في دمشق ويصدر أوامره فتلبي مشـــيئته فـــي البصرة وأصفهان والمدينة وصنعاء والفسطاط والقـــيرون وقرطبـــة؛ إذا بالعـــالم الإسلامي يفقد وحدته السياسية وتتقاسمه في القرن الرابع الهجري ثلاث خلافـــات؛ هي الخلافة الأموية في الأندلس وهي الخلافة التي أخذ الوهن يمتد ســـريعاً فـــي جسدها، وكان أقوى مظاهر انحلال الخلافة العباسية الحركات الانفصاليـــة التـــي قامت في أرجائها وولاياتها من ناحية، ثم عجز الخلفاء العباســـيين أنفســـهم عـــن السيطرة على شئون الحكم ووقوعهم تحت سيطرة عناصر الأتراك الذيـــن صـــار منهم قادة الجيش والوزراء وأرباب النفوذ من ناحية أخرى.

وإذا كانت المراجع قد اعتادت أن تنسب إلى عهد الخليفة العباسي المعتصم بـــالله- ابن هارون الرشيد- ازدياد نفوذ الأتراك في الدولة، والاستغناء بهم في الجيش عن جنود الأبناء والعرب جميعاً، فإنـــه مـــن الثـــابت أن الخليفـــة المعتصـــم (٢١٨-

٢٢٧هـ= ٨٣٣-٨٤١م) جلب جموعاً من أتراك فرغانة، وبالغ في إكرامهم وأقطعهم القطائع في سامراء للاستعانة بهم والاعتماد عليهم في حماية ملكه، وبرز من هؤلاء الأتراك جف- جد الإخشيدين- الذي حظي عند الخليفة المعتصم بمكانة كبيرة لشجاعته وإقدامه في الحروب. وبعد وفاة المعتصم، ظل جف يمتع بنفس المكانة عند ابنه الخليفة الواثق (ت٢٢٢هـ=٨٤٦م)، ثم عند الخليفة المتوكل(ت٢٤٧هـ=٨٦١م). ويقال إن جف توفى في بغداد في الليلة التي قتل فيها المتوكل العباسي، وعندئذ لم يجد أولاده بداً من ترك بغداد، فانصرف طغج بن جف إلى مصر، حيث اتصل بلؤلؤ غلام أحمد بن طولون، وعن هذا الطريق تمكن من الاتصال بأحمد بن طولون نفسه.

على أن طغج لم يظل على ولائه لأحمد بن طولون، وإنما انضم إلى جانب اسحق ابن كنداج والى الموصل الذي دخل في صدام عنيف مع ابن طولون كما مر بنا. واستمر على ذلك حتى توفى أحمد بن طولون وتم الصلح بين ابنه خمارويه واسحق بن كنداج، وعندئذ عاد طغج إلى ولائه للطولونيين، فعينه خمارويه والياً على دمشق وطبرية، ورغم ما يقال عن سوء التفاهم بين خمارويه في أواخر أيامه وطغج، إلا أن الأخير قام بخدمة سيده بكفاية نادرة حتى قتل خمارويه، وعندئذ واصل طغج العمل في خدمة ابنه جيش ابن خمارويه، وظل طغج بن جف يعمل والياً شبه مستقل على بلاد الشام حتى مقتل جيش بن خمارويه وقيام هارون بن خمارويه في الحكم، فتعرضت بلاد الشام لغزو القرامطة سنة (٢٨٩هـ-٩٠٢م) وعجز الطولونيين عن صدهم، وكان أن انتهز الخليفة المكتفي بالله العباسي فرصة الصدام بين القرامطة والطولونيين ليسترد نفوذ الخلافة في بلاد الشام، فأرسل جيشاً بقيادة محمد بن سليمان لكاتب ليضرب القرامطة والطولونيين جميعاً، كما مر بنا، وكان ذلك في الوقت الذي استاء طغج بن جف بسبب مقتل هارون بن خمارويه، فانضم مع مجموعة من قادة الطولونيين إلى جانب محمد بن سليمان العباسي.

وهكذا دخل الجيش العباسي مصر بقيادة محمد بن سليمان يصحبه طغج بن جف، وعند عودة محمد بن سليمان إلى بغداد صحب معه طغج بن جف، ولكن وزير

الخليفة المكتفي العباسي نقد على طغج فأوقع به عند الخليفة الذي أمر بحبس طغج وابنيه محمد وعبيد الله، فظلوا في السجن حتى توفى طغج سنة ٢٩٤هـ=٩٠٦م، وعندئذ أفرج عن ولديه، فلازما الوزير العباس بن الحسن حتى انتقما لأبيهما بالمشاركة في قتله، وعندئذ هرب عبد الله بن طغج إلى ابن أبي الساج أمير داغستان، في حين هرب أخوه أبو بكر محمد إلى الشام. ومحمد بن طغج هذا هو مؤسس الدولة الإخشيدية.

محمد بن طغج الإخشيد وولاية مصر :

أقام محمد بن طغج في بادية الشام نحواً من عام، حتى اتصل بأبي منصور تكين والي مصر، ولم يلبث أن أخذ نجم محمد بن طغج يعلو بسرعة، فقام بدور كبير في طرد الفاطميين من مصر سنة ٣٠٢هـ ثم سنة ٣٠٧هـ(٩١٤،٩١٩م) فضلاً عن جهوده في حماية الحجاج من الأعراب والبدو الذين قطعوا طريق الحج سنة ٣٠٦هـ=٩١٨م، بين دمشق والحجاز.

ويبدو أن أخبار شجاعة محمد بن طغج وحسن بلائه وصلت إلى آذان الخليفة العباسي المقتدر، فعينه والياً على الرملة سنة ٣١٦هـ=٩٢٨م، ثم والياً على دمشق سنة ٣١٨هـ=٩٣٠م، ويقال إن أهل الشام رحبوا به وفرحوا بتعيينه والياً عليهم، وقدموا له مساعدات كبيرة، فوطدوا مركزه ودعم قوته، وكون جيشاً كبيراً يستعين به في تحقيق آماله. وهناك في دمشق التف حوله أخوته وأبناء بيته، ولا نستبعد أن يكون محمد بن طغج الذي عاش في مصر وخبر أحوالها وأدرك مدى ثرائها، قد أخذ عندئذ يتطلع إلى حكمها، ولكنه لم يستطع أن يحقق أحلامه في حياة واليها تكين، وبوفاة تكين والى مصر تفتحت الأبواب أمام محمد بن طغج فعينه الخليفة القاهر بالله والياً على مصر سنة ٣٢١هـ=٩٣٣م.

على أن محمد بن طغج لم يأت إلى مصر ليباشر وظيفته الجديدة، إذ لم يمض شهر واحد على تعيينه والياً على مصر حتى عين الخليفة العباسي بدله أحمد بن كيغلغ العباسي، وقد شهدت الخلافة العباسية في ذلك الوقت اضطراباً كبيراً، زاد من وقعه عزل الخليفة القاهر سنة ٣٢٢هـ= ٩٣٤م، بعد سنة ونصف من توليه

الخلافة، وتولية ابن أخيه الراضي بالله بدله، ويعنينا في هذا الصدد أن الخليفة الراضي ما كاد يتولى الخلافة حتى عزل ابن كيغلغ عن مصر وأحل محله محمد بن طغج مرة أخرى.

وفي هذه المرة أسرع محمد بن طغج بالحضور إلى مصر لمباشرة حكمها نيابة عن الخليفة العباسي، ولما امتنع ابن كيغلغ عن ترك منصب الولاية حاربه محمد ابن طغج وأنزل به الهزيمة، ففر أحمد بن كيغلغ ومعه بعض أنصاره وذويه إلى برقة والغرب حيث حاولوا الثأر لأنفسهم بالاتصال بالخليفة القائم بأمر الله الفاطمي" حرضوه على أخذ مصر وهونوا عليه أمرها".

أما محمد بن طغج فقد وفد عليه في مصر رسول الخليفة العباسي يحمل إليه خلعة الولاية " فلبسها وقبل الأرض"، ثم أمر الخليفة الراضي العباسي بأن يزاد في ألقاب محمد بن طغج لقب " الإخشيد" أو " الإخشيذ"، فدعى له بهذا اللقب على منابر مصر، وأصبح لقباً لهذه الأسرة التي حكمت مصر في ذلك الدور، والإخشيد لفظ تركي معناه ملك الملوك، تلقب به ملوك فرغانة مثلما تلقب ملوك الروم بلقب قيصر وملوك الحبشة بلقب النجاشي، ولما كان محمد بن طغج- كما سبق أن رأينا – ينحدر أصله من أتراك فرغانة، فإن الخليفة العباسي عندما أراد أن يكرمه اختار له هذا اللقب الذي يتفق وأصله.

الإخشيد يدعم نفوذه في مصر والشام :

كان من الطبيعي أن يواجه محمد بن طغج مقاومة عنيفة من جانب الماذرائيين، وهم الذين سيطروا على إدارة البلاد وجمعوا الكثير من ثرواتها- كما سبق أن رأينا- وبالتالي فقد عارضوا ظهور أية قوة في مصر من شأنها أن تهدد كيانهم ومصالحهم، وكان لموقف الماذرائيين من الإخشيد أثره في إحداث صدام بين الطرفين، وفي هذا الصدام حظى الإخشيد بتأييد الوزير العباسي الفضل بن جعفر بن الفرات بسبب العداء المستحكم بين الماذرائيين من ناحية وأسرة ذلك الوزير من ناحية أخرى، ولم يتردد الفضل بن جعفر في الحضور إلى مصر للإشراف بنفسه على تصفية نفوذ الماذرائيين وأموالهم.

ومهما يكن من أمر، فإن نجاح الإخشيد في التغلب على الماذرائيين والقضاء على سطوتهم، ولم يترتب عليه تخلصه من منافسين أقوياء داخل البلاد فحسب بل مكنه ذلك أيضا من الحصول على أموال ضخمة نتيجة لمصادرتهم. ولا شك في ان هذه الأموال أفادت محمد بن طغج الإخشيد في بداية عهده ومكنه من تثبيت مركزه في مصر بسرعة فائقة.

على أنه إذا كان الإخشيد قد استطاع بسرعة تثبيت نفوذه داخل مصر، فإن الأخطار التي هددت سلطانه ظهرت دائماً على مسرح بلاد الشام، وكان مصدرها الأوضاع التي نجمت عن ضعف الخلافة العباسية، وهي أوضاع ظهر بعضها في حاضرة الخلافة ذاتها البعض الآخر ظهر في القوى الصغيرة المتطاحنة التي تفرعت عن الدولة العباسية وقامت على أنقاضها.

وكان أول هذه الأخطار التي واجهت محمد بن طغج الإخشيد النزاع الخطير بينه وبين ابن رائق أمير الأمراء في الدولة العباسية، وكان منصب أمير الأمراء في الخلافة عندئذ قد غدا من المناصب الخطيرة، التي يتمتع صاحبها بنفوذ واسع كبير في النواحي الإدارية والمالية، سواء في قلب الدولة أو في أطرافها المرتبطة بها. لذلك لا عجب إذا اشتد التطاحن والصراع بين كبار رجال الدولة للفوز بهذا المنصب، الأمر الذي جعل حاضرة الخلافة مسرحاً لكثير من الفتن التي انعكست صورتها واضحة في عديد من الولايات.

وإذا كان ابن رائق قد تولى منصب أمير الأمراء في بغداد سنة ٣٢٤هـ=٩٣٦م، فإنه كان من الطبيعي أن يثور عندما نجح أحد منافسيه في انتزاع ذلك المنصب منه بعد عامين، لذلك انتهز ابن رائق فرصة خروج الخليفة الراضي من بغداد لمحاربة الحمدانيين. واعتصم في بغداد ولم يقبل الانسحاب منها إلا بعد أن منحه الخليفة ولاية حران والرها، وغيرهما من البلاد الواقعة على أطراف الدولة جهة الشمال. ومن الواضح أنه لم يكن منتظراً من ابن رائق أن يقنع بتلك الأجزاء البعيدة المتطرفة، وإنما انتهز فرصة ملامسة أمارته الجديدة لبلاد الشام ليبسط نفوذه على هذه البلاد ذات الموقع الفريد والثروة العظيمة والمكانة الخالدة في التاريخ.

وكان معظم بلاد الشام عندئذ تحت نفوذ الإخشيد، ويشرف على شئونها أمير من قبله أسمه بدر بن عبد الله، فأدى تطلع ابن رائق إلى بلاد الشام إلى استثارة مخاوف الإخشيد. ولا يخفى علينا أن بلاد الشام هي دائماً بمثابة الباب الأمامي لمصر من جهة الشرق، وعن طريق هذا الباب أتت إلى مصر كافة الغزوات التي هددتها في مختلف عصور التاريخ من الناحية الشرقية. لذلك كان من حق الإخشيد أن يعمل حساباً لنيات ابن رائق وجموحه، وينظر إلى المسألة من زاوية مركزه في مصر بالذات.

وكان أن بدأ ابن رائق يستفز الإخشيد، فأرسل إليه يطلب إتاوة على ممتلكاته في بلاد الشام، إشارة إلى تبعية بلاد الشام لابن رائق وإلى أن الإخشيد يحكمها نيابة عنه، ويبدو أن محمد بن طغج الإخشيد كان في ذلك الدور الأول من حكمه لا يميل إلى لدخول في صراع مسلح مع جار قوي مثل ابن رائق، وخاصة أن توطيد نفوذه داخل مصر كان يتطلب كافة جهوده وإمكانياته، لذلك بادر الإخشيد بتقديم المال المطلوب إلى ابن رائق، وعندئذ ظهر أن الأخير لم يقصد المال في حد ذاته وإنما كان يقصد امتلاك بلاد الشام كخطوة للوثوب منها على مصر، فبادر بالهجوم على بلاد الشام وأنزل الهزيمة بواليها من قبل الإخشيد وهو بدر بن عبد الله، ثم أخذ يستولى على مدنها الرئيسية من حلب وحمص شمالاً حتى الرملة في جنوب فلسطين في أواخر سنة ٣٢٧هـ=٩٣٨م.

وعندما رفع محمد بن طغج شكواه إلى الخليفة العباسي أتضح أن الخلافة كانت عندئذ أضعف من أن تتدخل لفض نزاع مسلح بين أثنين من ولاتها.

لذلك لم يعد حل أمام الإخشيد سوى منازلة ابن رائق، فاستخلف على مصر أخاه الحسن، وخرج على رأس جيشه قاصداً الرملة، في حين أرسل بعض السفن إلى شواطئ الشام لتأييده من ناحية البحر. ولم يتعد الأمر عندئذ مناوشات خفيفة بين الفريقين سنة ٣٢٨هـ=٩٣٩م، تتدخل بعدها الأمراء لعقد صلح بينهما، وافق الإخشيد بمقتضاه على أن تكون طبرية وما يقع شمالها من بلاد لمحمد بن رائق.

ولكن لم يكد محمد الإخشيد يصل إلى الفسطاط حتى بلغه أن ابن رائق قد نقض الصلح، وأنه بارح دمشق متجهاً صوب حدود مصر، فعاد الإخشيد مسرعاً ليلتحم

مع جيش ابن رائق في موقعة حامية عند العريش، انكسر فيها جيش محمد بن رائق وأسر خمسمائة من رجاله وعاد راجعا إلى دمشق.

أما الإخشيد فقد قتل أخوه حسين أثناء مطاردته ابن رائق، فما كان من الأخير إلا أن حفظ جثته وأرسلها صحبة أخيه إلى الإخشيد معتذرا معزيا " ويحلف له أنه ما أراد قتله، وأنه أرسل ابنه مزاحما ليفتديه بالحسين بن طغج إن أحب الإخشيد ذلك". وكان أن أكبر الإخشيد هذا التصرف من جانب ابن رائق، الأمر الذي يسر عقد الصلح بين الطرفين على أن تكون مصر حتى الرملة للإخشيد، الذي تعهد بأن يدفع في كل سنة مائة وأربعين ألف دينار لابن رائق. أما باقي الشام – شمالي الرملة – فيكون لابن رائق.

وبعد قليل جاءت الأخبار سنة ٣٢٩هـ= ٩٤٠م، بوفاة الخليفة الراضي العباسي وقيام أخيه المتقي بأمر الخلافة. وقد أقر الخليفة الجديد محمد بن طغج الإخشيد على مصر ، الأمر الذي زاد من ثبات مركزه في الوقت الذي أتيحت الفرصة لابن رائق ليعود إلى شغل منصب أمير الأمراء.

ولكن ابن رائق لم يهنأ طويلا بمنصب إمرة الأمراء، إذ قتل بعد قليل وعندئذ رأى الإخشيد فرصته سانحة ليسترد بلاد الشام فخرج إليها مسرعا سنة ٣٣٠هـ=٩٤١م، ودخل دمشق" وأصلح أمورها" ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن ثبت نفوذه في بلاد الشام، ولا أدل على قوة مركز الأخشيد في ذلك الدور من أنه ما كاد يعود إلى مصر حتى " أخذ البيعة على المصريين لابنه أبي القاسم أنوجور وعلى جميع القواد والجند". ومعنى ذلك أن محمد بن طغج الإخشيد بدأ يتخذ من الخطوات ما هو كفيل بتأسيس أسرة حاكمة بحيث يرثه أبناؤه في حكم مصر.

الإخشيد والخلافة العباسية :

ولا ندري بالضبط ماذا كان موقف الخلافة العباسية من تلك الخطوة التي اتخذها محمد بن طغج الإخشيد؛ إذ صمتت المراجع عن ذلك الأمر صموتا تاما، وإن كان يبدو لنا أن الخلافة العباسية في ذلك الدور كانت تعاني آلام المرض بل الموت البطيء، الأمر الذي جعل الخليفة أكثر انشغالا وإحساسا بما يجري من قلب الدولة

من تيارات ومنازعات بين الطامعين، منه بما كان يدور في الولايات. ولا أدل على ضعف الخليفة العباسي وأنه غدا مغلوباً على أمره، من أن الخليفة المتقي أرسل إلى الإخشيد يشكو له أمير الأمراء توزون الذي أخذ يضيق على الخليفة حتى اضطره إلى ترك بغداد والهجرة إلى الموصل، ومن هناك بعث الخليفة إلى الإخشيد مستنجداً به سنة ٣٣٢هـ= ٩٤٣م، ويبدو أن الخليفة لم يستنجد بالإخشيد لا بعد أن قنط من مساعدة الحمدانيين، وبعد أن تغلب توزون على النجدة التي أرسلها الحمدانيون لنصرة الخليفة.

أما الإخشيد " محمد بن طغج" فقد غادر مصر مسرعاً لملاقاة الخليفة قرب الفرات. وفي هذا اللقاء أظهر الإخشيد ضروب الطاعة للخليفة المتقي، وقدم له الأموال والهدايا الثمينة، وألح في دعوته للحضور إلى مصر والإقامة فيها، فقال للخليفة :" يا أمير المؤمنين، أنا عبدك وابن عبدك، وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم، فالله في نفسك سر معي إلى الشام ومصر فهي لك وتأمن على نفسك". وكان أن كافأ الخليفة الإخشيد على ولائه وإخلاصه بأن قال له : " قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك أنوجور". ومعنى ذلك موافقة الخليفة على أن يورث الإخشيد مصر لأبنائه من بعده، وهو ما سعى إليه الإخشيد فعلاً. ولكن الخليفة لم يقبل أن يترك العراق، وخاصة بعد أن وصلته كتب توزون يدعوه إلى العودة إلى بغداد، فعاد الخليفة إلى بغداد وعاد الإخشيد إلى مصر.

ولا ندري بالضبط حقيقة نوايا الإخشيد عندما ألح في دعوة الخليفة للإقامة بمصر، ولا ندرى ماذا كان يمكن أن يترتب على هذا المشروع – لو تم – بالنسبة لتاريخ الدولة الإخشيدية وتاريخ الخلافة العباسية وتاريخ مصر جميعاً، وكل ما نستطيع أن نقرره هو أن جهود ابن طولون والإخشيد لجعل مصر قاعدة الخلافة العباسية باءت بالفشل، وأن هذا الحلم لم يتحقق إلا في عصر سلاطين المماليك، أي بعد سقوط بغداد في أيدي التتار سنة ٦٥٦هـ= ١٢٥٨م، وإذا كانت مصر قد غدت قاعدة لخلافة إسلامية في عصر الفاطميين فإنها كانت خلافة من نوع آخر غير الخلافة العباسية السنية.

أما الخليفة المتقي فقد عاد إلى بغداد ليعزله أمير الأمراء توزون، ويقيم مكانه في الخلافة المستكفي بالله، ولم يؤثر ذلك على علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية، إذ ظلت العلاقة طيبة بينه وبين المستكفي ثم المطيع.

وكل ما هنالك هو أن الإخشيد أخذ منذ سنة ٣٢٩هـ= ٩٤٠م، بنقش اسمه على السكة إلى جانب اسم الخليفة العباسي، مما يشير إلى تمتع الإخشيد بنوع من الاستقلال مع حرصه على عدم قطع الخيط الذي يربطه بالخلافة العباسية.

علاقة الإخشيد بالحمدانيين:

ولم تنته المسألة الشامية بالنسبة للإخشيد بالصلح مع ابن رائق، إذ أن ابن رائق انسحب من الشام ليترك الحمدانيين- وهم القوة الكبيرة التي ظهرت في ذلك الدور في شمال الشام والجزيرة- يتطلعون إلى بسط سيطرتهم على بلاد الشام، ولم يكد الخليفة المتقي يعود أدراجه إلى بغداد، بعد أن انتهت مقابلته مع الإخشيد كما سبق أن مر بنا، حتى زحف سيف الدولة الحمداني على حلب وانتزاعها من حاكمها من قبل الإخشيد وهو يأنس المؤنسي، ثم اتبع سيف الدولة ذلك بالاستيلاء على دمشق، وكان أن أرسل الإخشيد إلى الخليفة المستكفي العباسي يشكو إليه، ولكن الخليفة كان أضعف من أن يتخذ قراراً، فاكتفى بأن طيب خاطر الإخشيد بإرسال بعض الخلع والهدايا.

ولم يبق أمام الإخشيد سوى استخدام القوة للدفاع عن حقوقه، فأرسل جيشاً بقيادة كافور إلى الشام، فالتقى بسيف الدولة عند الرملة وانتصر كافور في أول الأمر، وفر الحمدانيون إلى حمص فحماة، وعندئذ تبعهم كافور، ولكنهم أنزلوا به الهزيمة عند نهر العاصي، وكان أن خرج الإخشيد بنفسه إلى الشام، ودارت بينه وبين سيف الدين حروب في شمال الشام لم ترجح فيها كفة أحد الطرفين، حتى انتهى المر بالصلح سنة ٣٣٤هـ= ٩٤٥م، واتفق فيه على أن تكون حمص وحلب وما بين النهرين لسيف الدولة، وأن تكون بقية بلاد الشام جنوبي حمص للإخشيد. وارتبط الطرفان برباط المصاهرة تأكيداً لحسن العلاقة بينهما.

نهاية الإخشيد ومكانته في التاريخ :

وبعد أن عقد الإخشيد الصلح السابق مع سيف الدولة، عاد إلى دمشق حيث بقـــي بها إلى أن توفى سنة ٣٣٤هـــ= ٩٤٥م عن إحدى وستين سنة، حكم منها إحـــدى عشرة سنة وثلاثة أشهر، ثم دفن في القدس.

وقد أجمع المؤرخون على وصف الإخشيد بأنه كان رجـــلاً عظيمـــاً فـــي حياتـــه الخاصة والعامة؛ فوصفه المؤرخ أبو المحاسن بأنه كان " ملكـــاً شـــجاعاً مقدامـــاً حازماً متيقظاً حسن التدبير عارفاً بالحروب مكرما للجند شـــديد البطـــش ذا قـــوة مفرطة، لا يكاد أحد يجر قوسه. وله هيبة عظيمة في قلوب الرعية.

وكان متجملاً في مركبه وملبسه، وكان موكبه يضاهي موكب الخلافة، وبلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف مملوك، وكان عدة جيوشه أربعمائة ألف، وكان قوى التحـــرز على نفسه، وكانت مماليكه تحرسه بالنوبة عندما ينام كل يوم ألف مملوك...".

كافور وأبناء الإخشيد :

رأينا أن الإخشيد كان قد عقد قبل وفاته لابنـــه أونوجـــور، وأن الخليفـــة المتقـــي العباسي أقره على ذلك، ثم إن الإخشيد قبل سفره الأخير إلى دمشـــق، اســـتخلف على مصر ابنه أونوجور، كما استخلف له عمه الحسن بن طغج، وهكـــذا كـــانت الأمور ممهدة أمام أونوجور – عند وفاة والده– لكي يلي الحكم، وإذا كـــان هنـــاك اعتراض على أبي القاسم أونوجور بسبب صغر سنه – الذي لم يتجاوز عند وفـــاة والده الخامسة عشر عاماً– فإن هذه الصعوبة أمكن التغلب عليها بفضـــل ظـــهور رجل قوي أمين في بلاط محمد بن طغج الإخشيد، هو أبو المسك كافور.

وقد وصفت المراجع كافور هذا بأنه عبد أسود خصي قبيح الخلقة، معتل البـــدن، مثقوب الشفة السفلى، جلبه أحد تجار الرقيق إلى مصر ســـنة ٣١٠هـــ= ٩٢٢م، وعمره عشر سنوات، فاشتراه واحد بعد آخر حتى آل إلى ابن عباس الكاتب. وفي يوم من الأيام أرسل ابن عباس الكاتب عبده كافور بهدية إلى محمـــد بـــن طغـــج الإخشيد الذي كان عندئذ أحد رجال تكين أمير مصر؛ فأخذ محمد بن طغج كـــافور ورد الهدية. ولم يلبث كافور أن أخذ يرتقي عند سيده الجديد حتى أصبح موضـــع

ثقته وأخص أتباعه، بحيث يبدو أنه وصل في أواخر أيام الإخشيد إلى درجة من النفوذ لم يبلغها غيره من رجال الدولة.

وكان كافور صحبة الإخشيد في الشام عند وفاة الأخير سنة ٣٣٤هـ=٩٤٥م، فعمل كافور على ضبط الأمور في الشام، حتى حضر إلى مصر فتم الاحتفال بتولية أونوجور في الوقت الذي وصل كتاب من الخليفة العباسي المطيع لله يقر قيام أبي القاسم أونوجور على ولاية مصر والشام.

ولم يلبث أن قبض كافور بعد عودته إلى مصر سنة ٣٣٥هـ= ٩٤٦م، على زمام الأمور في البلاد، فخصص لاونوجور أربعمائة ألف دينار سنوياً، وأخذ كافور يتصرف في باقي أموال البلاد، ولما كانت الشكوى قد عمت من أبي بكر محمد صاحب الخراج فإن كافور بادر بعزله وولى مكانه في منصبه محمد بن علي الماذرائي.

على أن كافور لم يكد يتفرغ لإصلاح المشاكل الداخلية، حتى سمع أن سيف الدولة الحمداني اغتنم فرصة وفاة محمد بن طغج الإخشيد وقيام ابنه الصغير في الحكم، وزحف على دمشق واستولى عليها، وعندئذ لم يتقاعس كافور عن حماية أراضي الدولة، فخرج إلى الشام على رأس جيش كبير، وصحبته أونوجور وعمه الحسن بن طغج أخو الإخشيد. وعند الرملة دارت موقعة كبيرة بين الإخشيدين والحمدانيين، انهزم فيها سيف الدولة الحمداني وفر شمالاً إلى حلب ومنها إلى الرقة. وأخيراً تم الصلح بين الطرفين على أن يعود سيف الدولة الحمداني إلى ما كان يمتلكه قبل العدوان- أعني حلب وغيرها- وتبقى بقية بلاد الشام للإخشيديين.

ثم عاد كافور وأونوجور إلى مصر ليجدا أن غلبون - متولي الريف- انتهز فرصة خروج الجيوش إلى الشام لمحاربة سيف الدولة، ودخل في جموع من رجاله مصر وتغلب على حاميتها. ولما عاد أونوجور وكافور هرب غلبون من مصر، فتبعه الحسن بن طغج حتى ظفر به وقتله.

وهكذا استمر كافور يدبر أمور الدولة في أمانة وإخلاص حتى كانت سنة ٣٤٣هـ= ٩٥٤م، وعندئذ أحس أونوجور بأنه بلغ سن الرشد وأن الأوان ليدير بنفسه شئون الحكم، ويتخلص من قبضة كافور الثقيلة، ويذكر المؤرخون أن بعض

الحاقدين على كافور حرضوا أونوجور وقالوا له :" قد احتوى كافور على الأموال وانفرد بتدبير الجيوش، وأخذ أملاك أبيك وأنت معه مقهور...." إلى غير ذلك من العبارات التي استثارت أونوجور وجعلته يتباعد عن كافور مضمراً الخلاف والشقاق. ولكن أم أونوجور تدخلت خوفاً على ابنها من كافور، وانتهت الأزمة بأن " اصطلحا ودام الأمر على حاله"، حتى توفى أونوجور سنة ٣٤٩هـ = ٩٦٠م، فحمل إلى القدس حيث دفن إلى جوار أبيه، وكانت مدة ولايته على مصر أربعة عشرة سنة وعشرة أيام.

وعند وفاة أونوجور خلفه أخوه على بن الإخشيد، الملقب بأبي الحسن، وأقر الخليفة المطيع لله ذلك، وقد حكم أبو الحسن على بن الإخشيد مدة خمس سنين وشهرين، كان كافور طولها هو صاحب السلطة الفعلية في البلاد، وخصص له المرتب السنوي الذي خصصه لأخيه من قبل وهو أربعمائة ألف دينار. وعبر أبو المحاسن عن وضع أبي الحسن على بأنه " دام على هذا في الملك، له الاسم فقط والمعنى لكافور".

واتصفت هذه السنوات الخمس التي تولى الحكم فيها على بن الإخشيد بكثرة الاضطرابات وسوء الأوضاع الداخلية والخارجية. ففي الداخل انخفض النيل سنة ٣٥١هـ=٩٦٢م، فاشتد الغلاء وارتفعت الأسعار وساءت أحوال الناس، ومن جهة أخرى اشتدت هجمات الفاطميين من الغرب والنوبيين من الجنوب، كما اشتد عبث القرامطة ببلاد الشام. وزاد من سوء الأحوال في البلاد ما حدث من انشقاق بين كافور وعلى بن الإخشيد، ولكن كافور كان على درجة من القوة والنفوذ مكنته من أن يمنع الناس من الاجتماع بأبي الحسن على، فظل الأخير منزوياً حتى مرض وتوفى سنة ٣٥٥هـ= ٩٦٦م، وحمل إلى القدس ليدفن إلى جانب أبيه وأخيه.

وبعد وفاة على بن الإخشيد بقيت مصر بضعة أيام دون أمير. ويبدو أن كافور كان يتنازعه خلال تلك الأيام تياران أحدهما يدفعه إلى إقامة أحمد بن على بن الإخشيد في حكم مصر محل أبيه، والآخر يغريه بانتزاع الحكم لنفسه، وبعد فترة قصيرة من التفكير رجح كافور الرأي الثاني، لا سيما وأن أحمد بن على كان عندئذ طفلاً في التاسعة من عمره، وقد تلقب كافور بالإخشيدي احتفاظاً بالرباط الذي ربطه

ببيت محمد بن طغج الإخشيد؛ كما طلب من الخليفة المطيع لله العباسي أن يثبتــه في مصر، ففعل.

على أن كافور لم يظل في الحكم سوى سنتين وأربعة أشهر، واتصفت هذه المــدة بازدياد الخطر الفاطمي وتفاقمه، كما سنرى فيما بعد، ومع ذلك فإن حكمنا علــى مكانة كافور لا ينبغي أن يستمد من أعماله خلال هاتين السنتين، لأننا رأينــا أنــه كان الحاكم الفعلي للبلاد منذ وفاة سيده محمد بن طغج الإخشــيد، وطــوال هــذه السنوات التي حكم فيها كافور أثبت أنه سياسي ماهر فكان- كمــا وصفــه أبــو المحاسن- " خبيراً بالسياسة فطناً ذكياً جيد العقل داهية". ولا أدل علــى كياســته وطول باعه في السياسة من أنه أدرك صعوبة موقفه بين قوتين كبيرتين متعـاديتين هما الخلافة العباسية السنية في الشرق والخلافة الفاطمية الشــيعية فــي الغــرب، فأمسك بالعصا من الوسط لم يتورط في معاداة إحــدى القوتيــن" فكــان يــهادى المعز (الفاطمي) صاحب المغرب، ويظهر ميله إليه، وكذا يذعــن بالطاعــة لبنــي العباس، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء، وتم له الأمر"!!.

أما عن أخلاق كافور، فقد وصف بأنه "كان شجاعاً مقداماً جــواداً يفضــل علــى الفحول". وقد قصده الشعراء طمعاً في كرمه، وعلى رأسهم المتنبى صاحب الـدور الشهير – في المدح ثم الهجاء – مع كافور. وأحبه الناس لعدله وتقواه" فكان يـداوم الجلوس غدوه وعشية لقضاء حوائج الناس، وكان يتهجد ويمرغ وجهــه ســاجداً ويقول:" اللهم لا تسلط على مخلوقاً".

ومع أن كافور ترك في خزائنه عند وفاته ثروة ضخمة قدرت بنحو مليون دينــار من الجواهر والثياب والسلاح والأمتعة، إلا أنه كان كريماً في حياته، يحرص على إرسال المال والطعام والثياب مع ركب الحجاج كل عام لتوزع في الحجاز، وقــد وصف صاحب كنز الدرر ثراء كافور وكثرة مصروفه، فقال " بلغ مما كان يعمـل في مطبخ كافور لما قوى سلطانه، وكثرت أمواله في كل يوم مــن اللحــم ألفــان وسبعمائة رطل، وخمسمائة طائر دجاج، وألف طائر حمام، ومائــة طــائر أوز، وخمسون خروفاً رميساً، ومائة جدى سمين، وعشرون فرخاً ســمكاً، وخمســمائة

صحن حلوى في كل صحة عشرون رطلا، ومائتان وخمسون طبقا فاكية. وعشرة أفراد نقل وخمسمائة كوز فقاع كبير، ومائة قرابة سكر وليمون".

هذا هو أبو المسك كافور، العبد القبيح الخلقة الوضيع الأصل، الذي استطاع أن يستغل مواهبه ويشق طريقه حتى وصل إلى مكانة مرموقة بين زعماء عصره ورجالات زمنه، لذلك لا عجب إذا أفاض المؤرخون المعاصرون في الكلام عنه ونسجوا القصص الكثير حول شخصيته واعتبروه من " أعاجيب الدنيا وسيرته من أغرب السير".

العلاقات الخارجية :

رأينا في الصفحات السابقة أن الإخشيدين ربطتهم بالخلافة العباسية علاقات طيبة، ساعد عليها حرص الإخشيدين على إظهار ولائهم للخلافة بوصفها الأم التي تربطها بالولايات روابط الإخلاص والمصالح المشتركة. كذلك ساعد على هذه العلاقات الطيبة ضعف الخلفاء العباسيين وانشغالهم بتحرير أنفسهم في العاصمة من وطأة كبار الأمراء، ثم انصراف هؤلاء الأمراء إلى ما كان بينهم وبين الخلفاء من أحقاد ومنازعات لا تنتهي، مما صرفهم جميعاً عن شئون مصر وغير مصر من أطراف الدولة، وحسب الخلفاء العباسيين أن يدعى لهم على منابر الجوامع في مصر والشام؛ وحسب الأمراء الإخشيدين أن تعترف الخلافة العباسية بوضعهم في مصر والشام، حسبهم جميعاً ذلك ليرضى كل طرف عن الآخر ويسود حسن التفاهم العلاقات بين الطرفين.

هذا عن العلاقات بين الإخشيدين والخلافة العباسية، أما عن العلاقة بين الإخشيدين والحمدانيين، فقد رأينا كيف حرص الحمدانيون من أول الأمر على استغلال الموقف في المنطقة الممتدة بين الفرات والنيل لتحقيق مكاسب إقليمية لأنفسهم على حساب العباسيين والإخشيدين جميعاً. وقد أوغلت جيوش الحمدانيين في بلاد الشام أكثر من مرة، ونجحوا في انتزاع حلب نهائياً لأنفسهم، ولكنهم لم يفلحوا في الاحتفاظ بدمشق، رغم وصولهم إلى الرملة جنوباً، وبذلك اقتصر نفوذهم على شمال الشام في حين احتفظ الإخشيدين ببقية تلك البلاد بصفة غالبة، إلا أن يكون

خطراً عارضاً- كخطر القرامطة- الذين هددوا بلاد الشام أكثر من مرة في ذلـــك العصر.

فإذا أرجأنا قليلاً علاقة الإخشيدين بالفاطميين في المغـــرب، وجدنـــا الإخشـــيدين يحتكون بقوتين غير إسلاميتين - أي مسيحيتين- هما الدولة البيزنطية في الشمال، ومملكة النوبة المسيحية على حدود مصر الجنوبية.

أما عن الدولة البيزنطية : - أو دولة الروم في آسيا الصغرى- فكانت في ذلـــك الدور ترقب عن كثب ما يجري في جوف الدولة الإسلامية من انقســـام وتفكـــك، وتأمل أن يحل قريباً اليوم الذي تستطيع فيه أن تثأر لنفسها من المســـلمين الذيـــن انتزعوا من دولة الروم في القرن السابع للميلاد (الأول للهجرة) أثمن أجزائها فـــي الشرق الأدنى، وكانت بلاد الشام بالذات تمثل مكانة خاصة في قلوب الروم حتـــى عصر الحروب الصليبية، فلم ينفك شعور الحنين نحـــو تلـــك البـــلاد وضـــرورة استرداد بيت المقدس ذات الأهمية الدينية عند المسيحيين، لم ينفك هـــذا الشـــعور يراود قلب كل إمبراطور بيزنطي، ومع ذلك فإنه يبدو أن الدولة البيزنطيـــة فـــي النصف الأول من القرن الرابع الهجرى(العاشر للميلاد) كانت لا تقوى على القيام بهجوم كبير علا بلاد الشام، ولابد أن يكون الإمبراطور البيزنطي رومانوس الأول قد أحس بقوة محمد بن طغج الإخشيد، بدليل أنه راسله مباشرة - متجاهلاً الخليفـــة العباسي- مظهراً الود، طالباً تبادل الأسرى وتنظيم الفداء. ويقال أن الإخشيد أكـــوم رسل الإمبراطور وبعث بهداياه صحبتهم إلى الإمبراطور. وعند وفـــاة الإخشـــيد استمر كافور على سياسته تجاه الإمبراطورية البيزنطية، فأكرم رســـلها وأحســـن وفادتهم.

على أنه حدث في النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد (الرابـــع للـــهجرة) أن أخذت الدولة البيزنطية تزداد صحوة وإفاقة، وإلى جوارها القوى الإسلامية تـــزداد فرقة وانقساماً، الأمر الذي أغرى الإمبراطور البيزنطي رومانوس الثـــاني علـــى غزو الشام، وفرض السيادة البيزنطية على حلب سنة ٣٥١هـ=٩٦٢م، وكان ذلـك على عهد على بن الإخشيد . وعندما عجز سيف الدولة الحمداني عن صد الـــروم

استنجد بالإخشيدين، فخرجت الجيوش من دمشق لنجدة المسلمين، وعندئذ انسحب الروم إلى بلادهم، ولكن ما كاد الإمبراطور نقفور فوقاس يلي عرش الإمبراطورية سنة ٣٥٢هـ= ٩٦٣م، حتى بادر إلى مهاجمة شمال الشام وأنزل الهزيمة بسيف الدولة الحمداني " ولله الأمر".

وفي سنة ٣٥٧هـ=٩٦٦م، أغار الإمبراطور نقفور فوقاس على بلاد الشام وأخرب كثيراً من المدن وأوغل حتى طرابلس، ولكنه لم يستطع أن يستمر في تقدمه جنوباً في بلاد الشام وأن يحقق حلم الروم العظيم في الاستيلاء على بيت المقدس. وربما تخوف من المقاومة التي سوف يلقاها من كافور الإخشيدي، في الوقت الذي كان البلغار على حدود الدولة في البلقان يشكلون خطراً جسيماً يتطلب يقظة أباطرة القسطنطينية في ذلك الدور، وإذا كانت جيوش نقفور فوقاس قد استطاعت الاستيلاء على أنطاكية في العام التالي سنة ٣٥٨هـ= ٩٦٩م، ثم فرض سيطرة الروم على حلب في نفس العام، فإن ذلك جاء بعد وفاة كافور، أي في الوقت الذي كانت الدولة الإخشيدية نفسها تمر بدور الاحتضار. هذا عن العلاقة بين الإخشيدين والدولة البيزنطية؛

أما القوة المسيحية الأخرى التي احتكت بالدولة الإخشيدية فكانت مملكة النوبة المسيحية.

والمعروف أن العرب لم ينجحوا في فتح بلاد النوبة بعد الفتح العربي لمصر، ومن ثم ظلت بلاد النوبة محتفظة بوضعها على حدود مصر الجنوبية، تقوم فيها مملكة مسيحية، وإذا كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد عقد اتفاقية البقط الشهيرة مع النوبة– كما سبق أن مر بنا– فإن هذه الاتفاقية لم تنفذ بصفة دائمة منتظمة، وإنما كان ملوك النوبة ينتهزون عصور الذبول والضعف في التاريخ المصري، ليغيروا على حدود مصر الجنوبية، ويظفروا بما يطمعون فيه من غلال وغيرها. ومن جهة أخرى استمر كثير من حكام مصر ينظرون إلى بلاد النوبة على أنها سوق عام يستوردون منه الرقيق، حتى أن جيوش الطولونيين والإخشيديين ثم الفاطميين كانت تضم فرقاً كبيرة من الجند السودان.

وقد حدث سنة ٣٣٩هـ=٩٥١م، في عهد أونوجور بن الإخشيد أن أغار النوبيون على الواحة الخارجة، فدمروا وخربوا ونهبوا وقتلوا ثم عادوا راجعين إلى بلادهم. وبعد ذلك بخمس سنوات- أي سنة ٣٤٤هـ= ٩٥٦م- قام ملك النوبة بإغارة ضخمة على أسوان فقتل جميعاً من المسلمين ونهب القرى، وعندئذ أرسل كافور جيشاً برياً بقيادة محمد بن عبد الله الخازن، كما أنفذ عمارة بحرية في النيل، وحملة بحرية سارت في البحر الأحمر فنزلت على شواطئه جنوبي الحدود بين مصر والنوبة لتقطع خط الرجعة على النوبيين. وبذلك أمكن إنزال الهزيمة بالنوبيين سنة ٣٤٥هـ= ٩٥٧م، فولوا الأدبار، وظلت الجيوش الإخشيدية تطاردهم حتى قلعتهم إبريم، وسبى محمد بن عبد الله الخازن أعداداً كبيرة منهم أحضرهم صحبته إلى مصر.

غير أن هذه الهزيمة لم تضع حداً لتهديد النوبيين لحدود مصر الجنوبية.إذ حدث في عهد أبي الحسن على بن الإخشيد أن انتهز النوبيون فرصة القحط الذي تعرضت له مصر من ناحية، وإغارة القرامطة على الشام من ناحية ثانية، ثم تهديد الفاطميين من المغرب لمصر من ناحية ثالثة، وأغاروا على حدود مصر الجنوبية. ويروى أبو المحاسن ما حدث في تلك السنة فيقول:" وسار ملك النوبة إلى أسوان ووصل إلى أخميم وقتل ونهب وسبي وأحرق". ولا يستبعد بعض الباحثين أن تكون هذه الإغارات النوبية على حدود مصر الجنوبية في عهد الإخشيدين نتيجة لتحريض الفاطميين الذين أرادوا الإخشيدية وشغلها بالعمل في أكثر من جبهة.

نهاية الدولة الإخشيدية:

والواقع أن الخطر الكبير الذي عصف بالدولة الإخشيدية إنما جاء من المغرب، أي من ناحية الدولة الفاطمية بالمغرب. وسنتكلم عن نمو قوة الفاطميين ونجاحهم في غزو مصر فيما بعد، ولكن تكفي الإشارة الآن إلى أن نجاح الفاطميين في غزو مصر وامتلاكها لم يكن مرجعه قوة الفاطميين بقدر ما كان مرجعه ضعف الإخشيدين. ذلك أنه حدث بعد وفاة كافور الإخشيدى سنة ٣٥٧هـ= ٩٦٨م، أن

خلفه أبو الفوارس أحمد بن على بن محمد الإخشيد. وكان أبو الفوارس في الحادية عشر من عمره مما جعله ألعوبة في أيدي كبار رجال الدولة، وخاصة الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات.

ويقال أن الوزير أبا الفضل أساء السيرة وقبض على جماعة من رجال الدولة وصادرهم، ومنهم يعقوب بن كلس وهو يهودي اعتنق الإسلام، فاستطاع الفرار إلى المغرب حيث دعا الخليفة المعز الفاطمي لغزو مصر، وكان أن أرسل الخليفة المعز قائده جوهر لغزو مصر سنة ٣٥٨هـ=٩٦٩م، مما أدى إلى سقوط الدولة الإخشيدية على نحو ما سنرى في الصفحات القادمة.

الفصل الخامس

مصر في عصر الدولة الفاطمية

الشيعة ودعوتهم :

أطلق لفظ الشيعة في التاريخ على شيعة أهل البيت – بيت الرسول عليه الصلاة والسلام– ثم تحدد المقصود بهذا اللفظ فأصبح يعني فرعاً محدداً من آل البيت، وهو فرع على بن أبي طالب وأولاده من فاطمة الزهراء بنت الرسول(ﷺ). وهؤلاء هم الذين عرفوا أيضا باسم العلويين نسبة إلى على بن أبي طالب.

ويزعم الشيعة أن عليا بن أبي طالب – كرم الله وجهه– أحق الناس بأن يخلف الرسول(ﷺ) في حكم المسلمين، وذلك للمزايا والمبررات العدية التي كانت تؤهله فعلاً للخلافة. ولكن وفاة الرسول(ﷺ) دون أن يحدد خليفة يخلفه في حكم المسلمين، أدى إلى اختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه– لمنصب الخلافة، لما له هو الآخر من مميزات، أهمها أن النبي (ﷺ) أنابه عنه في الصلاة بالمسلمين عندما أعجزه مرض الموت عن النهوض بتلك المهمة.
ويذكر الشيعة أن علي بن أبي طالب لم يرض بذلك، وشايعه في موقفه كثيرون، مما أدى الى بذر البذور لانقسام المسلمين إلى سنيين وشيعيين.
بفضل سياسة أبي بكر وحزم عمر، ظلت هذه البذور مكبوتة لا تقوى على الانطلاق؛ ولكن عثمان (ﷺ) اختلف عن أبي بكر وعمر(ﷺ)، وأدت سياسته إلى نوع من القلق الذي تطور إلى الفتنة التي أودت بعثمان (ﷺ).

ولم يرض معاوية بن أبي سفيان عن اختيار على بن أبي طالب خليفة بعد مقتل عثمان، فظهر في الدولة حزبان كبيران، حزب عثمان وعلى رأسه قريبه معاوية بن أبي سفيان وهؤلاء هم بنو أمية، وحزب على بن أبي طالب رأس بني هاشم، الأعداء القدامى لبني أمية. وانتهى الصدام بين الحزبين في موقعة صفين بالتحكيم، ثم ظهور الخوارج الذين قتلوا علياً (ﷺ)– سنة ٤٠هـ=٦٦٠م.

ولا شك في أن تلك النهاية المؤلمة التي انتهت بها حياة على بن أبي طالب، ونجاح خصمه- عن طريق الخديعة والعنف- في الوصول إلى منصب الخلافة وتأسيس الدولة الأموية.. كل ذلك زاد من شعور العطف على أهل البيت. وإذا كان الحسن بن على قد تنازل عن حقه في الخلافة- حقنا لدماء المسلمين- فإن أخاه الحسين استجاب لدعوة أهل الكوفة، وشق راية العصيان على يزيد بن معاوية، حتى انتهى الأمر بكارثة كربلاء سنة ٦١هـ= ٦٨٠م، وهي الموقعة التي استشهد فيها الحسين (ﷺ). وجاءت هذه الكارثة في حد ذاتها عاملاً جديداً لمضاعفة شعور العطف على آل البيت، وازدياد إحساس شيعتهم بالندم والأسف لتقصيرهم في الدفاع عن حياة على والحسين جميعاً.

واتخذ الأمر شكل صراع - يظهر حيناً ويستتر أحياناً- بين بني أمية وبني هاشم. واشتد ساعد الدعوة السرية للعباسيين عندما نهض بها أبو مسلم الخراساني، حتى انتهى الأمر بسقوط الخلافة الأموية سنة ١٣٢هـ = ٧٥٠م، وقيام الخلافة العباسية، أول خلفاؤها أبو العباس السفاح.

ولم يرض العلويون عن تلك النتيجة الفاشلة التي آلت إليها جهودهم، فبدعوا صفحة جديدة من النضال لانتزاع حقهم في الخلافة من أقربائهم بني العباس.

ولما كان العلويون لا يقوون على المقاومة المسلحة في ذلك الدور، فقد اعتمدوا أساساً على الدعوة السرية، وإن لم يتركوا فرصة إلا اغتنموها للثورة المسلحة ضد العباسيين، حيناً في الحجاز وأحياناً في جنوب العراق، وفي هذه الثورات المسلحة سقط شهداء جدد من زعماء العلويين في باخمرا وفخ وغيرهما من المواقع. واتصفت الموقعة الأخيرة بالذات قرب مكة سنة ١٦٩هـ= ٧٨٥م، بالعنف، فقتل فيها الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على، وسقط معه بعض أهل بيته؛ فحزت هذه الكارثة في قلوب الشيعة حتى قيل " لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ".

وفي تلك الأثناء انقسم الشيعة الإمامية على أنفسهم- وذلك بعد موت الإمام كعفر الصادق سنة ١٤٨هـ= ٧٦٥م- إلى حزبين كبيرين، الأول أطلق عليه الإمامية

الإثنا عشرية وهم الذين قالوا بإمامة موسى الكاظم الابن الأصغر لجعفر الصادق وهو عندهم الإمام السابع، وربما نسبوا إلى موسى الكاظم فعرفوا باسم الإمامية الموسوية، والحزب الثاني هم الإمامية السبعية أوالإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل ابن جعفر الصادق وهو أكبر أبناء أبيه. ولما كان إسماعيل هذا قد توفى في حياة أبيه فإن أنصاره حولوا إمامته إلى ابنه محمد، وهو عندهم الإمام السابع.

نجاح الدعوة الشيعية في المغرب:

على الرغم من قسوة العباسيين في مطاردة العلويين وكبت أصواتهم، إلا أن اثنين من زعماء العلويين- هما يحيى بن عبد الله وأخوه إدريس بن عبد الله- استطاعا النجاة من موقعة فخ؛ ومن ثم فقد سببا أخطاراً لم تنقطع للدولة العباسية. ولا يعنينا كثيراً في دراستنا هذه أمر يحيى الذي ثار في بلاد الديلم على عهد الخليفة هارون الرشيد؛ ؟لأنه لم يلبث أن اصطلح مع الرشيد ثم مات مسموماً سنة ١٧٦هـ= ٧٩٢م، وإنما يعنينا إدريس بن عبد الله الذي فر إلى بلاد المغرب في شمال إفريقية حيث أخذ يستثير الشعور ضد العباسيين، حتى إذا ما دس له السم سنة ١٧٢هـ= ٧٩٣م، خلفه ابنه المسمى إدريس أيضا، وبذلك قامت دولة الأدارسة، وهي أول دولة يقيمها العلويون.

ولم يقنع الشيعة بذلك، بل لجأ أئمة الإسماعيلية إلى نشر دعوتهم سراً خوفاً من انتقام الخلفاء العباسيين. ولما كانت هذه الدعوة مفروضاً فيها أن تمتد إلى مختلف أطراف العالم الإسلامي، فقد وجدوا أنه لابد من مركز متوسط من ناحية الموقع الجغرافي، يسهل منه بث الدعوة في المشرق والمغرب جميعاً. وكان هذا المركز هو مدينة سلمية من أعمال حماه ببلاد الشام، ومنها انطلق الدعاة إلى مختلف البلاد.

ولما أخذ الخلفاء العباسيون يضيقون الخناق على جهود الشيعة بوجه عام، أدرك الإسماعيلية صعوبة إقامة دولة لهم بالشام، لقربها من مركز الخلافة العباسية في العراق، ورأوا أن شمال إفريقية أكثر أمناً لبعدها عن بغداد، هذا فضلاً عن الأحوال السياسية في شمال إفريقية وحنق البربر واستعدادهم لاعتناق المذهب

الشيعي؛ مما جعل شمال إفريقية أرضاً طيبة صالحة لنشاط دعاة الإسماعيلية. وعلى رأس هؤلاء الدعاة يأتي اسم أبي عبد الله الشيعي الذي دخل بلاد المغرب سنة ١٤٣هـ=٧٦٠م.

أما أبو عبد الله الشيعي هذا فأصله من صنعاء باليمن، واسمه الحسن بن أحمد، وكان من دعاة الإثنا عشرية أولاً ثم اعتنق المذهب الإسماعيلي وصار من كبار دعائمه، حتى وقع الاختيار عليه للقيام بالدعوة في بلاد المغرب. وهناك في المغرب رحبت به قبائل كتامة، وأقبل إليه البربر يناصرونه ويؤيدون دعوته لمذهب الإسماعيلية. ولم يستطع الأغالبة الذين حظوا بعطف الخلافة العباسية وتأييدها – القضاء على نفوذ أبي عبد الله الشيعي، فتمكن بفضل أنصاره من التغلب على الجيوش التي أرسلها ضده إبراهيم الأغلبي. ولم تلبث المدن والبلاد الواقعة غربي القيروان أن وقعت تحت سيطرة أبي عبد الله الشيعي في أواخر القرن الثالث للهجرة.

وساعد على استقرار نفوذه في تلك البلاد حسن سياسته وبعد نظره وتقربه إلى الناس بنشر العدل ومنع الظلم.

قيام الدولة الفاطمية في المغرب :

ولما اطمأن أبو عبد الله الشيعي إلى نجاح الدعوة في شمال إفريقية، واستقرار الأمور، واستعداد الناس لتلقي الإمام، أرسل إلى الإمام عبيد الله المهدي الذي كان مقيماً في سلمية بالشام يدعوه للحضور إلى إفريقية. وعبيد الله المهدي هذا هو أول الخلفاء الفاطميين في المغرب، واسمه سعيد بن أحمد بن إسماعيل بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأحياناً تنسب إليه الدولة الفاطمية فتعرف بالعبيدية، وتعرف سلالته بالعبيدين. ولا داعي هنا للدخول في تفصيلات عن النقاش الذي دار في التاريخ حول صحة نسب الفاطميين إلى على بن أبي طالب وفاطمة الزهراء رضي الله عنهما، ويكفي أن نشير إلى أن جمهرة المعتدلين من الباحثين أثبتوا صحة هذا النسب.

ولم يكن الطريق إلى المغرب سهلاً أمام عبيد الله المهدى، إذ علم الخليفة العباسي المقتدي (٢٩٥-٣٢٠هـ= ٩٠٧-٩٣٢م) بأمر خروجه من سلمية إلى الغرب، فأصدر أوامر مشدده بالقبض عليه، وهكذا كان على عبيد الله المهدي أن يتخفى في زى التجار حيناً، ويبذل الرشاوي والأموال أحياناً، ليخترق بلاداً تدين بالولاء والتبعية للخلافة العباسية، مثل الشام ومصر وتونس.

ومع ذلك فقد وقع في أسر أمير سلجماسة، حتى استطاع الخلاص من الأسر سنة ٢٩٦هـ= ٩٠٨م. وأخيراً وصل عبيد الله المهدى القيروان فاستقبله الناس استقبالاً حاراً وبايعوه بالخلافة، فتلقب بالمهدى أمير المؤمنين، وبذلك قامت الدولة الفاطمية في شمال إفريقية سنة ٢٩٧هـ=٩٠٩م.

وقد اعتاد الكتاب والمؤرخون أن يربطوا بين مصر والدولة الفاطمية على أساس أن هذه الدولة شهدت أحلى أيامها وأمجد عصور تاريخها في مصر بالذات، ولكن هذه الحقيقة ينبغي ألا تنسينا واقع التاريخ، وهو أن الدولة الفاطمية ولدت وشبت بالمغرب، حتى انتقل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر سنة ٣٦٢هـ= ٩٧٢م، وعلى هذا الأساس فإن تاريخ الدولة الفاطمية ينقسم في حقيقة أمره إلى دورين كبيرين: الدور المغربي ويمتد من سنة ٢٩٧هـ=٩٠٩م حتى سنة ٣٦٢هـ= ٩٧٢م، والدور المصري ويمتد من هذه السنة الأخيرة حتى سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ=١١٧١م.

وفي الدور المغربي أو الإفريقي للدولة الفاطمية تعاقب في منصب الخلافة أربعة خلفاء هم : عبيد الله المهدي (٢٩٧-٣٢٢هـ= ٩٠٩-٩٣٤م).

القائم (٣٢٢-٣٣٤هـ= ٩٣٤-٩٤٥).

المنصور (٣٣٤-٣٤١هـ= ٩٤٥-٩٥٢م).

المعز من سنة ٣٤١هـ= ٩٥٢م، حتى انتقاله إلى مصر سنة ٣٦٢هـ=٩٧٢م، وقد شهد هذا الدور نمو الدولة الفاطمية واتساعها في شمال إفريقية، فقضى الفاطميون على دولة الأغالبة ودولة الأدارسة، واصطدموا بالخلافة الأموية بالأندلس وحدوا من نفوذها في شمال إفريقية، وبسطوا سيطرتهم على صقلية، وصارت أساطيلهم هي الغالبة على مياه البحر المتوسط.

على أنه إذا كان الفاطميون في ذلك الدور قد نجحوا في مد نفوذهم على شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسي غرباً، وفي التغلب على المشاكل والثورات الداخلية والأخطار الخارجية التي واجهتهم، فإن ذلك لم يلههم عن مصر بالذات؛ وبعبارة أخرى فإن شئون المغرب لم تلههم عن المشرق. والحق أن الخليفة عبيد الله الفاطمي ما كاد يتولى أمر الخلافة في المغرب، حتى أخذ يتطلع إلى مصر، الأمر الذي جعل العلاقة بين الفاطميين في المغرب وحكام مصر تتطور، حتى انتهى الأمر بسقوط الدولة الإخشيدية ونجاح الفاطميين في امتلاك مصر ثم اتخاذها قاعدة لدولتهم.

العلاقة بين الفاطميين والإخشيدين:

الواقع أن ثمة حقيقة ينبغي أن نشير إليها، هي أن الشيعة عندما أعلنوا ثورتهم ضد الأمويين ثم العباسيين لم يكن هدفهم مجرد إقامة دولة علوية فحسب، بل كان هدفهم الكبير هو الوصول إلى حقهم في خلافة الرسول عليه الصلاة والسلام، وحكم المسلمين جميعاً بوصفهم أصحاب الحق الشرعي الوحيد في الخلافة. وبعبارة أخرى فإن العلويين عندما تحركوا ضد بني أمية لم يستهدفوا إقامة دولة تحكم شطراً من المسلمين إلى جانب دولة بني أمية، وعندما تحركوا ضد العباسيين لم يقصدوا مقاسمة بني العباس حكم المسلمين، وإنما كان هدفهم الأساسي هو القضاء على خلافة بني أمية بوصفها غير شرعية والقضاء على خلافة بني العباس بوصفهم مغتصبين للخلافة من أصحابها الشرعيين، وإقامة خلافة علوية تكون هي الخلافة الوحيدة التي يدين لها بالطاعة المسلمون جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها. ولئن كانت الظروف قد فرضت على العلويين الابتعاد عن قلب العالم الإسلامي، وبث دعوتهم في شمال إفريقية خوفاً على أنفسهم من بطش الخلفاء العباسيين، بعد المصائب العديدة التي أخذت تترى على رؤوس أئمة الشيعة الأوائل، فإن الموقف تبدل بعد أن نجح العلويون في تثبيت أقدامهم في شمال إفريقية، وإقامة دولة كبيرة تمتلك من الجيوش والأساطيل ما جعلهم قادرين على تحقيق أهدافهم الكبرى البعيدة. ولا أقل بعد أن نجح العلويون في بسط سيطرتهم

على المغرب الإفريقي من أن يتطلعوا إلى المشرق الإسلامي وبخاصة مصر والشام والحجاز. ففي المشرق كان مولد الإسلام، ومن المشرق انبعثت عظمته. هذا إلى أن سيطرة الفاطميين على مصر والشام والحجاز لن تضفي عليهم أهمية خاصة في نظر المسلمين فحسب؛ بل ربما مكنتهم هذه السيطرة من ضرب العباسيين في المشرق مثلما تمكنوا من ضرب الأمويين في الأندلس والمغرب، وبذلك يتم الثأر لما حل بالعلويين في سابق الأزمنة على أيدي الأمويين والعباسيين جميعاً.

وقد سبق أن رأينا كيف بادر عبيد الله المهدي عقب تأسيس خلافته في القيروان **بإرسال حملة سنة ٣٠١هـ=٩١٣م** لغزو مصر بقيادة حباسة بن يوسف، أحد زعماء كتامة. وكان أن نجحت هذه الحملة في الاستيلاء على برقة ثم الإسكندرية، وأخذت توغل في الوجه البحري، الأمر الذي أفزع الخليفة المقتدر العباسي، فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة مؤنس الخادم، أنزل الهزيمة بالجيش الفاطمي عند مشتول قرب الجيزة، فعاد حباسة ابن يوسف مدحوراً إلى المغرب حيث قتله الخليفة الفاطمي.

وكانت مصر في ذلك الدور تمر بمرحلة انتقال بين الدولتين الطولونية والإخشيدية، وهي المرحلة التي عادت فيها مصر تحت الإشراف المباشر للخلافة العباسية ببغداد. ويبدو أن عدم استقرار الأوضاع في مصر وجشع الولاة؛ وسوء الأحوال الاقتصادية نتيجة لتبذير خمارويه، كل ذلك جعل بعض المصريين يتطلعون إلى الخلافة الفاطمية في المغرب. وبعبارة أخرى فقد كان للفاطمين في مصر أنصار يؤيدونهم، وعلى استعداد لتقديم كل معونة تمكنهم من غزو البلاد، ويشير الكندي في صراحة إلى أن جماعة من المصريين أرسلوا إلى الفاطميين في المغرب يستحثونهم على غزو مصر. ثم يؤيد صحة هذا الرأي ما ذكرته المراجع من أن ذكا الرومي والى مصر من قبل الخلافة العباسية (٣٠٣-٣٠٧هـ= ٩١٥-٩١٩م) بادر بالقيام بحركة تطهير ضد أشياع الفاطميين، فقبض على كثير منهم، وقطع أيدى بعضهم وأرجلهم، وسجن البعض الآخر.

ومع ذلك لم تتوقف أطماع الفاطميين في مصر، **فأرسل المهدى جيشـــا لغزوهـــا سنة ٣٠٧هـــ=٩٩٩م**، بقيادة ابنه أبي القاسم، ونجح الفاطميون في الاستيلاء على الإسكندرية وشقوا طريقهم إلى الجيزة حيث دارت معركة بينهم وبيـــن خصومـــهم قتل فيها من الفريقين بضعة آلاف.

وعندئذ بادر الخليفة العباسي بإرسال مؤنس الخادم مرة أخرى لطـــرد الفـــاطميين الذين كانت جيوشهم قد بلغت الفيوم، فنجح مؤنس فـــي مهمتـــه، ومنـــي الجيـــش الفاطمي بخسائر فادحة.

أما الحملة الفاطمية الثالثة على مصر فقد استمرت نحـــوا مـــن ثـــلاث ســـنوات (٣٢١-٣٢٤هـــ= ٩٣٣-٩٣٦م)، تخللها صلح سنة ٣٢٢هـــ=٩٣٤م بين حبشـــي ابن أحمد- قائد الجيش الفاطمي الذي رابط عند الجيزة- وخصومه، ولكـــن هـــذا الصلح لم ينفذ ولم يدم طويلا، فاستمر المعارك دائرة بين الطرفيـــن، وفـــي ذلـــك الدور على وجه التحديد ولى الإخشيد إمرة مصر، فأنزل الهزيمة بالجند المغاربـــة، الذين استنجدوا بالخليفة القائم بأمر الله الفاطمي، فأمدهم بجيش كبـــير نجـــح فـــي الاستيلاء على الإسكندرية سنة ٣٢٤هـــ=٩٣٦م، ولكن الإخشيد أرسل جيشا كبـيرا بقيادة أخيه الحسن بن طغج وقائده صالح بن نافع، فانهزم المغاربة في البحيرة سنة ٣٢٤هـــ=٩٣٦م، وولوا الأدبار صوب برقة.

ويبدو أن الفاطميين في شمال إفريقية شغلوا بعد ذلك بمشاغلهم الداخلية فترة مـــن الزمن، فلم يقوموا بمحاولة لفتح مصر في بقية عهد القائم وطوال عهد المنصـــور الفاطمي(٣٣٤-٣٤١هـــ= ٩٤٥-٩٥٢م) ولكن عدم قيام الفاطميين بمحاولة حربيـــة للاستيلاء على مصر في تلك الفترة ليس معناه أنهم صرفوا النظر كلية عنـــها، إذ ظلوا دائما ينظرون بعين إلى شئون المغرب لتثبيت أقدامهم، ويتطلعـــون بـــالعين الأخرى صوب الشرق، وإذا كانوا قد اضطروا فترة قصيرة إلى وقـــف جـــهودهم الحربية ضد مصر فإنهم حرصوا في تلك الفترة ذاتها علـــى اســـتخدام أســـاليب سياسية في تحقيق أغراضهم.

ويذكر ابن سعيد أن الخليفة القائم الفاطمي (٣٢٢-٣٣٤هـــ= ٩٣٤-٩٤٥م) كتـــب بيده رسالة خاصة، وأرسلها مع رسول إلى محمد الإخشيد، يستميله ويســـترضيه،

ويحاول اكتسابه إلى جانبه" فقد شهد الله على ميلي إليك وإيثاري لك، ورغبتي في مشاطرتك ما حوته يميني واحتوى عليه ملكي.......".

ولم يشأ الإخشيد أن يقطع برأي، ويتعجل في الرد على الخليفة الفاطمي بالقبول أو الرفض؛ لاسيما وأن الإخشيد كانت له أطماعه الخاصة، وأراد أن يعمل لحسابه الخاص لا لحساب الخليفة العباسي في المشرق أو الفاطمي في المغرب.

ويبدو أن الإخشيد عندما ساءت العلاقة بينه وبين الخلافة العباسية بسبب أزمة ابن رائق – كما مر بنا– فكر في قطع صلته بالخلافة العباسية، على أن يدعو للخليفة الفاطمي، ولكن بعض مستشاريه نصحوه بعدم التعجل في تنفيذ هذه الفكرة، وقالوا له:" دع هذا إلى وقت آخر !".

ولم تلبث أن عادت المياه إلى مجاريها بين محمد بن طغج الإخشيد من ناحية والخلافة العباسية من ناحية أخرى، وبعد وفاة الإخشيد استأنف كافور سياسة المحافظة على العلاقة الطيبة مع الخلافة العباسية. ويبدو أن كافور كان أكثر إحساساً بالخطر الفاطمي على مصر، وخاصة وسط المشاكل الداخلية والخارجية العديدة التي واجهته، فحرص على مسالمة الفاطميين واسترضائهم، مما جعل سياسته الخارجية تتصف بقدر من الدهاء والعمل على حفظ التوازن بين النفوذ العباسي والنفوذ الفاطمي.

وللمؤرخ أبي المحاسن عبارة شهيرة يصف فيها كافور بأنه كان " خبيراً بالسياسة، فطناً ذكياً جيد العقل، داهية".

كان يهادي المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه؛ وكذا يذعن بالطاعة لبني العباس، ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء، ويتم له الأمر!!".

ولكن كافور لم يكن وحده من أهل السياسة، وإنما كان الفاطميون لا يقلون عنه ذكاء ودهاء، فأرسلوا دعاتهم سراً إلى مصر لنشر الدعوة لهم، وأخذ البيعة من زعماء البلاد ورؤساء الجند للخليفة المعز لدين الله الفاطمي.

وعندما أدرك الخليفة المعز أن الكمثرى نضجت ولا تحتاج سوى إلى جهد يسير لتسقط غنيمة باردة، انتهز فرصة القحط والغلاء الذي ساد مصر في زمن كافور، وخرج المعز بنفسه إلى حدود مصر الغربية وأوغل فيها حتى بلغ الواحات، ولكن

كافور أرسل جيشاً رده على أعقابه، هذا وإن كان كافور قد تلقى بالقبول الدعاة الفاطميين الذين قدموا عليه من قبل المعز، ووعد كثير من كبار رجال الدول الإخشيديين بتقديم الولاء للخليفة الفاطمي.

نجاح الفاطميين في فتح مصر :

وأخيراً توفى كافور سنة ٣٥٧هـ=٩٦٨م، ومصر تمر بدور من أحلك أيام تاريخها، بسبب انخفاض النيل واستمرار القحط واشتداد الغلاء وكثرة الموتى، الذين عجز الناس عن تكفينهم حتى اضطروا إلى إلقاء جثثهم في النيل.

ولم يستطع الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات أن يعالج المتاعب الداخلية أو يواجه الأخطار الخارجية التي هددت مصر من جانب القرامطة في الشام والنوبيين في الجنوب، فغرقت مصر في بحر لجي من الفوضى والاضطراب.

وفي ذلك الدور بالذات شاءت الظروف أن تهدأ الأمور للخليفة المعز لدين الله الفاطمي في المغرب، فخضعت له البلاد ودانت له العباد. وهكذا أحكم التاريخ خطته وفرض حكمه، فكان على المعز أن يستفيد من إمكانياته، وأن يستغل الظروف القاسية التي تمر بها مصر، ليحقق الحلم الكبير.

ويقال أن المعز أخذ يستعد منذ سنة ٣٥٦هـ= ٩٦٧م ليضرب ضربته الكبرى، فقام بإنشاء الطرق وحفر الآبار وإقامة المنازل والمحطات للاستراحة، على طول الطريق من برقة حتى مشارف الإسكندرية. وفي الوقت نفسه نشطت أبواق الدعاية للفاطميين في وادي النيل، وأرسل الخليفة المعز إلى دعاته بمصر أعلاماً ورايات، أمرهم أن يوزعوها على من يبايع الخليفة الفاطمي من جند مصر، ينشروها على الملأ وقت دخول الجيش الفاطمي أرض الكنانة.

ويبدو أن أهل مصر لم يكونوا في حاجة إلى كثير من الدعاية، بعد أن استبد بهم الضيق وصاروا يتطلعون إلى تغيير – أي تغيير – عسى أن يكون فيه صلاح أحوالهم.

وتشير جميع الشواهد التاريخية إلى أن استعداد الخليفة المعز كان ضخماً في تلك المرة، فأتفق على الحملة أربعة وعشرين مليون دينار، وعهد بقيادة تلك الحملة إلى

قائده جوهر الصقلي، وخرج الخليفة بنفسه لتوديع جيشه في شهر ربيع الآخر سنة ٣٥٨هـ= فبراير ٩٦٩م، فقبل جوهر يد الخليفة وسجد على الأرض ليقبل حافر فرسه، ثم سار في طريقه صوب الإسكندرية.

وفي الوقت الذي زحف الجيش الفاطمي براً، أبحرت في البحر بعض القطع البحرية من الأسطول الفاطمي بحذاء الجيش لتساعده وتحمي مسيرته من ناحية البحر. وهكذا تقدمت القوات الفاطمية في نظام محكم يدعو إلى الإعجاب، حتى وصلت الإسكندرية واحتلتها فعلاً دون مقاومة.

وأخيراً أفاق الوزير جعفر بن الفرات، وأدرك أنه لا حول ولا قوة أمام الغزو الجديد؛ وأن الخلافة العباسية أضعف وأبعد من أن تنجده، فجمع وجوه القوم وأهل الرأي للمشورة، واستقر رأى الجميع على مفاوضة جوهر الصقلي حول شروط التسليم والصلح، وظهر بعد نظرهم عندما اختاروا على رأس وفد المفاوضة أحد الأشراف من سلالة الحسين بن على(ﷺ) هو الشريف أبو جعفر مسلم بن عبيد الله.

والواقع إن الأمر لم يكن في حاجة إلى مفاوضات طويلة، لأن العملية كانت عملية استسلام أكثر منها أي شيء آخر، فالتقى الطرفان في تروجه – بالبحيرة– ومنح جوهر الصقلى أهل مصر أماناً وعهداً بأن يترك لهم على اختلاف أديانهم ومذاهبهم حرية العقيدة الدينية، وأن يصلح أحوال البلاد، ويحمى أرواح العباد، وينشر العدل ويمنع الظلم، " ولكم على الوفاء بما التزمته، وأعطيتكم إياه، عهد الله، وغليظ ميثاقه وذمته، وذمة أنبيائه ورسله، وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله، صلوات الله عليه".

وعندما عاد الوفد بهذا الأمان إلى الوزير ابن الفرات بالفسطاط، تجمع الناس للوقوف على نتيجة المفاوضات، فقرأ الوزير العهد المشار إليه على عامة الناس، وكما يحدث عادة في التاريخ في مثل هذه المواقف لابد وأن يرتفع صوت للمعارضة، فظهر انقسام بين الناس والجند، ما بين مؤيد للفاطميين يرى فتح

أبواب البلاد لهم، ومعارض يرى ضرورة مقاومة جوهر الصقلى وجنوده والعمل لطردهم من البلاد " فما بيننا وبين جوهر إلا السيف".

ولم يلبث أن وصل جوهر على رأس جيشه إلى الجيزة، ونجح في عبور النيل، رغم المقاومة الضعيفة التي صادفها، ولم يقو الجند الإخشيدية على الصمود، فقتل بعضهم، وفر البعض الآخر حاملين ما استطاعوا حمله من الأموال والمتاع؛ وعندئذ لم يجد الأهالي بداً من الاستعطاف وطلب الأمان، فهرعوا مرة أخرى إلى الشريف أبي جعفر، وطلبوا منه التوسط عند القائد جوهر لإعادة الأمان، وكان أن استجاب جوهر مرة أخرى لطلب الناس، وأمر جنده بالكف عن القتل والسلب ومنع الاعتداء على أرواح ا؟لأهالي وممتلكاتهم.

وهكذا تم الفتح الفاطمي لمصر سنة ٣٥٨هـ= ٩٦٩م، وهدأت الأمور بسرعة في البلاد، بحيث لم يتعد الأمر إحلال حاكم محل آخر، وأسرع الوزير جعفر بن الفرات والأشراف والقضاة والتجار والأعيان إلى جوهر الصقلي يهنئونه بسلامة الوصول ونجاح الفتح!!

ولا شك في أن نجاح الفاطميين في فتح مصر كان نقطة تحول خطيرة بالنسبة لتاريخ مصر والخلافة العباسية، والشرق الأدنى عامة، أما بالنسبة للدولة الفاطمية فيعتبر فتح مصر بمثابة مولد جديد لهذه الدولة؛ ففي مصر بالذات شهدت هذه الدولة مجدها وعظمتها وأحلى أيامها. لذلك لا عجب إذا فرح الخليفة المعز الفاطمي فرحاً منقطع النظير عندما بلغته أخبار نجاح الفتح، وأخذ يستعد لنقل بلاطه إلى مصر، وأقبل عليه الشعراء يهنئونه بذلك الفتح الكبير، وعلى رأسهم شاعر بلاطه محمد بن هانيء الأندلسي الذي أنشد قصيدة مطلعها:

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبني العباس قد قضي الأمر

تأسيس القاهرة :

وربما بدا غريباً أن أول ما فكر فيه جوهر الصقلى ليلة دخوله الفسطاط ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ=٩٦٩م هو إنشاء مدينة جديدة تكون حاضرة للدولة الفاطمية، ولكن فكرة بناء عاصمة جديدة ليست فكرة غريبة في حد ذاتها، إذ يلمس الدارس

للتاريخ الإسلامي حرص الولاة والقادة في مختلف الولايات الإسلامية على إنشاء المدن لتكون مراكز للحكم الجديد، وقواعد للجند، وفي مصر بالذات رأينا كيف أنشأ عمرو بن العاص مدينة الفسطاط عقب فتحه مصر سنة ٢٠هـ=٦٤١م، وهي المدينة التي ظلت حاضرة للبلاد طوال عصر الخلفاء الراشدين ثم الأمويين. فلما قامت الدولة العباسية أسرع أبو عون عبد الملك بن يزيد – والى مصر من قبل الخليفة أبي العباس السفاح– إلى إنشاء حاضرة جديدة هي مدينة العسكر سنة ١٣٣هـ= ٧٥١م، وظلت العساكر حاضرة مصر في العصر العباسي حتى بزغ نجم أحمد بن طولون فأنشأ مدينة القطائع سنة ٢٥٦هـ= ٨٧٠م، وهي المدينة التي ظلت مركزاً للحكم طوال عصر الطولونيين والإخشيديين. وهكذا حتى فتح جوهر الصقلي مصر فكان منطقياً أن يفكر في إنشاء حاضرة جديدة للدولة الفاطمية. ولا يخفى علينا أن حاجة الدولة الفاطمية إلى إنشاء حاضرة لها في مصر فاقت حاجة حكام مصر السابقين في العصر الإسلامي، لأن الدولة الفاطمية أتت بمذهب جديد حرصت على نشره وإرساء قواعده في البلاد، فكان لابد لهذه الدعوة من مركز بكر يقام على أرض نظيفة في وادي النيل، حتى بنيت المذهب الجديد فيه، ويحس دعاته بين جوانبه أنهم أحرار في بث دعوتهم دون أن يخشوا صداماً مفاجئاً أو ثورة مضادة من أتباع المذهب القديم السائد في البلاد، وهو المذهب السني.

ويقال إن جوهر الصقلي سمى الحاضرة الجديدة التي أنشأها باسم المنصورية، نسبة إلى الخليفة المنصور الفاطمي والد الخليفة المعز لدين الله، وظلت تعرف بهذا الاسم حتى قدم الخليفة المعز إلى مصر، فغير اسمها وجعله القاهرة المعزية.

ومرة أخرى يتعدد القصص وتتباين الروايات حول اشتقاق اسم القاهرة، فابن دقماق يقول أنها سميت كذلك لأنه تم وضع أساسها عند طلوع كوكب القاهر.

والمقريزي وأبو المحاسن يرويان أن جوهر الصقلي أحضر المنجمين وأخبرهم أنه يريد بناء حاضرة لسادته الفاطميين، وأمرهم باختيار طالع سعيد يضمن خلود الملك في ذريتهم، فاختار المنجمون طالعاً لوضع الأساس وطالعاً لوضع السور. وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمين حبل به أجراس، وقالوا للعمال: إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة، وكان أن وقف

غراب على حبل من تلك الحبال فتحركت الأجراس ودقت، وظن العمال أن المنجمين قد حركوها فألقوا الطين والحجارة وبدأوا العمل. وكان كوكب " القاهر" في الطالع فسميت المدينة القاهرة، وقيل أن المريخ كان في الطالع – وهو قاهر الفلك– فسميت القاهرة.

ومهما يكن من أمر، فإنه يبدو أن قصة الغراب هذه غير واقعية، وهي من نوع القصص المتواترة في مصادر تاريخ العصور الوسطى، والتي كانت تصادف هوى في نفوس المعاصرين وتتفق مع عقليتهم، ونستند في رأينا هذا إلى أن المسعودي روى نفس قصة الغراب عن الإسكندر الأكبر عندما شرع في تأسيس مدينة الإسكندرية، مما يثبت أن المتأخرين نقلوها ولصقوها بجوهر وبناء القاهرة، وربما كان أقرب إلى الصواب أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي اختار اسم القاهرة لحاضرته الجديدة تيمناً بهذا الاسم لما فيه من إشارة إلى أن حاضرته ستقهر الحواضر السابقة وإلى أن دولته ستكون هي الغالبة.

أما عن موقع القاهرة فهي تقع شمالي الفسطاط، وكانت وقت إنشائها محدودة المساحة، تمتد من جامع الحاكم حتى باب زويلة، وتحدها من الشرق جبال المقطم ومن الغرب الخليج الكبير ومن الجنوب مدينة القطائع، وتشغل قطعة من الأرض مساحتها٣٤٠ فداناً تقريباً، على شكل مربع طول ضلعه حوالي ١٢٠٠متر، وأحاط بالقاهرة سور من اللبن بقيت آثاره حتى أيام المقريزي، وتخلل هذا السور ثمانية أبواب، في كل جهة من جهاته الأربع بابان، هي من ناحية الشمال باب الفتوح وباب النصر، ومن ناحية الجنوب باب زويلة وباب الفرج، ومن ناحية الشرق باب القراطين – الذي سمى المحروق في بداية عصر المماليك– وباب البرقية، ومن ناحية الغرب باب سعادة وباب القنطرة:

هذه هي النواة التي وضعها جوهر الصقلي والتي نمت منها القاهرة الكبرى ذات الاسم الخالد في التاريخ. ومن الوصف السابق يتضح أن النواة التي وضعها جوهر كانت صغيرة، تشمل أحياء الأزهر والجمالية وباب الشعرية والموسكي والغورية وباب الخلق. ومعنى هذا أن القاهرة المعزية كانت بعيدة نسبياً عن النيل، ولا ساحل لها؛ الأمر الذي جعل المعز – عندما قدم إلى مصر في أواخر سنة

٣٦٢هـ=٩٧٣م، لا يعجبه الموقع الذي اختاره جوهر لحاضرته الجديدة، فقال له: يا جوهر ! فاتتك عمارتها هاهنا!"، وأشار إلى المقس على النيل.

وكان من الطبيعي أن يستعد جوهر الصقلي لاستقبال سيده الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، فبادر بإنشاء قصر كبير لهذا الغرض، هو الذي أطلق عليه اسم القصر الشرقي تمييزاً له عن القصر الغربي الذي شيده الخليفة العزيز بالله الفاطمي فيما بعد. وقيل في تسميته أنه سمى بالشرقي لموقعه في الطرف الشرقي للمدينة التي اختطها جوهر، إذ كان مجاوراً للسور الشرقي. وموقع هذا القصر اليوم المكان الذي يحتله مسجد الحسين وخان الخليلي.

وجعل جوهر للقصر الشرقي الكبير تسعة أبواب، سميت بالأغراض والمناسبات التي استخدمت فيها، فباب العيد مثلاً كان يخرج منه الخليفة لصلاة العيدين، وباب البحر كان يخرج منه الخليفة عندما يقصد شاطئ النيل، وباب الزمرد، وكان يتوصل منه إلى قصر الزمرد، وباب التربة كان يؤدى إلى مقابر الخلفاء... وهكذا.

ولكن الخلافة الفاطمية كانت خلافة دعوة؛ جاءت وليدة عقيدة معينة وعاشت في سبيل الدعوة لهذه العقيدة والدفاع عنها، وصار بقاؤها مرتبطاً بانتشار تلك العقيدة وتثبيت قواعدها. لذلك بادر جوهر الصقلي بوضع أساس جامع كبير في المدينة التي اختطها. ولم يكن الغرض من هذا الجامع مجرد الصلاة وإقامة شعائر الإسلام، مثل الجامع العتيق الذي أقامه عمرو بن العاص في الفسطاط، أو مثل الجامع الذي شيده أحمد بن طولون في القطائع، وإنما أراد به جوهر الصقلي أن يكون مركزاً لنشر الدعوة الشيعية، ومدرسة لتلقين مبادئ المذهب الشيعي، ولم يتم بناء هذا الجامع إلا سنة ٣٦١هـ=٩٧٢م، وأطلق عليه الجامع الأزهر تيمناً باسم فاطمة الزهراء – رضي الله عنها– وهي التي نسب إليها الفاطميون.

هذا وإن كان هناك رأى ضعيف يقول أنه سمى بالجامع الأزهر نسبة إلى اللون الأبيض المزهر الذي طلبت به جدران المسجد، وكان هذا اللون هو المفضل عند الفاطميين في طلاء مساجدهم بشمال أفريقية قبل انتقالهم إلى مصر.

وباستكمال الفتح، ووضع أساس القاهرة، وبناء قصر لنزول الخليفة، وجامع كبير تؤدى الشعائر فيه وفق عقائد الشيعة، صار كل شيء معداً لاستقبال الخليفة المعز لدين الله، فأرسل إليه جوهر الصقلي يدعوه للقدوم إلى مقر ملكه الجديد.

الخلافة الفاطمية في أوج مجدها :

عندما اطمأن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى أن مصر قد غدت تماماً في قبضة قائده جوهر الصقلي، غادر شمالي إفريقية في أواخر شوال سنة ٣٦١هـ = أغسطس ٩٧٢م، قاصداً الديار المصرية، ووصل الإسكندرية حيث رحب به أعيان الثغر، فألقى فيهم الخليفة المعز خطبة طويلة أوضح فيها أنه لم يفتح مصر لطمع في جاه أو ثروة، وإنما رغبة في إقامة العدل وتأمين الحجاج ومواصلة سياسة الجهاد ضد الكفار!! ثم أنعم المعز على كبار أعيان الإسكندرية بالخلع، وغادر المدينة في أواخر شعبان قاصداً القاهرة.

وعندما وصل المعز إلى الجيزة خرج إليه قائده جوهر الصقلي، فقبل الأرض بين يديه، وسلمه البلاد التي فتحها باسمه، وكان أن قضى المعز ثلاثة أيام بالجيزة، عبر بعدها النيل ومعه عساكره وحاشيته، واتجه مباشرة إلى القاهرة – حاضرته الجديدة– دون أن يدخل الفسطاط التي كان أهلها قد استعدوا للقائه بإقامة الزينات، وفي القصر الشرقي الكبير – الذي بناه جوهر للخليفة – خر المعز راكعاً وأناب، ثم صلى ركعتين شكراً لله تعالى. وكان أن توافدت عليه بالقصر جموع الناس مهنئين، فتقبل منهم ما قدموه له من هدايا وتحف، ثم أمر بإطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الإخشيديين، وكانوا زهاء الألف، وفي يوم الجمعة سابع عشر من المحرم سنة ٣٦٤هـ = ١٧ أكتوبر ٩٧٤م، تسلم المعز من قائده جوهر دواوين مصر، وبذلك يكون جوهر قد أشرف على شئون مصر أربع سنين تقريباً.

ويبدو أن المعز أحس من أول الأمر أنه في حاجة إلى مزيد من تجاوب أهل مصر معه وإيمانهم به وبخلافته، ويروى أبو المحاسن أن المعز عندما دخل القاهرة احتجب في القصر وبعث عيونه ورجاله ينقلون إليه أخبار الناس ليفاجئهم بها، ويظهر في صورة المطلع على الغيب.

وفي فترة احتجابه حرص على تناول " الأغذية المسمنة والأطليـــة"، التـــي تنقـــي البشرة وتحسن اللون. ثم ظهر للناس بعد مدة وقد لبس الحرير الأخضـــر وجعـــل على وجهه اليواقيت والجواهر تلمع كالكواكب، ورغم أنه كان غائباً فـــي الســـماء وأن الله رفعه إليه، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه رعباً وخوفاً.....".

ومهما يكن من أمر، فقد تحقق حلم الخلافة الفاطمية وأصبحت مصر قاعدة الخلافـــة وقلبها النابض، ولا عبرة بما يردده بعض الباحثين من أن انتقال الخلافة الفاطميـــة إلى القاهرة أفقد الفاطميين مكانتهم في شمال إفريقية (تونس)؛ إذ لا يخفى علينـــا أن مركز الثقل في العالم الإسلامي كان دائماً أبداً في المشرق لا فـــي المغـــرب، وإن انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر جعل المسلمين أكثر إحساساً بـــــها وبوجودهـــا، وجعل الخلفاء الفاطميين أكثر مقدرة على مد نفوذهم بعيداً في جوف شبه الجزيـــرة العربية فضلاً عن الشام، بل في العراق نفسه قلعة الخلافـــة العباسـية المناوئـــة وحصنها الحصين.

ويستطيع الباحث المتأمل في تاريخ الدولة الفاطمية في مصر أن يقسم ذلك التـــاريخ **إلى دورين كبيرين:**

الدور الأول هو دور الازدهار، وقد بلغ فيه نفوذ الخلافة أقصى درجات الاتســـاع، وبلغت الدولة أقصى درجات القوة والعظمة، وتعاقب على عرش الخلافة بالقـــاهرة في ذلك الدور المعـــز فـــالعزيز فالحـــاكم فالظـــاهر فالمســـتنصر حتـــى ســـنة ٤٦٥هـ=١٠٧٣م.

أما الدور الثاني فهو دور الاضمحلال والركود، وفيه اتصفت دولـــــة الفاطميـــين بالضعف في الخارج والفتور والتدهور في الداخل، ويشمل هـــذا الـــدور الجـــزء الأخير من حكم الخليفة المستنصر ثم عهود الخلفاء الذين أعقبوه في الحكم، وهـــم المستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد.

وإذا كان المعز هو أول الخلفاء الفاطميين في مصر، فإن الحقيقة التي تواجهنا هي أن الفترة التي قضاها في حكم مصر تبلغ العامين فقط على وجه التقريـــب علـــى حين أن بقية عهده الطويل البالغ أربعاً وعشرين سنة قضاها في المغـــرب، وقـــد وصف ابن خلكان الخليفة المعز بأنه كان:" عاقلاً، حازماً، ســـرياً، أديبـــاً، حســـن

النظر في النجابة"، كما وصفه أبو المحاسن بأنه كان:" عاقلاً، حازماً أديباً جواداً ممدحاً فيه عدل وإنصاف للرعية".

ومع قصر المدة التي قضاها المعز في مصر، إلا أن كثيراً من التقاليد الخاصة بالخلافة الفاطمية، وخاصة فيما يتعلق بالاحتفالات والأعياد والمواسم وإقامة الأسمطة وركوب الخلفاء في المواكب..... إنما يرجع الفضل في وضعها إلى الخليفة المعز" الذي استسن ذلك كله" على قول أبي المحاسن.

وعند وفاة المعز سنة ٣٦٥هـ= ٩٧٦م، خلفه ابنه العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ=٩٧٦-٩٩٦م). وفي عهده الطويل عم الرخاء البلاد، واتسعت مساحة الدولة الفاطمية من بلاد العرب شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً. وظهر أثر الثروة الواسعة في حياة العزيز، وخلقه وتصرفاته، إذ عرف عنه الميل إلى الإسراف وحب التنعم، فاقتنى كثيراً من التحف وجوارح الصيد، واشتهر كذلك بالثقافة ومعرفة اللغات، وإليه يرجع الفضل في تحويل الجامع الأزهر إلى جامعه بمعنى الكلمة.

وكانت المشكلة الخارجية الكبرى التي شغلت العزيز هي نفس المشكلة التي شغلت أباه المعز والقائد جوهر الصقلي منذ فتح مصر، وهي مشكلة القرامطة في بلاد الشام، وسنتكلم عنها فيما يلي .

وقد خلف الحاكم بأمر الله(٣٨٦-٤١١هـ= ٩٩٦-١٠٢٠م) أباه العزيز، ولكنه كان عند مبايعته بالخلافة صبياً في الحادية عشرة من عمره، فقام بالوصاية عليه مربيه برجوان الخادم، ولم يلبث أن أحس الحاكم بثقل وطأة برجوان فقتله غيلة سنة ٣٩٠هـ=١٠٠٠م، ومن ثم أخذ الحاكم يتصرف تصرفاً مطلقاً في كافة الأمور مع حداثة سنه، وظهرت في تصرفاته بعض الشذوذ، إذ اضطهد أهل الذمة فضلاً عن المسلمين من غير الشيعة، وهدم بعض الكنائس.

ويبدو أن الحاكم لم يكن طبيعياً، فجمع في أخلاقه كثيراً من المتناقضات حتى قال عنه بعض المؤرخين" وكانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء... وكان الغالب عليه السخاء، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط...." **وظهر شذوذ الحاكم في**

بعض تصرفاته، مثل الإقامة في ضوء الشموع ليلاً ونهاراً طوال بضع سنين، ثم فضل الظلمة" فجلس فيها مدة!!"، ومنع صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها !! وقطع الكروم ومنع بيع العنب خوفاً من أن يستغل في صناعة النبيذ، وحرم أكل الملوخية والسمك والرطب، وأهلك من كل ذلك الشيء الكثير. ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلاً ونهاراً!! ومنع صنف الخفاف (الأحذية) لهن!! هذا فضلاً عن سب الصحابة، فأمر أن يكتب على المساجد وأبواب الشوارع سب أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة...... رضي الله عنهم، ثم محا ذلك بعد عامين!!

وجاء هذا السلوك من جانب الحاكم مصحوباً بميل إلى سفك الدماء، " فقتل عدداً كبيراً من كبراء دولته"، الأمر الذي أخاف العامة والخاصة منه، وزاد الطين بلة ادعاؤه الربوبية، فتقرب إليه جماعة من الجهال اعتقدوا في ألوهيته، وإذا لقوه قالوا:" السلام عليك يا واحد يا أحد يا محيي يا مميت!!".

ويقال إن الذي شجعه على ادعاء الربوبية أحد الدعاة – هو محمد بن إسماعيل الدوزي– وإليه تنسب طائفة الدروز الذين يعتقدون في الحاكم، ثم ظهر اضطراب عقله في حبه للعزلة، فاعتاد أن يركب حماراً ويخرج ليجول في جبل المقطم، وفي إحدى ليالي شهر شوال سنة ٤١١هـ=١٠٢٠م خرج الخليفة راكباً حماراً ليقوم بجولته المعتادة في جبل المقطم ولكنه لم يعد، ويقال أن أخته ست الملك هي التي دبرت قتله في تلك الليلة بعد أن ساءت سيرته.

ومازالت طائفة الدروز حتى اليوم تعتقد أن الحاكم لم يقتل وإنما اختفى، وسيعود إلى الظهور إذا زالت المفاسد المنتشرة في العالم، فهو عندهم الإمام المنتظر.

وعندما تحقق الناس من نهاية الحاكم أقاموا في الخلافة ولده الظاهر لإعزاز دين الله(٤١١-٤٢٧هـ=١٠٢٠-١٠٣٦م)، وكان في السادسة عشر من عمره فقامت بالوصاية عليه عمته ست الملك، وقد أظهرت ست الملك كفاية نادرة في إدارة شئون البلاد حتى كانت وفاتها سنة ٤١٥هـ=١٠٢٤م، ولم يستمر الظاهر في الحكم مدة طويلة، إذ توفى سنة ٤٢٧هـ= ١٠٣٦م، ويبدو أن الظاهر شغل في حكمه بمحاولة إصلاح الأوضاع في البلاد بعد فترة الاضطراب التي سادت أواخر عهد أبيه الحاكم.

وبعد الظاهر خلفه ابنه المستنصر بـالله (٤٢٧-٤٨٧هـ=١٠٣٦-١٠٩٤م) وكان في السابعة من عمره. وقد حكم المستنصر قرابة ستين سنة، وهي فترة طويلة لم يحظ بها خليفة غيره. ويبدو أن السنوات الأولى من حكم المستنصر اتصفت بالرخاء والثروة، الأمر الذي يتضح من كتابات ناصر خسرو الذي زار مصر سنة ٤٣٩هـ=١٠٤٧م، غير أن هذا الرخاء لم يستمر طويلاً، إذ أخذ نفوذ الدولة الفاطمية ينكمش في الخارج في حين انخفض النيل سنة ٤٤٦هـ=١٠٥٤م، وأعقب ذلك الغلاء وانتشار الوباء وكثرة الموتى.

وكان هذا الوباء فريداً في نوعه لطول مدته حتى أطلق عليه في التاريخ اسم الشدة العظمى، وأفاضت المراجع في وصف نتائجه الوخيمة، وأهمها : اختلال جميع مرافق البلاد، كما سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد، وصحب الوباء والمجاعة موت الناس، وانتشار الفوضى والفتن، حتى أحس الخليفة المستنصر بعجزه عن ضبط أمور البلاد، فاستدعى والى عكا – بدر الجمالي – سنة ٤٦٥هـ= ١٠٧٣م، وعهد إليه بالوزارة " فتولى تدبير الأمور".

ويعتبر هذا الحدث في حد ذاته بداية دور جديد في تاريخ الخلافة الفاطمية، وهو دور اتسم باضمحلال سلطة الخلافة ونفوذها، وظهور نفوذ الوزراء العظام الذين سيطروا على مقاليد الأمور في الدولة.

قائمة بالوزراء العظام في العصر الفاطمي الثاني

(٤٦٥-٥٦٤هـ)

الخليفة الفاطمي المستنصر:	٤٦٦هـ=١٠٧٣م
أبو النجم بدر الجمالي المستنصرى، أمير الجيوش.	
أبو القاسم شاهنشاه الأفضل بن بدر الجمالى.	
الخليفة الفاطمي المستعلى:	
أبو القاسم شاهنشاه الأفضل (استبقى)	٤٨٧هـ=١٠٩٤م
شرف المعالى بن الأفضل.	
الخليفة الفاطمي الآمر :	
شرف المعالى (استبقى)	٤٩٥هـ=١١٠٢م.
أبو عبدالله محمد المأمون البطائحي	٥١٥هـ=١١٢١م.
الخليفة الفاطمي الحافظ :	
أبو على أحمد بن الأفضل.	٥٢٥هـ=١١٣١م.
يأنس الأرمنى.	٥٢٦هـ=١١٣٢م.
أبو على الحسن بن الحافظ (ابن الخليفة وولى عهده)	٥٢٦هـ=١١٣٢م
أبو الربيع سليمان(ابن الخليفة)	٥٢٨هـ=١١٣٤م.
أبو المظفر بهرام تاج الملوك.	٥٢٩هـ=١١٣٥م.
رضوان بن الولخشى .	٥٣١هـ=١١٣٧م.
الخليفة الفاطمي الظافر:	
أبو الفتح نجم الدين سليمان بن محمد بن مصال.	٥٤٤هـ=١١٤٩م.
أبو الحسن على بن سلار.	٥٤٤هـ=١١٤٩م.
الخليفة الفاطمي الفائز:	
الملك الصالح طلائع بن رزيك.	٥٤٩هـ=١١٥٤م.
الخليفة الفاطمي العاضد:	
أبو شجاع محيى الدين رزيك بن طلائع.	٥٥٥هـ- ١١٦٠م.
أبو شجاع شاور بن مجير.	٥٥٨هـ=١١٦٣م.

أبو الأشبال ضرغام.	٥٥٨هـ=١١٦٣م
شاور (للمرة الثانية)	٥٦٠هـ=١١٦٥م.
شيركوه.	٥٦٣هـ=١١٦٨م.
صلاح الدين الأيوبي.	٥٦٤هـ=١١٦٩م.

وهكذا يشتمل العصر الفاطمي الثاني – أو عصر الوزراء العظام- بقية عهد الخليفة المستنصر، ثم عهود الخليفة المستعلى(٤٨٧-٤٩٥هـ=١٠٩٤-١١٠٢م) والخليفة الآمر (٤٩٥-٥٢٤هـ= ١١٠٢-١١٣٠م) الخليفة الحافظ (٥٢٤-٥٤٤هـ= ١١٣٠-١١٤٩م) والخليفة الظافر (٥٤٤-٥٤٩هـ=١١٤٩-١١٥٤م) والخليفة الفائز (٥٤٩-٥٥٥هـ=١١٥٤-١١٦٠م) والخليفة العاضد(٥٥٥-٥٦٤هـ= ١١٦٠-١١٦٩م).

واتصف هذا العصر عموماً بضعف الخلفاء وسيطرة الوزراء العظام على شئونهم وشئون الدولة جميعاً، فتعاقب في منصب الوزارة مجموعة من الوزراء الطامحين الأقوياء الذين صار بأيديهم الحل والربط في سياسة الدولة الداخلية والخارجية سواء. وعلى رأس هؤلاء الوزراء كان أمير الجيوش بدر الدين الجمالي حاكم عكا، الذي استدعاه المستنصر لضبط الأمور في البلاد وولاه الوزارة سنة ٤٦٥-٤٦٦هـ(١٠٧٣م) كما رأينا. ولم يكن بدر الدين الجمالي في حقيقة الأمر سوى الوزير الأول في قائمة طويلة من الوزراء العظام، ارتبط بهم تاريخ البلاد في ذلك الدور، فخلف بدر الجمالي في منصب الوزارة ابنه الأفضل، ثم شرف المعالي ابن الأفضل، ثم أبو عبد الله محمد المأمون البطائحي، ثم أبو على أحمد بن ألفضل، ثم يانس، ثم أبو على الحسن بن الخليفة الحافظ، ثم أبو الربيع سليمان وهو ابن آخر للخليفة، ثم أبو المظفر بهرام، ثم رضوان بن الولخشي، ثم أبو الفتح نجم الدين سليمان، ثم أبو الحسن على بن سلار، ثم العباس بن أبي الفتوح بن تميم، ثم الملك الصالح طلائع بن رزيك، ثم أبو شجاع العادل بن طلائع، ثم شاور، ثم ضرغام، ثم شاور مرة ثانية، ثم أسد الدين شيركوه قائد جيش نور الدين محمود، وأخيراً

تولى منصب الوزارة الخليفة العاضد الفاطمي الوزير صلاح الدين الأيوبي الذي استقل بمصر بعد القضاء على الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٤هـ=١١٦٩م.

ويلاحظ أن كثيراً من هؤلاء الوزراء كانوا من عناصر متباينة وأصول غير متجانسة؛ فبدر الدين الجمالي وأولاده أصلهم أرمنى، وإذا كان بدر الدين الجمالي وأبنائه مسلمين فإن الوزير أبو المظفر بهرام الذي ولى الوزارة سنة ٥٢٩هـ=١١٣٥م في عصر الخليفة الحافظ الفاطمي كان مسيحياً أرمينياً انتخبته الجند لمنصب الوزارة. والوزير العباس بن أبي الفتوح بن تميم كان أميراً من بني زيري، وشيركوه وابن أخيه صلاح الدين كانا من ألأكراد، وظهر أثر هذا التباين في اضطراب سياسة مصر الداخلية والخارجية سواء. ففي الداخل استمرت لحالة الاقتصادية تزداد سوءا في أواخر عهد المستنصر وفي عهد المستعلى. وكان المستنصر قد ولى ابنه نزار العهد ولكن الوزير الأفضل حقد على نزار فحرمه من الخلافة بعد أبيه، وعين في الخلافة المستعلى بن المستنصر. وأدى ذلك إلى صراع بين نزار وأخيه المستعلى، انتهى بأنتصار الأخير، فقبض الأفضل على نزار ووضعه بين حائطين وبني عليه فمات. وكان أن تألم البعض للمصير الذي انتهي إليه نزار، فدعوا له بوصفة أكبر أبناء المستنصر، وقالوا أنه الإمام المستور وأنه سيعود، وانتقلت هذه الدعوة الجديدة إلى إيران على يد الحسن الصباح؛ وبذلك انقسمت الدعوة الفاطمية إلى قسمين المستعلية والنزارية.

حقيقةِ إن الخلافة الفاطمية ظلت أيام ضعفها وانحلالها تحرص على الاحتفاظ بمظاهر عظمتها السالفة؛ فالمواكب مستمرة والاحتفالات دائمة والرسوم قائمة، ولكن هذه المظاهر كلها لم تعد تخفى بذور الانحلال التي أخذت تنمو وتترعرع في جوف الدولة، ولم تعد تخفى عوامل السخط والنقمة التي أخذت تسرى بين الخاصة والعامة سواء. وهل هناك أدعى إلى سخط الناس في تلك العصور أكثر من أن يتولى منصب الوزارة- مع خطورته- رجل أرمنى مسيحي هو بهرام الأرومنى الذي " صادر عامة من بالديار المصرية، من كاتب وحاكم وجندى وعامل وتاجر، وامتدت يده إلى الناس على اختلاف طبقاتهم!" بل لقد بلغ الأمر بذلك الوزير أن فتح أبواب مصر أمام بني جنسه من الأرمن المسيحيين فوفدوا من

تل باشر وأرمينية حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفاً، وهؤلاء لم يكتفوا بالسيطرة على اقتصاديات البلاد ومصادرة أموال أهلها من المسلمين؛ بل أخذوا يبالغون في بناء الكنائس والتوسع في إقامة الأديرة، مما أقلق بال المسلمين، فرفعوا أصواتهم إلى الخليفة شاكين متظلمين!!

فإذا جرؤ أحد الخلفاء الفاطميين عندئذ على الوقوف في وجه وزيره ومحاولة الحد من سلطانه، تطور الموقف إلى صراع خفي- ثم علني - قد ينتهي بقتل الوزير والخليفة جميعاً، كما حدث للوزير ابن السلار والخليفة الظافر الفاطمي سنة ٥٤٨هـ=١١٥٣م، ولا أدل على زدياد نفوذ الوزراء العظام على حساب سلطان الخلافة الفاطمية من أن الوزير طلائع بن رزيك اتخذ لنفسه لقب " الملك الصالح" وأخذ يلهو بالخلفاء الصغار، يعين من يشاء ويعزل من يريد، وعندما أقام الوزير طلائع بن رزيك الخليفة العاضد سنة ٥٥٥هـ=١١٦٠م هلل الناس للخليفة الجديد، فتعجب بن رزيك من جهل الشعب وقال:" وكأني بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا، وما علموا أنني كنت منذ ساعة استعرضهم استعراض الغنم!!".

ولم يلبث النزاع بين الوزراء والخلفاء أو بين الوزراء بعضهم وبعض أن أدى إلى تدخل القوى الخارجية - من مسلمين وصليبيين- وهو التدخل الذي انتهى بسقوط الدولة الفاطمية نفسها.

الخطر الصليبي:

في الوقت الذي غرقت الخلافة الفاطمية - في عصرها الثاني- في مشاكلها الداخلية، ظهر خطر جديد هدد الوطن العربي الإسلامي في منطقة الشرق الأدنى، هو خطر الفرنجة (الصليبين).

وقد ظهر الصليبيون لأول مرة في بلاد الشام في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد(الخامس الهجرى)، وكان النفوذ الفاطمي قد أخذ يتقلص عن تلك البلاد، ففي سنة ٤٦٢هـ=١٠٧٠م أعلن قاضي صور ابن أبي عقيل خروجه عن طاعة الفاطميين واستقلاله بمدينة صور، أما قاضي طرابلس الحسن بن عمار فقد انفصل

عن الفاطميين أيضاً سنة ٤٦٢هـ(١٠٧٠م) وأقام إمارة مستقلة لنفسه في تلك المدينة. وفي سنة ٤٦٣هـ(١٠٧١م) استولى آتسز بن أوق أحد القادة الأتراك من أتباع السلطان ألب أرسلان على الرملة وبيت المقدس وفلسطين بأكملها – عدا أرسوف– كما استولى سنة ٤٦٨هـ(١٠٧٥م) على دمشق وضواحيها.

والواقع أن أول ما يسترعى انتباه الباحث في موقف الدولة الفاطمية من الصليبيين، هو أن تلك الدولة وقفت منهم موقفاً مضطرباً يتسم بعدم الفهم الصحيح لحقيقة الحركة الصليبية في أدوارها الأولى، ولا نجد نحن تفسيراً لهذا الموقف الغريب سوى انشغال الفاطميين بمشاكلهم الداخلية في ذلك الدور الثاني من أدوار تاريخ الدولة الفاطمية، بالإضافة إلى تحكم روح العداء بين الفاطميين الشيعة في مصر والسلاجقة السنة في الشام، وهو العداء الذي جعل الفاطميين ينظرون في أول الأمر إلى الصليبيين كقوة مفيدة يمكن أن تشكل حاجزاً بينهم وبين خصومهم السلاجقة. لهذا كله اتصفت الأعمال الحربية التي قامت بها الدولة الفاطمية ضد الصليبيين في ذلك الدور بسوء النظام والإهمال وعدم تقدير خطورة الموقف.

ولا أدل على عدم فهم الفاطميين لحقيقة الحركة الصليبية في دورها الأول، من أنه عندما سمع الوزير الأفضل بوصول الصليبيين إلى أطراف الشام سنة ٤٩٠هـ(١٠٩٧م)، فإنه أرسل إليهم أمام أنطاكية يدعوهم إلى الاتفاق بحيث تكون أنطاكية للصليبيين وبيت المقدس للفاطميين.

ولم يلبث أن أقلق الفاطميون وتنبهوا لحقيقة الخطر الصليبي عندما رأوا جموع الصليبيين لا تكتفي بالاستيلاء على أنطاكية وإنما أخذت توغل في بلاد الشام لتلتهم المدن والحصون وتؤسس الإمارات، حتى أنهم استولوا على بيت المقدس ذاتها، التي كان الفاطميون قد استردوها من السلاجقة أخيراً.

وكان أن خرج الأفضل بنفسه على رأس الجيش الفاطمي على بلاد الشام لدفع الصليبيين، ولكن الهزيمة حلا بالأفضل وجيشه عند عسقلان في أغسطس سنة ٤٩٢هـ(١٠٩٩م)، واستطاع الأفضل النجاة بصعوبة، فركب مركباً في البحر قاصداً شواطئ مصر. وساعد هذا الانتصار الصليبيين على تثبيت أقدامهم في

فلسطين وتوسيع نفوذهم، فاستولوا على أرسوف وقيسارية، ودخل حكام عسقلان وعكا تحت طاعتهم.

ورغم سوء أوضاع الدولة الفاطمية فقد بادر الوزير الأفضل بإرسال ثلاث حملات كبيرة إلى فلسطين سنة ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٩هـ (١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٥م)، ولكن الحملات الثلاث منيت بالفشل الذريع نتيجة لسوء التنظيم والخلاف بين القادة وعدم التعاون بين الأسطول الفاطمي والجيوش البرية، وكلها عيوب تشهد على مدى انحلال الإدارة الفاطمية في ذلك الوقت، وإذا كانت هناك نتائج لفشل حملات الأفضل ضد الصليبيين، فإن أهم هذه النتائج تمكين الصليبيين من الاستيلاء على بقية موانئ الشام ومدنه الجنوبية مثل صيدا وبيروت، ثم تطلع الصليبيين إلى مصر ذاتها وطمعهم في الاستيلاء عليها، بعد أن ثبت عجز الدولة الفاطمية. وهكذا استولى بلدوين الأول ملك بيت المقدس الصليبي على وادي عربة ووصل إلى أيلة على البحر الأحمر، ثم اخترق شبه جزيرة سينا، وأوغل في أرض مصر حتى تنيس جنوبي بحيرة المنزلة، حيث مات نتيجة لمرض مفاجئ.

وبعد اغتيال الوزير الأفضل سنة ٥١٥هـ(١١٢١م) حاول الخليفة الآمر الفاطمي أن يكسب الرأي العام الإسلامي، فحشد حملة كبيرة في عسقلان سنة ٥١٧هـ(١١٢٣م) لمهاجمة الصليبيين. ولكن الهزيمة حلت ساحقة بالجيوش الفاطمية، الأمر الذي جعل الخليفة الآمر الفاطمي يجنح إلى مسالمة الصليبيين.

وقد اعتاد الصليبيون أن يحققوا كسباً جديداً عقب كل هزيمة يلحقونها بالجيوش الفاطمية، فاستولوا هذه المرة على صور سنة ٥١٨هـ(١١٢٤م) بعد أن حاصرتها أساطيل البندقية ", أشرف أهلها على الهلاك".

ولم يرض المتحمسون للجهاد عن ذلك الوضع الذي انتهى إليه أمر المسلمين، فجاهروا بحنقهم على البيت الفاطمي وسياسته، وعمت مصر فترة من الاضطرابات ولى فيها الوزارة أحمد بن الوزير الأفضل، ثم يانس الأرمنى، ثم بهرام الأرمنى الذي شجع – بوصفه مسيحياً– سياسة التعايش السلمي مع الصليبيين بالشام، وأخذ يضطهد أنصار حركة الجهاد. ولكن هذا الوضع استثار المسلمين داخل مصر وخارجها، فقامت حركة بزعامة رضوان بن الولخشى الذي

خطب في جماهير الشعب خطبة بليغة" حرض الناس فيها على الجـــهاد"؛ الأمـــر الذي أدى إلى فرار بهرام وقيام رضـــوان بـــن الولخشـــى فـــي الـــوزارة ســـنة ٥٣١هـ(١١٣٧م).

والحق إن الوزير رضوان بن الولخشى كان شديد التحمس لجهاد الصليبيين، فأنشـأ ديواناً جديداً اسماه " ديوان الجهاد"، وأخذ يضطهد الأرمن ويقصيهم عن منـــاصب الدولة. وعندما وجد الوزير رضوان بن الولخشى أن الخليفة الحافظ الفاطمي يكيـد له سراً، ويتصل بالأرمن للقضاء عليه؛ فر ابن الولخشى إلى الشام ليستعين ببطـــل كبير من أبطال الجهاد في القرن الثاني عشر للميلاد، هو عماد الدين زنكى أتـــابك حلب، ورغم المعونة التي حصل عليها ابن الولخشى من عماد الدين زنكى، فإنـــه لم يستطع عند عودته إلى مصر التغلب على جيوش الخليفـــة الفـــاطمي، وانتـــهى الأمر بقتله سنة ٥٣٤هـ(١١٣٩م).

وهكذا ظهر عجز الدولة الفاطمية عن مدافعة الصليبيين الذين ازداد طمعـــهم فـــي الاستيلاء على تلك الدولة المريضة المتداعية. ويشهد تاريخ الدولة الفاطميـــة فـــي ذلك الدور على مدى انحلالها وضعفها وعجز خلفائها عن الحركة في أي اتجـــاه. وإذا كان الفاطميون قد اتخذوا عسقلان في جنـــوب فلســـطين قـــاعدة لجيوشـــهم وأساطيلهم لتهديد أعدائـــهم، فـــإن الصليبيـــن اســـتولوا علـــى عســـقلان ســـنة ٥٤٨هـ(١١٥٣م)، وبذلك حرم الفاطميون من تلك القاعدة، في حين أتم الصليبيون بسط سيطرتهم على ساحل الشام وفلسطين بأجمعه من إسكندرونه في شمال الشـــام حتى غزة وعسقلان في الجنوب.

وفي النزاع الذي شب بين شاور وضرغام حول منصـــب الـــوزارة منـــذ ســـنة ٥٥٨هـ(١١٦٣م) استعان كل طرف من الطرفين المتنـــازعين بقـــوة خارجيـــة، فاستعان ضرغام بالصليبيين واستعان شاور بنور الدين محمود بن عمـــاد الديـــن زكي، الذي كان قد استولى على دمشق، وبذلك غدت مصر مسرحاً لتنافس خطـــير وقتال طويل بين جيوش الصليبيين ونور الدين محمود، وهو القتال الـــذي انتـــهى بسيطرة قوات نور الدين على مصر ثم القضاء على الخلافة الفاطمية نفسها. كمـــا سنرى بالتفصيل في الباب الآتي.

الفصل السادس

مصر في عصر الدولة الأيوبية

الفصل السادس

مصر في عصر الدولة الأيوبية

كانت الحروب الصليبية من سنة ١٠٩٦ وحتى سنة ١٢٩١م (١٩٥سنة) نتيجة طبيعة لانقسام الخلافة الإسلامية بين القاهرة وبغداد، مع ثراء المسلمين في الوقت الذي كانت تعاني فيه أوروبا من الفقر الشديد.

وبدأت هذه الحركة بظاهرة رغبة الفرنجة في الحج بيت المقدس، وكان الهدف الحقيقي من تلك الظاهرة استطلاع أحوال الشام، كما تطلع جودفرى (أول حكام بيت المقدس) إلى مصر، لذلك وضع مشروعاً للاستيلاء عليها لكنه توفى سنة ١١٠٠م قبل تنفيذ المشروع – لكن أخوه بلدوين الأول خرج بحملة عسكرية سنة ١١١٦م واستطاع أن يستولى على الفرما وتنيس ثم توفى في العريش أثناء عدوته إلى بيت المقدس سنة ١١١٨م.

على أن انتصار الصليبيين على المسلمين في الحملة الصليبية الأولى، ونجاحهم في تأسيس إمارات في الرها وأنطاكية وطرابلس، فضلاً عن مملكة بيت المقدس، كان له أثره السيء ورد فعله العنيف في العالم الإسلامي، الأمر الذي استثار بعض الزعماء المخلصين في المشرق الإسلامي ودفعهم إلى القيام بحركة جهاد واسعة ضد الصليبيين. ولم تلبث أن أدت حركة الجهاد في القرن السادس الهجرى(الثاني عشر للميلاد) إلى بروز عماد الدين زنكى ثم ابنه نور الدين محمود على مسرح التاريخ في الشرق الأدنى. وسرعان ما أتضح أن نجاح حركة الجهاد الإسلامية لا يتحقق إلا في ظل جبهة إسلامية متحدة، توحد بين القوى الإسلامية المبعثرة بين النيل والفرات، وتجعل من هذه القوى بنياناً مرصوصاً يستطيع الصمود في وجه الخطر الصليبي. وكانت هذه الفكرة – فكرة الجبهة الإسلامية المتحدة– هي المحرك الأول الذي جعل نور الدين محمود يتجه ببصره شطر مصر بعد أن تم له الاستيلاء على دمشق سنة ٥٤٩هـ(١١٥٤م) وأصبح يسيطر على المدن الكبرى في الشام مثل حلب ودمشق، وسنتكلم فيما بعد عن تدخل نور الدين محمود في شئون مصر، لنوضح كيف انتهى ذلك التدخل بسقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة

الأيوبية. ولكن الذي نحب أن نؤكده الآن هو أن التطورات السياسية التي انتهت بقيام الدولة الأيوبية، إنما جاءت نتيجة مباشرة من نتائج الحركة الصليبية.

ويرجع الفضل إلى عماد الدين زنكى مؤسس أتابكية الموصل سنة ١١٢٧م في ضرورة توحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة الصليبيين فاستطاع أن يحصل على موافقة سلطان السلاجقة بحكم حلب فضلاً عن الموصل، وقد تمكن من تخليص الرها في شمال الشام من الصليبيين سنة ١١٤٤م ثم توفى فجأة بعد سنتين (حكم ١٧سنة).

وقد حمل نور الدين محمود الأمانة بعد والده وتمكن من ضد دمشق إليه سنة ١١٥٤م، وحماه وحمص وأصبح يسيطر على جبهة قوية في شمال الشام.

وفي أوائل سنة ١١٦٢م، توج عمورى الأول ملكاً على مملكة بيت المقدس منذ بداية حكمه على غزو مصر، حيث وصل على رأس جيشه بلبيس سنة ١١٦٣م، وقام بحصارها لكن ضرغام الوزير الفاطمي أرغمه على الانسحاب.

وقد فزع نور الدين محمود لغزو عمورى لمصر لذلك رأى نور الدين محمود أن يرسل بقوة عسكرية سنة ١١٦٤م، بقيادة أسد الدين شيركوه إلى مصر، وخاصة بعد أن طلب شاور (الوزير قبل ضرغام) منه ذلك. واستنجد ضرغام وزير الدولة الفاطمية بالصليبيين وتعهد لعمورى الأول أن تصبح مصر دولة تابعة للصليبيين إذا ما تمكن من حماية مصر من جيش نور الدين محمود (تولى الخليفة العاضد سنة ١١٦٠م).

لكن تمكن أسد الدين شيركوه من أن يسبق جيش الصليبيين إلى الوصول إلى الدلتا، وانتصر على الجيش الذي أرسله ضرغام ليمنع شيركوه من دخول القاهرة، ودخل القاهرة في أول مايو سنة ١١٦٤م، كما تمكن من قتل ضرغام أثناء محاولته الهرب. وتولى شاور الوزارة حيث كان في صحبة جيش شيركوه بعد لقاءه بنورالدين محمود.

وبمجرد أن عاد شاور إلى الوزارة طلب من شيركوه الخروج من مصر، فنشر شيركوه جيشه في بلبيس والشرقية، فاستنجد شاور بالصليبيين، فحضر على الفور

عمورى الأول على راس جيشه وحاصر شيركوه في بلبيس. وبذلك تـــم الاتفــاق على أن يغادر شيركوه وعمورى مصر، وتم ذلك في أواخر سنة ١١٦٤م.

واستنجد الخليفة العاضد من الوزير شاور واستبداده فأرسل نور الدين محمد حملـة شيركوه الثانية سنة ١١٦٧م، وكان في صحبة شيركوه أيضا ابن أخيـــه صـــلاح الدين، وعسكر في الجيزة على الضفة الغربية للنيل، فاستنجد شاور بـــالصليبيين، وعسكروا على الضفة الشرقية للنيل وتكمنوا من توقيع اتفاقية مع مصر تعهد فيـ ها شاور بدفع ٤٠٠٠٠٠ دينار حتى طرد شيركوه.

وقد التقى الجيشان قرب الأشمونين في المنيا(في مارس ســنة١١٦٧م) وانتصــر شيركوه، الأمر الذى اضطر الصليبيين إلى التقهقر إلى الضفة الشرقية من النيـــل قرب الفسطاط، لكن شيركوه بدلاً من أن يتبع الصليبيين توجه إلـــى الإســكندرية، وترك فيها صلاح الدين مع قوة صغيرة في حين توجه شيركوه للســـيطرة علـــى صعيد مصر، فأتجه عمورى لحصار صلاح الدين بالإسكندرية فاضطر شـــيركوه العودة شمالاً، وحينما أدرك خطورة الموقف طلب شيركوه الصلح على أن يـــترك الطرفان مصر، لكن عمورى لم يغادر مصر إلا بعد أن تعهد الفاطميين بدفع جزية سنوية للصليبيين قدرها ١٠٠٠٠٠ دينار مع بقاء قوة صليبية تحمى أبواب القـاهرة ومندوب سامي صليبي.

واضطر شاور تحت ضغط الرأى العام الإسلامي أن يتصل بنور الديـــن محمــود طالباً مساعدته للتخلص من الحماية الصليبية، فأسرع عمورى نحو القاهرة، فدفـــع له شاور ١٠٠٠٠٠ دينار، ولكن اقتراب حضور جيوش نور الدين محمود بقيـــادة شيركوه، جعل الصليبيين أن يروا أن يباغتوا شيركوه فانتظروا عند فاقوس، لكـــن شيركوه توجه عبر الصحراء إلى القاهرة مباشرة فأضطر عمورى إلى الانســحاب إلى فلسطين في يناير سنة ١١٦٩م.

رحب الخليفة العاضد بشيركوه وعينه وزيراً لمصر ولقبـــه بـــالمنصور، فأرســل شاور إلى الصليبيين يستدعيهم لنجدته فطلب المصريون من شيركوه قتـــل شـــاور وتم قتله وولده وسمح شيركوه للمصريين لنهب قصر شاور، على أن شيركوه لـــم يلبث أن توفى بعد شهرين (مارس سنة ١١٦٩م).

رشح الخليفة العاضد صلاح الدين الأيوبي وزيراً لمصر خلفاً لعمه شيركوه، لكن صلاح الدين أبدى عدم رغبة في ذلك، فأصر الخليفة العاضد، وطلب إحضاره إلى القصر حيث خلع عليه خلع الوزارة (الوزارة في المشرق الإسلامي تعنى رئيس الوزراء).

ولما علم نور الدين محمود بما صار إليه صلاح الدين أمده نور الدين بقوة عسكرية جديدة لتدعيم موقفه في مصر بقيادة أخو صلاح الدين شمس الدولة توران شاه.

وقد ثقلت وطأة صلاح الدين على القصر وعين (قراقوش) مديراً عاماً للقصور الفاطمية، فاتصل رئيس بلاط قصر الخليفة العاضد اسمه مؤتمن الخلافة- وهو نوبي- بعموري الأول - لكن رسالة مؤتمن الخلافة وقعت في يد صلاح الدين بطرد كل الخدم السودان من قصر الخلافة الأمر الذي جعلهم يقومون بثورة بلغ عددها الثوار فيها خمسين ألفاً. وانتهى الأمر بقتلهم بعد أن أشعل النيران في محلتهم ثم أرسل فرقة عسكرية إليهم بقيادة توران شاه.

وقام عموري الأول والأسطول البيزنطي بمهاجمة دمياط لكن الحملة فشلت كما أسرع نور الدين محمود بإرسال نجدة.

وبناء على أوامر نور الدين محمود اضطر صلاح الدين إلى الدعاء في أول جمعه من سبتمبر سنة ١١٧١م، للخليفة العباسي المستضيء وسقوط الخلافة الفاطمية، وقد أخفى صلاح الدين هذا الخبر على الخليفة لمرضه حيث توفى عد ثلاثة أيام دون أن يعلم بزوال دولته.

في أواخر سبتمبر سنة ١١٧١م، وهو نفس العام الذي سقطت فيه الدولة الفاطمية، أصدر نور الدين محمود أمراً لصلاح الدين لمهاجمة حصن الشوبك في فلسطين، ولكن الصليبيين طلبوا من صلاح الدين صلة عشرة أيام لتسليم الحصن، في هذه الفترة علم صلاح الدين بأن نور الدين محمود في الطريق إليه لمساعدة ولتحسب أي غدر من الصليبيين. في نفس الوقت علم صلاح الدين بأن العلويين في مصر على وشك إشعال ثورة في القاهرة، الأمر الذي أدى إلى أن يسرع بالانسحاب

والعودة إلى مصر. مما أغضب نور الدين محمود، وبلغ إلى مسامع صلاح الدين أن نور الدين يستعد للزحف على مصر لتأديب صلاح الدين، يجمع صلاح الدين أقاربه على أثر ما سمع، ولكن والده نجم الدين أيوب قال له: إذا أراد عزلك فأي حاجة إلى المجيء ونصحه بأن يكتب له خطاب يعرب له عن ولائه، ففعل ذلك وأرسل هدية ثمينة.

وفي أواخر سنة ١١٧٢م يرسل أخاه توران شاه لإخضاع بلاد النوبة كما يرسل أخاه توران شاه أيضا في سنة ١١٧٤م، لإخضاع اليمن، ورغم أنه معلوماً أن هذه الحملات للقضاء على النفوذ الفاطمي في تلك الجهات إلا أن المؤرخين يبالغون في الخصومة بين صلاح الدين ونور الدين محمود.

وفي سنة ١١٧٣م، قام صلاح الدين بغزو أملاك الصليبيين في الكرك والشوبك وأثناء حصاره لحصن الكرك، علم باقتراب حضور نور الدين محمود، وفي نفس الوقت علم بمرض والده بمصر، فاضطر إلى العودة إلى مصر دون أن ينتظر وصول نور الدين محمود- ويذكر ابن الأثير أن نور الدين قرر القيام بحملة على مصر لتأديب صلاح الدين، لكنه يقع من على فرسه في مايو سنة ١١٧٤م، فمات على الفور.

ونحن حينما نتتبع وقائع الأحداث بعدد وفاة نور الدين محمود في مايو سنة ١١٧٤م، يمكن أن نقسمها بسهولة إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى : من سنة ١١٧٤م وحتى سنة ١١٨٦ وفي هذه المرحلة ينحصر جهاد صلاح الدين الأيوبي في توطيد نفوذه في مصر، ثم توحيد الجبهة الإسلامية، كما أنه يعمل في تلك الفترة على تحصن كل من مصر والشام.

المرحلة الثانية : والتي تمتد من سنة ١١٨٦م وحتى سنة ١١٩٢م، وفيها يعمل صلاح الدين على مواجهة الاستعمار الصليبي مواجهة تحقق له النصر عليهم.

رد صلاح الدين لتوحيد الجبهة الإسلامية :

تآمر بعض زعماء الشيعة في مصر بزعامة ابن الخليفة العاضد، واتصلوا بشيعة الشام، وعمورى ملك بيت المقدس، وملك صقلية على مهاجمة مصر، لإعادة الدولة الفاطمية – لكن أحبطت المؤامرة قبل أن تبدأ حيث أشرك المتآمرون معهم الفقيه زين الدين على بن نجا الذي أبلغ صلاح الدين على الفور، فأمر صلاح الدين بإعدامهم جميعاً صلباً بينما تمكن ابن الخليفة العاضد من الهرب، كما مات عمورى كما يقال كمداً لإحباط المؤامرة سنة ١١٧٤م(يوليو).

وقد قام أحد رجال الفاطميين يعرف بـ (كنز الدولة) بحركة تمرد في أسوان، واستطاع أن يزحف برجاله من السودانيين إلى قوص، لكن الحملة التي أرسلها صلاح الدين لملاقاتهم بقيادة أخيه العادل استطاعت أن تقضى على تلك الحركة في سبتمبر سنة ١١٧٤م.وفي نفس الوقت الذي استطاع فيه صلاح الدين توطيد مركزه في مصر، وقعت الجبهة في المشرق في صراع خطير هدد مركز المسلمين أمام الصليبيين بعد وفاة نور الدين محمود في منتصف مايو سنة ١١٧٤م، فكما قام صراع بين ورثة نور الدين محمود(ابنه إسماعيل وعمره ١١ سنه) وابن عمه سيف الدين غازى أتابك الموصل. سرعان ما احتل بعض المواقع مثل حران والرها، أيضا قام صراع بين أقوى اثنين من قادة نور الدين محمود، وهما شمس الدين بن الداية، وشمس الدين المعروف بابن المقدم، فاحتل ابن الداية قلعة حلب بوصفها المركز الأول للدولة في حين تحفظ ابن المقدم على شخص الملك الصالح إسماعيل في دمشق.

وقد استغل عمورى الأول الفرصة وهاجم بانياس وحاول الاستيلاء عليها، لكن المدينة صمدت للقتال أسبوعين وبدلاً من أن يتحد القادة في الشام لمواجهة الصليبيين راسلوهم وعرضوا عليهم مبالغ من المال، لكن أمراء الشام أمام استفحال خلافاتهم استنجد بعضهم بصلاح الدين، فخرج صلاح الدين من مصر على رأس الجيش بعد أن ترك أخاه الملك العادل على مصر.

وبعد عودة صلاح الدين إلى مصر اهتم بتحصين مصر، فقد كانت الفسطاط يحيطها سور مستقل، والقاهرة يحوطها سور مستقل فضرب بسور حول المدينتين

معاً أكثر مناعة يحيط بالفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة، كما أقام قلعة ضخمة (هي أكبر قلعة في العالم من حيث المساحة) على جبل المقطم، ولتكون مركزاً للحكم، ورغم أنها لم يتم بناءها إلا في عصر الملك الكامل الأيوبي سنة ١٢٠٧م، إلا أنها أصبحت مركزاً للحكم منذ عهد صلاح الدين وحتى عصر الخديوى إسماعيل مروراً بالأيوبيين، والمماليك والعثمانيين، ,أسرة محمد على حتى عصر الخديوى إسماعيل. وقد اضطر صلاح الدين إلى جلب حجارة الأهرام لبناء تلك القلعة والسور(بين السورين).

كما اهتم صلاح الدين بتحصين تنيس ودمياط والإسكندرية والسويس، أما تحصيناته في الشام فيبدو كما لم تقل عن مصر بل على ما يبدو أنها كانت تزيد على تحصينات مصر، وإن كانت قلعة القاهرة هي أكبر القلاع التي أنشأها صلاح الدين.

وحدث أن قطع الأمير أرناط صاحب حصن الكرك طرق القوافل بين مصر والشام والحجاز، وفي سنة ١١٨٢م، استولى على أيلة، ثم هاجم موانئ مصر والحجاز في البحر الأحمر حتى أصبح على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة، فأسرع العادل بإرسال أسطول قوى إلى البحر الأحمر نجح في تدمير السفن الصليبية، وفر أرناط بصعوبة. أما صلاح الدين فقد رد على هذا العدوان بحصار حصن الكرك، وإن كان لم يستطع الاستيلاء عليه، فاكتفى بعقد هدنة لمدة أربع سنوات تبدأ من سنة ١١٨٥م.

موقعة حطين :

أنقض أرناط على قافلة كبيرة كانت متجهة من القاهرة إلى دمشق وهي محملة بثروة ضخمة، واستولى على كل ما تحمله القافلة، ,اسر رجالها في حصن الكرك، فأرسل صلاح الدين إليه مطالباً برد الثروة والأسرى، لكن أرناط أبى ذلك، وتدخل ملك بيت المقدس جان لوزجنان، وطلب من أرناط برد كل ما أخذه إلى صلاح الدين خشية عاقبة ذلك، لكنه رفض أيضا، وهنا قام صلاح الدين بحركة تعبئة

شاملة لكل قوى دولته استعداداً لحرب لم تتوقف إلا في نهاية القرن الثالث عشر بعد القضاء على آخر البقايا الصليبية في الشام.

ومع بداية تلك المرحلة الحاسمة كان لابد وأن يقيم صلاح الدين في دمشق وليس في القاهرة، وخرج صلاح الدين من دمشق في منتصف مارس سنة ١١٨٧م، فقصد الكرك أولاً وبعد أن نازلها وقطع أشجارها قصد إلى الشوبك وفعل بها مثل ذلك، ثم اتجه إلى بانياس لمراقبة الموقف.

وقد اضطر الملك جاى لوزجنان ملك بيت المقدس أن يحشد جيوشه قرب صفورية في مايو سنة ١١٨٧م، فسقط جيشه بين قتيل وأسير، فما كان من ريموند الثالث أن ينقض تحالفه مع صلاح الدين وجمع جيشه والجيوش الصليبية في صفورية استعدادا للانتقام.

ورد صلاح الدين على هذا التحالف الصليبي بمهاجمة طبرية في يوليو سنة ١١٨٧م، وأحرقها، وذلك حتى يضطر الصليبيين إلى ترك صفورية، وقد نجحت خطة صلاح الدين فاتجه الصليبيون للفاع عن طبرية ووصلوا إلى قرون حطين بعد أن أجهدهم مشقة السفر والحر، فأحاط صلاح الدين بالصليبيين في ٤ يوليو، ودارت موقعة حطين الشهيرة، وقتل الصليبيون تقتيلا، فاستسلموا لقوات صلاح الدين.

وكان من جملة الأسرى الملك جاى لوزجنان، وأرناط، فأحسن صلاح الدين استقبالهم في خيمته ما عدا أرناط قتله صلاح الدين بنفسه.

وبدلا من أن يتجه صلاح الدين صوب بيت المقدس ليستولى عليها في سهولة بعد أن غدت المملكة الصليبية دون جيش، وملكها أسير، اتجه صلاح الدين إلى الموانئ الساحلية ليحرم الصليبيين من أي معونة تأتيهم من غرب أوروبا عن طريق البحر. فأستولى في ٨ يوليو على عكا في سهولة، ومنها أرسل جيوشه للاستيلاء على الناصرة، وقيسارية، وحيفا، وصفورية، وغيرهم.

هذا في الوقت الذي زحف العادل من مصر واستولى على يافا، كما استولى صلاح الدين على بيروت. ولما كان صلاح الدين يترك الحرية للصليبيين أن يبقوا أو يرحلوا، فتجمعوا كلهم في صور.

اتجه صلاح الدين بعد ذلك إلى بيت المقدس، وكان أهالي المدينة من الصليبيين قد حصنوا مدينتهم على قدر ما استطاعوا. لذلك رفضوا نداء صلاح الدين بتسليم المدينة – فهجم على المدينة من الجهة الشمالية والتي كانت أقل تحصيناً، ووافق على خروج الصليبيين آمنيين مقابل فداء معين ودخل بيت المقدس في ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م، وقد ناسبت الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج.

كما اتجه بعد ذلك صلاح الدين إلى شمال الشام فاستولى على اللاذقية أكبر موانئ إمارة أنطاكية، كما استولى على بعض قلاع إمارة طرابلس، وهنا ارتفع صوت البابوية ينادي ملوك أوروبا بحملة صليبية كبرى وقد استجاب لهذه الحملة ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، وفريدريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، وقد انتهى هذا الأمر بغرق إمبراطور ألمانيا في أحد أنهار آسيا الصغرى وتشتيت حملته، بينما وصل ملك فرنسا عن طريق البحر إلى عكا في أبريل سنة ١١٩١م، ووصل ريتشارد في ٨ يونيو، وإذا كان الخلاف بين ملك فرنسا وملك إنجلترا أدى إلى عودة ملك فرنسا، فإن المعارك التي خاضها ريتشارد قلب الأسد ضد صلاح الدين أدت إلى توقف الحرب وقبول المفاوضات التي انتهت بصلح الرملة في ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢م، والذي ينص على أن للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا وما عدا ذلك بما فيه بيت المقدس للمسلمين.

وقد توفى صلاح الدين بعد موقعة حطين بعام واحد بعد مرض لم يهمله طويلاً- أما ريتشارد قلب الأسد فقد عاد إلى بلاده حزيناً لأنه لم ينجح في الاستيلاء على بيت المقدس، وترك عكا هي قلب النفوذ الصليبي بدلاً من بيت المقدس، ولكن ريتشارد قلب الأسد وقع أسيراً في طريق عودته إلى بلاده حيث أسره جنود النمسا ولم يفك أسره إلا بعد دفع دية كبيرة.

الملوك بعد صلاح الدين :

ترك صلاح الدين ١٧ من الأبناء، كان أكبرهم هو الملك الأفضل نور الدين علـــي، وكانت له دمشق (الشام) من وفاة والده سنة ١١٩٣م، وحتى ســـنة ١١٩٦م، أمـــا الابن الثاني فهو الملك العزيز عثمان، وكانت له مصر من وفاة والده وحتى ســـنة ١١٩٨م، كما أخذ الابن الثالث وهو الملك الظاهر غازى حلب وشمال الشام، وذلك من وفاة والده وحتى سنة ١٢١٥م، أما الملك العادل سيف الدين – أخـــو صـــلاح الدين – فكان له الكرك والأردن والجزيرة وديار بكر، أما الأخ الرابـــع لصـــلاح الدين وهو سيف الإسلام طغتكين، فقد أخذ اليمن وجزيرة العرب، أما بقية العائلـــة الأيوبية فقد حصل كل منهم على اقطاعات ثانوية صغيرة.

وأوصى صلاح الدين أن يكون لابنه الملك الأفضل السلطنة من بعده، ولما كـــان الملك الأفضل مستهتراً، وقد ترك كل شئون الدولة في يد وزيره ضياء الدين ابـــن الأثير (أخى المؤرخ الشهير)– الأمر الذى أدى إلى أن يزحف العزيز عثمان إلـــى الشام سنة ١١٩٤م، ليحاصر أخيه الأفضل، لكن الأفضل يســـتنجد بعمـــه الملـــك العادل الذي استطاع أن يحشد رجال الأسرة الأيوبية، واتفق مع العزيـــز عثمـــان على اعطاءه بيت المقدس وما جاوره من مدن فلسطينية.

وأمام الشكاوى التي وصلت إلى العزيز عثمان من استهتار أخوه الأفضل زحـــف إلى دمشق مرة أخيه، ولكن لم يتمكن وعاد إلى مصر نتيجة مهاجمة أمراء البيـــت الأيوبي لمدينة بلبيس، ولكن اقتنع الملك العادل بعد ذلك بضـــرورة خلـــع الملـــك الأفضل فزحف هو والعزيز عثمان على دمشق سنة ١١٩٦م، وأصبـــح العزيـــز عثمان هو السلطان بعد خلع الأفضل.

وفي تلك الفترة حضرت حملة صليبية ألمانية واستولت على بيروت، فتعاون الملك العادل والعزيز عثمان في أوائل سنة ١١٩٨م، على طرد تلك الحملة، وفي نوفمبر من نفس السنة يتوفى العزيز عثمان في العباسة، ويترك طفلاً في العاشرة.

وأرسل فخر الدين أحد أهم المسئولين في مصر إلى الملك العادل بتســـلم مقـــاليد الأمورفي مصر– لكن مماليك مصر استدعوا الملك الأفضل إلى مصر في ينـــاير سنة ١١٩٩م– واتفق الملك الأفضل مع أخيه الملك الظاهر صاحب حلب على أخذ

دمشق من عمه- ولكن ينتهي الأمر والحصار بالفشل بل تبع الملك العادل الملك الأفضل أثناء عودته إلى مصر وهزمه في بلبيس، وأصبحت مصر خالصة للملك العادل اعتباراً من فبراير سنة ١٢٠٠م، وتوحدت الجبهة الإسلامية مرة أخرى في يد العادل.

أدرك الصليبيون أهمية مصر، وأنه لا بقاء لهم في الشام دون أن يسيطروا على مصر، فخرجت حملة صليبية كبيرة في أوائل القرن الثالث عشر (وهي الحملة الصليبية الرابعة) وقد انحرفت إلى القسطنطينية، ولم تصل إلى مصر أو الشام - ولكن عمورى الثانى اعتقد أنها في الطريق إليه، ولكنها أسقطت الإمبراطورية البيزنطية وأقامت بدلاً منها إمبراطورية لاتينية، فتربص عمورى الثاني لأسطول تجارى (٢٠ سفينة) قادم من مصر إلى موانئ الشام، واستولى على ما فيها من بضائع قدرت بنحو ٦٠ ألف دينار، ورجال بلغوا المائتين بحجة بأن أمير صيدا يعتدى على سفنه، ولم يكتفى عمورى الثاني بذلك بل عمد على الإغارة على إقليم بين عكا وطبرية - فخرج إليه العادل وأجبره على العودة وإبرام صلحاً في سبتمبر سنة ١٢٠٤م، والذي نص على إعادة أسرى المسلمين.

قام البابا بدعوة لحملة جديدة هي الحملة الصليبية الخامسة، وأيقن ملك مملكة بيت المقدس في عكا أن مصر يجب أن تكون هي الهدف، وخرج الملك الصليبي على رأس أسطول قاصداً دمياط في أواخر مايو سنة ١٢١٨م، ولما علم الملك الكامل بنزول الصليبيين على الضفة الغربية للنيل في مواجهة دمياط - نصب معسكره- جنوبي دمياط، وقد تمكن الصليبيون بعد ثلاثة أشهر كاملة من الاستيلاء على بوج * السلسلة وتحطيم السلاسل التي تعترض طريق السفن، وقد توفى السلطان العادل حزناً في أغسطس سنة ١٢١٨، بعد أن علم بسقوط برج دمياط، وعندما علم الملك الكامل بوصول إمدادات من أوروبا الصليبين في الوقت الذي قام البعض بتدبير المؤامرات ضد الملك الكامل عرض على الصليبيين إحياء مملكة بيت المقدس، لكن مندوب البابا رفض هذا العرض، ووقعت دمياط في يد الصليبيين الذين سفكوا دماء المصريين بها.

وقام الأيوبيين بإقامة خطأ دفاعياً قبالة طلخا، وشّيد الملك الكامل منزلة على الضفة الشرقية للنيل أطلق عليها اسم المنصورة. وما أن وصلت سفن الصليبين إلى نقطة تفرع بحر أشمون، فقطع المسلمون السدود فأحاطت المياه بالصليبين، ولم يبق لهم إلا طلب الصلح في أواخر أغسطس سنة ١٢٢١م، وتم جلاءهم عن دمياط بلا مقابل.

السلطان الكامل (١٢١٨-١٢٣١م):

ذكرنا فيما سبق أن الصليبين أدركوا بعد موقعة حطين أنه لا بقاء لهم في الشام دون أن يسيطروا على مصر فقد أثبت انتصار حطين أن مصر هي خط الدفاع الأول عن الشام وعن الحجاز، وهو ما أدركه عمرو بن العاص من قبل بعد أن تمكنت مصر الرومانية من استرداد شمال الشام من المسلمين.

وقد ترجمت أوروبا هذه النظرية بإرسال الحملة الصليبية الخامسة لمهاجمة مصر والتي – استطاعوا تدمير حصون دمياط في أغسطس سنة ١٢١٨م، والتي مات على أثرها الملك العادل حزناً لأنه أيقن أن دمياط ستسقط في أيدى الصليبيين.

وقد أظهر أبناء الملك العادل الثلاثة(الكامل والمعظم والأشرف) تضامناً قوياً بعد وفاة أبيهم الأمر الذى أعانهم على الانتصار على الحملة الصليبية الخامسة. لكن مع نهاية سنة ١٢٢٣م، وبداية سنة ١٢٢٤م، انقسم الأخوة الثلاثة إلى فريقين؛ الكامل حاكم مصر والأشرف حاكم الجزيرة من ناحية والمعظم حاكم دمشق من ناحية أخرى، بسبب محاولة المعظم في أن يضم أملاك أخويه الأشرف والكامل إلى أملاكه، ولذلك قبض المعظم على أخيه الأشرف عند حضوره إليه في دمشق لطلب المعونة منه من الخطر القادم من الشرق (الأتراك الخوارزمية في أصفهان ومن ورائهم التوسع المغولى الوثنى).

وأمام هذا الإنقسام استعاناً الفريقين بقوى خارجية، فاستنجد الملك المعظم بالأتراك الخوارزمية، في حين استنجد الملك الكامل والملك الأشرف بالإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة (صقلية) في غرب أوروبا، فهجم السلطان جلال الدين الخوارزمي على أملاك الملك الأشرف، وأرسل إلى الملك

المعظم بقطع الخطبة للملك الكامل في دمشق في سبتمبر سنة ١٢٢٧م، وتعهد الملك الكامل برد كل ما أخذه صلاح الدين إلى الصليبين مرة أخرى.

وفي يونيو ١٢٢٨ اتجه فردريك الثاني إلى بلاد الشام على رأس الحملة الصليبية السادسة، والتي لم تتعدى خمسمائة فارس فقط حيث كان يعتمد فردريك على ما وعده به الملك الكامل- في نفس الوقت كان هناك انقسام وخلاف شديد بين البابا والإمبراطورية فردريك فإلى جانب ما أصدره البابا جريجوري التاسع، من حرمانه (بسبب الصراع بين السلطة العلمانية والبابوية أو السلطة الدينية)، فإنه في نفس الوقت فقد أرسل البابا سراً إلى الملك الكامل ومعظم ملوك الأيوبيين يحرضهم على عدم تسليم بيت المقدس للإمبراطور.

ولكن قبل وصول الحملة الصليبية السادسة يتوفى الملك المعظم ويقسم الكامل والأشرف أملاكه، مع إرضاء ابنه الناصر بالكرك والشوبك، لذلك رفض الملك الكامل تسليم بيت المقدس لفردريك عند وصوله إلى الشام – فلجأ فردريك إلى التفاوض فأرسل رسولين إلى الملك الكامل يحملون بالهدايا الثمينة، وأمام رفض الملك الكامل بكى فردريك بكاءاً شديداً، وأرسل يستعطف الملك الكامل ويقول له: أنا ملوك من مماليك – وأمام استنجاد ابن أخيه الناصر بالأتراك الخوارزمية ضد عمه الملك الكامل، وافق الملك الكامل على إعادة بيت المقدس إلى الصليبين دون حرب وإبرام اتفاقية يافا في فبراير ١٢٢٩م، والتي بمقتضاها يعود بيت المقدس إلى الصليبين بشرط أن يبقى المسجد الأقصى بأيدى المسلمين- وقد كان الملك الكامل على حق فيما يبدو، فلم تمضى إلا شهور قليلة وإذا بالأتراك الخوارزمية يهجمون على أملاك الملك الأشرف في الجزيرة ويعتدون على زوجة الملك الأشرف، ولكن سرعان يشتت شمل الخوارزمية نتيجة اتحاد الأيوبيين وسلاجقة الروم في معركة في أغسطس سنة ١٢٣٠م. .

وفي أغسطس سنة ١٢٣٧ انشق الملك الأشرف صاحب دمشق على أخيه السلطان الكامل، وبدأ يدبر ثورة كاملة ضده، ورغم وفاة الملك الأشرف في آخر أغسطس إلا أن معظم البيت الأيوبي اتفقوا ضد الملك الكامل- لكن الملك الكامل سرعان ما

يصل إلى دمشق ويحاصرها، ويقضي على تلك الحركة في أوائل سنة ١٢٣٨م، ولكن في مارس من نفس السنة يتوفى الملك الكامل.

السلطان الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠-١٢٤٩م):

بعد وفاة الملك الكامل في مارس سنة ١٢٣٨م، تولى ابنه العادل الثاني السلطنة، وأصبح سلطاناً على مصر وصاحب السلطة العليا على الدولة الأيوبية، ورغم أن الملك الكامل كان قد أعاد بيت المقدس إلى الصليبين إلا أن البابوية دعت بعد وفاة الملك الكامل لحملة صليبية جديدة وصلت إلى عكا بساحل الشام في أول سبتمبر سنة ١٢٣٩م، فأسرع الناصر داود بالاستيلاء على بيت المقدس، فقرر الصليبيون احتلال دمشق لذلك اتجهت الحملة الصليبية إلى عسقلان وهي في طريقها إلى دمشق، لكن السلطان العادل الثاني (سلطان مصر) أرسل بجيشه من مصر لملاقاة الصليبين ومنعهم من الوصول إلى دمشق- وقد استطاع الجيش أن ينزل بالصليبين بهزيمة ساحقة قرب غزة في ١٣ نوفمبر سنة ١٢٣٩م، وسيق أسرى الصليبين إلى القاهرة.

وكالعادة سرعان ما انقسم أفراد العائلة الأيوبية على أنفسهم، وانتهى الأمر بأن عزلوا العادل الثاني في نهاية مايو سنة ١٢٤٠م، وتولى بدلاً منه أخوه الصالح نجم الدين أيوب.

وسرعان ما اختلف الملك الصالح نجم الدين أيوب مع عمه الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق بسبب أن الملك الصالح أراد أن يكافئ الملك الناصر داوود بحكم دمشق(الناصر داوود صاحب الأردن)، وهنا للأسف لم يجد الملك الصالح إسماعيل سوى أن يمد يده إلى الصليبين ليعاونوه ضد السلطان الصالح والملك الناصر داوود في مقابل تعهده لهم بإعادة بيت المقدس إليهم، وإعادة مملكة الصليبين في الشام والأردن إلى ما كانت عليه، ولإثبات صدق نيته نحو الصليبيين بادر بتسليمهم القدس وعدد من البلدان الشامية بل ووعدهم إن هم مكنوه من ملك مصر سيتنازل عن بعضها لهم.

وقد أسرع الصليبيون بوضع أيديهم على بيت المقدس، كما حضر الملك الصالح إسماعيل، وصاحب حمص الملك المنصور على رأس جيوشهما لمعاونة الصليبين في غزو مصر، لكن جيوشهما ما إن وصلت إلى غزة حتى انضمت إلى الجيش المصري في مهاجمة الصليبين (وعى الشعب الذي ------ في مأساة العوق).
وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للصليبين حيث كلن معظمهم بين قتيل وأسير، أما ما تبقى فقد انسحبوا إلى عقلان، وعقدوا الصلح مع الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة١٢٤٠م، الأمر الذي أدى إلى عودة الحملة الفرنسية إلى بلادها، لكن في الشهر التالي وصلت في أكتوبر حملة صليبية أخرى بقيادة أخو ملك إنجلترا للتأكيد على سيادتهم على بيت المقدس، والحصون التي لهم في فلسطين، وقد وافق الملك الصالح على ذلك فعادت الحملة من حيث أتت.
وعاد الانقسام إلى البيت الأيوبي فانضم الناصر داوود صاحب الأردن إلى الصالح إسماعيل صاحب دمشق ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولجأ الطرفان إلى الصليبين على أن يكون للصليبين المسجد الأقصى، وقد كان ذلك سنة ١٢٤٣م، (وهو كان للمسلمين في بيت المقدس) وسرعان ما علقت الأجراس على المسجد، وأبطل الأذان – ولكن سرعان ما اضطر الصليبيون إلى أن يكونوا في طرف واحد من الطرفين فاختاروا طرف الشوام لأنهم أقرب إليهم، وقرر الجميع غزو مصر(لأن في انضمامهم لطرف الشوام أمل في الحصول على مصر)- وأقام هذا التحالف الشامي الصليبي، اضطر الملك الصالح نجم الدين أيوب أن يستنجد بالخوارزمية في آسيا الصغرى، فاقتحم الخورازمية بيت المقدس في ١١ يوليو سنة ١٢٤٤م، واستولوا عليها في سهولة ولم يجد الصليبيون أمامهم إلا أن يطلبوا تأمين خروجهم إلى يافا، وقد كان ذلك آخر خروج للصليبين من بيت المقدس.
وبعد أن استعاد الخوارزمية بيت المقدس اتجهوا نحو غزة للانضمام إلى الجيش الذي أرسله الملك الصالح من مصر في أكتوبر سنة ١٢٤٤م، وبغد ذلك بأيام (في١٧ أكتوبر) وصل الحلف الشامي الصليبي إلى غزة وقدرت خسائر الصليبين في هذه المعركة بـ ٣٠٠٠٠ قتيل، ٨٠٠ أسير، ثم اتجه الجيش المصري نحو دمشق حيث استولى عليها، أما الخوارزمية فقد ترك لهم الملك الصالح الساحل

الشامي لملاحقة الصليبيين، ثم عمل بعد ذلك على تشتيت شـــملهم بعـد أن علــم بتآمرهم عليه.

وفي يونيو سنة ١٢٤٧م، تمكنت جيوش الملك الصالح من الاستيلاء على ما تبقـى في أيدي الصليبيين من يافا إلى عكا، واضطر ملوك الدولة الأيوبيــة أن يقدمـوا عروض الطاعة إلى الملك الصالح الذى استطاع أن يعيد توحيد الدولة.لم تســكت البابوية على ما حدث للصليبيين فدعا البابا لحملة صليبية جديدة (الحملة الســابعة) والتي لم يستجل لها – سوى لويس التاسع ملك فرنسا– ولمـا علـم الإمـبراطور فردريك أرسل سراً إلى الملك الصالح يخبره باستعدادات فرنسا، وقد استفاد الملـك الصالح من هذه الأخبار حيث أمر على الفور بنقله إلى القاهرة حيث كان مريضــاً في دمشق في تلك الفترة.

وفي يونيو ١٢٤٩ هاجم لويس التاسع دمياط، وكان في انتظاره الملك الصالح فـي أشموم طناح– ولا نعلم لماذا أمضى لويس التاسع خمسة أشهر كاملة فـي دميـاط التي دخلها فلم يجد فيها احد، ويبدو أن السبب أنه كان ينتظر وصول نجدة بقيــادة أخيه– وقد نقل الملك الصالح إلى قلعة المنصـــورة، وقبـل أن يتحـرك الجيـش الصليبي نحو الجنوب توفى الملك الصالح في ١٣ نوفمبر سنة ١٢٤٩م.

ورغم تكتم شجر الدر على وفاة الملك الصالح وإرسالها ابنه الوحيد تـوران شــاه ليحضر على وجه السرعة من حصن كيفا وديار بكر، علم الصليبيون بوفاة الملـك الصالح فانتهز لويس التاسع هذه الفرصة لمهاجمة القاهرة، لذلك تحرك من دميـاط في ٢٠ نوفمبر سنة ١٢٤٩م، حتى وصلوا إلى المنصورة فقاتلهم المماليك البحريـة بزعامة بيبرس البندقدارى الصالحى حيث قتلوا من الصليبيين عدة آلاف في هــذه الفترة وصل المعظم توران شاه إلى المنصورة في نهاية فبراير سنة ١٢٥٠م.

وأمام الضربات القوية التي تلقاها الجيش الصليبي عرض لويس التاسع أن ينسحب من مصر نظير استرداد بيت المقدس، لكن السلطان توران شاه رفض هذا العرض وشن الجيش المصرى هجوماً شاملاً في فارسكور أثناء محاولة انســحابهم إلــى دمياط حتى وقع الجيش الصليبي بأجمعه بين قتيل وأسير حتــى كــان مــن بيــن الأسرى الملك لويس التاسع الذى سجن في دار ابن لقمان، وقد كان ثمن فك أسـوه

تسليم دمياط كما طالب توران شاه بمبلغ كبير لفك أسرى الجنود الفرنسيين، لكن لم ينتهى الأمر سنة ١٢٥٠م بذلك، وقد قتل توران شاه وبه انتهت الدولة الأيوبية.

الفصل السابع

مصر في عصر دولة المماليك

الفصل السابع

مصر في عصر دولة المماليك

أولاً: مصر في عصر دولة المماليك البحرية :

لم يكن شراء المماليك والاعتماد عليهم في الحكم والحرب بدعة ابتدعها الأيوبيون، فقد اتبع الطولونيون والإخشيديين والفاطميون نفس السياسة، ولكن الأيوبيين هم الذين أسرفوا في شراء المماليك الأتراك، وبنوا لهم ثكنات في جزيرة الروضة، فاكتسبوا اسم المماليك البحرية، وولوهم مناصب الحكومة، واستفحل أمرهم حتى تمكنوا من انتزاع الحكم من الدولة الأيوبية وإقامة دولة مملوكية جديدة.

كانت الغالبية العظمى من جماعات المماليك الذين جلبهم الأيوبيون وسلاطين المماليك من بعدهم إلى مصر، تأتي من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر، فكانوا خليطاً من الأتراك والشراكسة والروم والروس والأكراد، فضلاً عن أن أقلية من مختلف البلاد الأوروبية. وكان المماليك فيما بينهم ينقسمون إلى أحزاب متطاحنة، ولكن هذا الانقسام الداخلي لم يؤثر على وحدتهم كطائفة أو مجموعة إزاء العالم الخارجي الذي كانوا يواجهونه كعصبة واحدة، مما يفسر لنا سر قوتهم وانتصاراتهم الحربية إزاء عدوهم المشترك.

وقد بحثنا في الفصل السابق عن تحديد موعد سقوط الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية، ورأينا أن شجر الدر آخر حكام الدولة الأيوبية، وأن **عز الدين أيبك** هو أول الحكام المماليك، ولم يكن أيبك أعظم مماليك مصر، بل كان هناك من يفوقونه شخصية وقوة، ولكنهم تنازعوا على السلطنة، ورأوا أن اختيار أيبك يخلصهم من الصراع والنزاع، فقد كان أقلهم شأناً.

لم يركن الأيوبيون إلى الاستكانة إزاء ضيع السلطة من أيديهم، وانتقال الحكم إلى المماليك، فبدأ كفاحهم من أجل بقاء الدولة الأيوبية، وخاصة بعد تنازل شجر الدر عن السلطنة لأيبك، فقد اعتبروه تنازلاً من سلطانة أيوبية إلى قائد مملوكي. وحاول أيبك تسكين خواطرهم، فأشرك أمير أيوبي في السادسة من عمره معه في

السلطنة، ولكن الأيوبيين ادركوا الخدعه، فعلن ايبك أن مصر تابعة للدولة العباسية وأنه يحكم مصر بالنيابة عن الخليفة العباسي في بغداد. وخرج الأيوبيون إلى الشام يستعدون للزحف إلى القاهرة. وبعث أيبك قائده أقطاى لقتالهم فهزمهم عند الصالحية، وفر الناصر الأيوبي، وتدخل الخليفة العباسي بين أيبك والناصر وتمكن من عقد الصلح بينهما، فقد رأى الخليفة أن يتحد الزعماء المسلمون إزاء تهديد المغول للعالم الإسلامي، واتفقا على " أن يكون للمصريين إلى الأردن وللناصر ما وراء ذلك، وأن يدخل فيما للمصريين غزة والقدس والساحل كله".

وتعرض لأيبك بعد ذلك لثورة الأعراب الذين أغضبهم استبداد المماليك الأتراك بالحكم، واعتبروا أنفسهم أحق منهم بالحكم، ووصفوا المماليك أنهم " خوارج على البلاد". وانتهز أيبك فرصة ازدياد خطر المغول، فخلع الأمير الأيوبي الطفل وسجنه في القلعة، ثم بعث أقطاى على رأس جيش فأخمد ثورة الأعراب.

ثم بدأ الصراع بين أيبك وأقطاى، فقد شعر أقطاى بفضله على أيبك، وطمع في الاستبداد بالسلطة، واشتد النزاع بين مماليك أيبك وأقطاى، وكلهم من المماليك البحرية، وعانى المصريون من نتائج هذا الصراع فقد حل بهم " بلاء لا يوصف ما بين قتل ونهب وسبي بحيث لو ملك الفرنج بلاد مصر ما زادوا في الفساد على ما فعله البحرية!!". وانتهى الصراع بتدبير أيبك مؤامرة انتهت بمصرع أقطاى غدراً، وهرب رجاله إلى بلاد الشام، ورأى أيبك أن يتحالف مع أمير الموصل ليستعين به في تدعيم حكمه، وعرض عليه أن يتزوج من ابنته، وغضبت شجر الدر لتنكر أيبك لها وعزمه على الزواج من غيرها، رغم ما قدمته له من معاونات، فأقدمت على قتله، وعرضت السلطنة على بعض الأمراء فرفضوا أن يتولوها في هذه الظروف الحرجة.

اختار أمراء المماليك **المنصور** على ابن السلطان أيبك ليخلف أباه في السلطنة، فثار لأبيه من شجر الدر فقتلها بعد مصرع أبيه بأيام ثلاثة، ولما كان المنصور طفلاً في الحادية عشرة من عمره، فقد تولى الأمير المملوكي **سيف الدين قطز** منصب (أتابك السلطان) وأصبح صاحب السلطة الحقيقية في الدولة المملوكية، ثم

ما لبث قطز أن انتهز سقوط بغداد في أيدي هولاكو والمغول، وبداية تهديد المغول لبلاد الشام، حتى خلع السلطان الطفل وسجنه.

قطز والمغول :

قامت الدولة المغولية في عصر جنكيز خان في وسط آسيا، الذى انتزع بعض أجزاء من إمبراطورية الصين، كما استولى على بعض الأقطار الإسلامية المجاورة، ثم اصطدم المغول بالدولة الخوارزمية وقضوا عليها، كما قضوا على طائفة الإسماعيلية واستولوا على إيران. ثم نجح المغول في عصر هولاكو في القضاء على الخلافة العباسية وفتح بغداد سنة ٦٥٦هـ، وبدأ المغول زحفهم غرباً إلى الشام ثم إلى مصر.

كان المغول ينزلون بما يستولون عليه من مدن التخريب، وارتكبوا كثيراً من الفظائع والمذابح، مما ألقى الرعب في قلوب الناس، ولذا آثر الناصر يوسف الأيوبي أمير حلب مسالمة المغول، بل استنجد بهم ضد الدولة المملوكية. وتوجه بعض المماليك إلى الملك المغيث عمر أمير الكرك، وطلبوا منه أن يزحف إلى مصر للقضاء على حكم أقطاى، وليوحد القوى الإسلامية أمام الغزو المغولي، ولكن قطز نجح في هزيمته فأسرع بالهرب إلى الكرك، وخلع قطز السلطان الطفل- كما ذكرنا- وأعلن نفسه سلطاناً.

بدأ هولاكو غزوه لبلاد الشام، واستولى على بعض مدنها، واضطر الناصر يوسف أمير حلب إلى أن يبعث برسله إلى المغيث أمير الكرك وإلى قطز سلطان مصر يطلب منهما أن يوحدوا جميعاً جهودهم ضد المغول، واستجابا لندائه، وقدم بيبرس ومماليكه على قطز وأعلن تأييده له واستعدادهم جميعاً لمعاونته في صد المغول.

أخذ قطز يحشد جيوشه، ثم خرج إلى الصالحية على حدود مصر، وتحالف هولاكو من ملك أرمينيا الصغرى ومع أمير أنطاكية الصليبي، وأخذ يستعد للزحف إلى مصر، ولكن هولاكو اضطر إلى العودة إلى عاصمة الدولة لوفاة منجك خان المغول الأعظم ولاختيار الخان الجديد ، وولى بدله كتبغا الذي نجح في فتح دمشق، وحاول محالفة الصليبيين في عكا، ولكنهم آثروا الحياد.

نجح المماليك في إنزال هزيمة ساحقة بالمغول في موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ، وقضى المماليك على نصف جند المغول تقريباً وفي مقدمتهم كتبغا، ولجأ الباقون إلى الفرار، واسترد المماليك دمشق ومدن الشام.

وكان لهذا الانتصار نتائجه الباهرة، فقد كانت أول هزيمة تلحق بالمغول في موقعة فاصلة، وبذلك انهارت الخرافة القائلة بأن المغول قوم لا يغلبون.

أما من ناحية دولة المماليك الناشئة، فأدى انتصار قطز في عين جالوت إلى اكتسابها قوة دعمت مركزها في العالم الإسلامي. حقيقة أن موجة التوسع المغولى قاربت نهايتها في غرب آسيا بوصولها إلى الشام وفلسطين، بعد أن قطع المغول آلاف الأميال منذ اندفاعهم من جوف القارة الأسيوية، فكان لابد لهذه الموجة أن ينتهى أمرها إلى التوقف تلقائياً، لكن هذه الخاتمة الطبيعة لم تتضح للمعاصرين الذين لمسوا أمراً واحداً هو أن هزيمة المغول جاءت على أيدى سلطان من المماليك، وهكذا استمد المماليك من هذا النصر هيبة وقوة، بعد أن أثبتوا صلاحيتهم للحكم ومقدرتهم في الدفاع عن الشام ومصر ضد أكبر خطر هدد منطقة الشرق الأدنى في القرن الثالث عشر.

كان قطز قد وعد الأمير بيبرس البندقدارى أن يمنحه إمارة حلب إذا أبلى بلاء حسناً في قتال المغول، وطالب بتنفيذ الوعد بعد انتصاره في عين جالوت، ولكن قطز تناسى وعده مما أغضب بيبرس ومماليكه، ولذا تآمروا على قتله أثناء عودته إلى مصر في ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ.

مصر في عصر بيبرس :

أصبح بيبرس بعد مصرع قطز سلطاناً للدولة المملوكية في ذي الحجة سنة ٦٥٨هـ(١٢٦٠م)، ويعتبر بيبرس من أعظم سلاطين المماليك، فقد وطد دعائم الدولة المملوكية الوليدة، كما أحيا الخلافة العباسية في القاهرة بعد أن غربت شمسها في بغداد بعد الغزو المغولى.

بدأ بيبرس عهده بأن استرضى المصريين بأن ألغى بعض الضرائب التي كان قطز قد فرضها وأثارت شكواهم، ولكن ما لبث أن قامت في وجهه ثورة أعلنها

الأمير سنجر الحلبي نائبه في دمشق، فخلع طاعة بيبرس واتهمه بقتل قطز، وأعلن نفسه سلطاناً على دمشق، فبعث بيبرس بجيش أرغم سنجر على الفرار، وعادت دمشق وما يتبعها من مدن إلى طاعة بيبرس. ودعم بيبرس نفوذه بأن قتل المغيث أمير الكرك الأيوبي فاختفت تماماً كل آثار الحكم الأيوبي في بلاد الشام.

كانت نهاية بيبرس من هذه المتاعب عاملاً على تفرغه للأعداء الخارجيين الألداء: المغول والصليبيين. فقد كان المغول يتطلعون للأخذ بثأر هزيمتهم في عين جاولت، وأملوا في التحالف مع الصليبيين، ولكن القوى الصليبية كان قد لحق بها الضعف فلم تعد يحفل بيبرس بها. وتحالف بيبرس مع طائفة أخرى من المغول هم مغول القفجاق(القبيلة الذهبية) وكان ملكهم قد اعتنق الإسلام وأصبحوا في عداء لمغول فارس.

مات هولاكو؛ فخفت روح العداء، وأراد ابنه وخليفته (أبغا) عقد صلح مع بيبرس، ولكن بيبرس رفض عرضه، فلم ينس المسلمون بعد ما أنزله المغول بمدن العراق والشام من فظائع وآثام. فبعث أبغا رسله إلى الإمبراطور البيزنطي ينشد صداقته، وأراد التحالف مع الصليبيين ضد المماليك فحسب. وبعث بيبرس جيوشه لقتال المغول، فاشتبكت معهم في سلسلة طويلة من الحروب، تخللتها هزائم كثيرة أنزلها المماليك بالمغول، وتوفى بيبرس خلال القتال.

أحيا بيبرس الخلافة العباسية، وسنفصل الحديث عن ذلك بعد قليل، ووضع بيبرس نظام ولاية العهد لأول مرة في الدولة المملوكية، فحصر السلطنة في أسرته، إذ عهد لابنه محمد بركه خان بالسلطنة من بعده. واهتم بيبرس بكثير من الإصلاحات الداخلية، فنظم القضاء، وولى قضاة من المذاهب الأربعة، واهتم بالزراعة وحفر الترع، وأنشأ المدارس، واهتم بالجيش والأسطول، وبنى كثيراً من المساجد أشهرها مسجد الظاهر، واهتم بالأخلاق فمنع بيع الخمور وأقفل الحانات ونفى من عرفوا بالمجون، واشتهر بالعدل، فكان يجلس للمظالم بنفسه، ونجح في إضعاف الصليبيين، فانتزع منهم قيسارية وأرسوف وصفد ويافا وطرابلس وأنطاكية.

إحياء الخلافة العباسية في القاهرة.

أسدل الستار على المأساة الأليمة التي دارت حوادثها في بغداد حين قتل هولاكو المغولي المستعصم آخر خلفاء العباسيين في بغداد سنة ٦٥٦هـ(١٢٥٨م) وغربت شمس الخلافة العباسية في بغداد لتشرق مرة أخرى في سماء القاهرة.

قتل هولاكو الخليفة المستعصم ووليه أبا العباس أحمد وأبا الفضل عبد الرحمن، وأصبح العالم الإسلامي منذ سنة ٦٥٦هـ بدون خليفة، وأوجد غروب شمس الخلافة في بغداد فراغاً كبيراً شعر به كل مسم أو حاكم إيلامي، ولكن انشغل حكام المسلمين بصد المغول عن إحياء الخلافة.

وكان أول من فكر في إحيائها الناصر يوسف الأيوبي أمير دمشق، فقد بايع الأمير العباسي أبا العباس أحمد خليفة ليتخذه سلاحاً يشهره في وجه المماليك في مصر.

ثم حدث أن قدم قطز إلى دمشق بعد انتصاره في عين جالوت، ويروى السيوطي أن قطز بايع العباس أحمد بدمشق، وأن الخليفة الجديد قاد جيشاً صغيراً من العرب هزم به المغول، وأنه كان ينوى الرحيل إلى بيبرس في القاهرة، ولكنه علم بقدوم أمير عباسي آخر إلى القاهرة، فعدل عن الرحيل واتجه إلى حلب حيث بايعه أميرها بالخلافة ولقبه(الحاكم بأمر الله).

هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح التام، فكان نور الخلافة ما يكاد يضيء حتى يخبو مرة أخرى، وما لبث أن أشرقت شمس الخلافة في سماء القاهرة، فقد حدث في سنة ١٢٦٢م أن بعث الأمير علاء الدين طيبرس والأمير علاء الدين البندقدارى إلى الظاهر بيبرس، السلطان المملوكي في القاهرة، يخبرانه بقدوم أمير عباسي هو أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام العباسي، ومعه جماعة من عرب خفاجة يؤكدون صحة نسبه، ورد بيبرس عليهما يوصيهما خيراً بالأمير العباسي وصحبه ويأمرهما بإنفاذه إليه في الحال.

وبعد فترة وجيزة، عقد بيبرس مجلساً في قاعدة الجبل لإثبات نسب الإمام حضره الأمراء والفقهاء والقضاة، وأكد العرب المرافقون للأمير لقاضي القضاة صحة نسبه، وأنه ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ابن الخليفة الناصر لدين الله. وقبل قاضي القضاة شهادتهم وحكم بصحة نسبه وبايعه بالخلافة.

وتقدم الظاهر بيبرس إليه يبايعه بالخلافة أيضاً. وأقبل الحاضرون بدورهم يبايعون الخليفة العباسي الجديد، ولقبه المستنصر بلقب (المستنصر بالله) وأمر بأخذ البيعة له من عامة الناس، ونقش اسم الخليفة على السكة إلى جانب اسمه، والدعاء للخليفة في خطبة الجمعة قبل الدعاء للسلطان، وفي يوم الجمعة وقف الخليفة الجديد يخطب في المصلين خطبة أطنب فيها في الثناء على بيبرس لإحيائه الخلافة العباسية.

يرى (توماس أرنولد) أن الظاهر بيبرس أراد أن يكسب حكمه صبغة شرعية، مثله في ذلك مثل أسلافه من المماليك " الأرقاء الأتراك" وإن اختلفت وسائلهم عما اتبعه بيبرس، فقد كان أسلافه يدعون أنهم يحكمون مصر كأوصياء على الأمراء الأيوبيين الأطفال، فحكم أيبك مصر عوضاً عن طفل أيوبي من أحفاد صلاح الدين، ثم حكم قطز وصياً على أمير كفل آخر. أما السلطان بيبرس فقد رأى أن يعتمد على الخلافة العباسية في توطيد دعائم سلطته.

أما المؤرخ(وايت) فيرى أن بيبرس أراد من إحياء الخلافة العباسية أن يدعم سلطته فيصبغها بصبغة شرعية فيستطيع أن يمد سلطانه على الأراضي المقدسة في الحجاز. أما المؤرخ (وليم ميور) فيرى أن غرض بيبرس أن يقوى عرشه ضد أطماع أمراء المماليك، ومن جهة أخرى خوفاً من محاولة الشيعة إحياء الدولة الفاطمية، فقد رأى أنه لو نصب خليفة من السنيين فإنه يقضى على اية محاولة شيعية إذ يصبح حكمه في مصر شرعياً.

ولكن رأى (ميور) بعيد إلى حد كبير عن الصواب إذ أننا لا نجد ما يؤيده في المصادر العربية والإفرنجية، فإنه على أثر المؤامرة التي دبرت سنة(١١٩٥م) لإرجاع الخلافة الفاطمية بمصر لم يسمع عن أي محاولة أخرى إعادة الفاطميين إلى حكم مصر، ولعل (ميور) اعتقد أن طائفة الإسماعيلية التي كانت تقطن سورية وقتئذ والتي كانت على عداء مع بيبرس ربما تفكر في إعادة الخلافة الفاطمية، ولكن هذه الطائفة لم يكن لديها من القوة ما يجعلها تعمل على تقويض سلطة الظاهر بيبرس في مصر، كما أن المصادر لم تذكر شيئاً عن تفكيرهم في إحياء الخلافة الفاطمية.

ظل المماليك يشعرون دائما بأنهم محرجون لأصلهم غير الحر، ولأنهم اغتصبوا ملك مصر والشام من أصحاب البلاد الشرعيين، فأرادوا بهذا التصرف أن يضفوا على أنفسهم نوعا من المهابة وعلى حكمهم لباسا من الشرعية وعلو المكان، كما أن الظاهر بيبرس أراد أن يستمد من إقامة الخلافة العباسية في القاهرة دعامة يسند بها عرشه، ولا سيما بعد أن اكشف الدور الذى قام به في مقتل سلفه قطز.

أصبحت مصر مقر الخلافة وقلب العالم الإسلامي النابض، وأصبح السلاطين المماليك حماة الخلافة والخلفاء، ودعموا سلطتهم الزمنية بسلطة روحية دينية وأصبح الخليفة العباسي ألعوبة في أيدي السلطان المملوكي يحركه كيفاشاء، فلم يكن الخليفة العباسي إلا مظهرا خداعا جهد المماليك لإيجاده ذرا للرماد في العيون، حتى يقضوا على أطماع الطامعين في السلطة في مصر، ويمحوا الشكوك التي تقوم حول أحقيتهم في هذه السلطة. ولكن قرت عيون عامة الناس لإحياء الخلافة العباسية، وتبارى الشعراء في تخليد هذا الحدث العظيم وأدى وجود الخلافة في مصر إلى نشاط كبير في الحياتين العلمية والدينية.

طلب بيبرس من الخليفة أن يعطيه تفويضا شرعيا، وعقد اجتماعا لتلاوة هذا التفويض. ذكر الخليفة في نهاية النفويض أنه يرجو أن يعيد بيبرس الخلافة العباسية إلى مقرها في بغداد. وعلق المؤرخ (توماس أرنولد) على هذا التفويض الممنوح من الخليفة بقوله: ومن أهم مظاهر هذه الوثيقة ادعاء الخليفة السلطة على بلاد لم تقدم للدولة العباسية الطاعة منذ قرون، وادعاؤه أنه يملك السلطة العليا في العالم الإسلامي رغما عن أنه لا يملك جنودا ولا موارد مهما كان نوعها تحت تصرفه، كما أنه من الغريب أن يتدخل الخليفة في تفاصيل الإدارة لجهاز منظم لحكومة مصر.

بدأ بيبرس ينفذ رغبة الخليفة في إعادة الخلافة إلى بغداد، ليرضى الخليفة والمسلمين ويكسب المجد، فأعد جيشا وصحبه الخليفة ووصلوا إلى دمشق. وهناك نصحه بعض أتباعه المخلصين بالعدول عن تنفيذ هذا المشروع، وخوفوه من أن الخليفة حينما يتربع على عرش الخلافة في بغداد بعد القضاء على المغول سيعمل على القضاء على السلطنة المملوكية التي تسيطر على مصر والشام. وآمن بيبرس

غير واضح من الأصل

يحة، فترك الخليفة يخترق الصحراء برفقة قوة من الأعراب والترك.

في طريقه إلى بغداد، وعند مدينة " عانه" انضم إليه الأمير العباسي ... عبس وسبعمائة فارس تركماني، واتجهوا جميعاً نحو الحديثة ثم هيت ففتحوها، وشعر المغول بخطورة الخليفة فبعثوا بجيش هزمه واستشهد الخليفة وبعض الأمراء العباسيين، ونجا الأمير أبو العباس أحمد وهو الذى قدم إلى مصر وأصبح لقبه" الحاكم بأمر الله".

مصر في عصر سلاطين بيت قلاوون:

بعد وفاة بيبرس في ٢٧ من المحرم سنة ٦٧٦هـ(١٢٧٧م) تولى ابنه **السعيد بركه خان**،-وكان في التاسعة عشر من عمره، وحفل عهده بنزاع مستمر بينه وبين أمراء المماليك، ولذا بدأ هؤلاء الأمراء يدبرون المؤامرات لعزله من السلطنة، وبرز من بين هؤلاء الأمراء الأمير سيف الدين قلاوون، وكان قد اشتهر أمره في عهد بيبرس، وبدأ يسعى ليتولى السلطنة بدلاً من بركة خان.

توفى بركة خان سنة ٦٧٨هـ فتولى بعده أخوه **العادل بدر الدين سلامش**، وأصبح قلاوون أتابكاً له، وصاحب السلطة الحقيقية في مصر، وما لبث أن أجمع أمراء المماليك على خلع سلامش وسجنه في قلعة الكرك وولوا قلاوون السلطة.

أصبح **سيف الدين قلاوون** سلطاناً سنة ٦٧٩هـ(١٢٧٩م)، وظلت السلطة محصورة في بيته إلى نهاية دولة المماليك البحرية في مصر سنة ٧٨٤هـ، وفي عهد قلاوون وضعت بذرة دولة المماليك البرجية، فقد اشترى قلاوون آلافاً من المماليك كون منهم طائفة جديدة من المماليك أسكنها أبراج القلعة، فأصبح اسمهم المماليك البرجية، ليصبحوا عدته في الحكم، وتزايد نفوذهم شيئاً فشيئاً، حتى نجحوا فيا بعد في القضاء على دولة المماليك البحرية، وإقامة دولة لهم.

أعاد قلاوون إلى أذهان الشعب المصرى عصر بيبرس وما ساده من استقرار داخلى، واتبع قلاوون سياسة حكومية وإدارية نالت رضا جميع المصريين فشعروا بالهدوء والأمن، كما تابع قلاوون ما بدأه بيبرس فعمل على التخلص من الخطر

الصليبي والخطر المغولى، ففتح اللاذقية وطرابلس، وهزم المغول في عدة مواقع، واهتم قلاوون بالبناء والعمران، ومن آثاره قبته ومدرسته ومارستانه.

توفى قلاوون سنة ٦٨٩هـ(١٢٨٩م) فخلفه ابنه **السلطان الأشرف خليل**، وكان اختفاء قبضة قلاوون الحديدية كافياً لعودة الأمراء المماليك إلى أطماعهم القديمة وبداية الصراع بينهم، واشتبك الأشرف خليل معهم في نزاع مستمر وقتل بعضهم.

لا شك أن أعظم أعمال الأشرف خليل ما أقدم عليه من القضاء التام على الدولة الصليبية في الشام، واستيلائه على آخر معاقلهم في الشام وهي مدينة عكا سنة ٦٩٢هـ، وقد وصفه المؤرخ ابن إياس بأنه كان :" بطلاً لا يكل من الحروب ليلاً ونهاراً "، و أنه " لا يعرف من أبناء الملوك من كان يناظره في العزم والشجاعة والإقدام". وعاد الأشرف إلى مصر ليستمر في صراعه مع أمراء المماليك، ولكنهم نجحوا في تدبير مؤامرة انتهت بقتله.

بعد مصرع الأشرف تولى أخوه السلطان **الناصر محمد بن قلاوون** سنة ٦٩٣هـ(١٢٩٣م)، وتاريخ هذا السلطان المملوكي يدعو إلى الدهشة فقد تولى السلطنة ثلاث مرات، تخللها نجاح أميرين مملوكين في انتزاع السلطنة منه في فترتين، فقد نجح العادل زين الدين كتبغا ثم المنصور حسام الدين لاجين في تولى السلطنة دون الناصر لمدة أربع سنوات (٦٩٤-٦٩٨هـ).

لم يطل عهد **كتبغا**، فقد انتشرت المجاعة في مصر في عهده، ثم انتشرت الأوبئة، فتشاءم المصريون منه. كما عاث بعض أمرائه المماليك فساداً، وظهر منافس خطير هو **لاجين** الذي نجح في عزل كتبغا وخلفه في السلطنة في المحرم من سنة ٦٩٦هـ. وحاول كتبغا استرداد السلطنة دون جدوى فركن إلى الهدوء، وتخلص لاجين من الناصر بأن أقنعه بالرحيل إلى الكرك حيث يقيم حتى بلغ سن الرشد. ولكن الشعب المصرى سرعان ما سخط على حكم لاجين نتيجة سوء تصرف مماليكه، ونجح بعض المماليك الأشرفية في قتله.

عاد **الناصر** سنة ٦٩٨هـ مرة أخرى إلى السلطنة، ولكن الأمراء المماليك استبدوا بالسلطنة دونه؛ مما جعله زاهداً فيها، فعاد إلى الكرك مرة أخرى حيث عاش في هدوء بعيداً عن دسائس المماليك، ونجح **بيبرس الجاشنكير** في تولى السلطنة سنة

٧٠٨هـ ولكن الشعب المصرى كان يعطف على الناصر، معجباً بزهده في السلطنة، وما لبث أن شارك الأمراء المماليك الشعب المصرى في مشاعره، وأخذوا يراسلون الناصر ودعوه إلى العودة إلى مصر لتولي الحكم، واضطر بيبرس إلى التنازل عن السلطنة وخرج من مصر ناجياً بحياته، وعاد الناصر، ونجح في القبض على بيبرس في طريقه عند مدينة غزة.

تولى الناصر السلطنة للمرة الثالثة، واستمر يحكم ٣٢ سنة (٧٠٩-٧٤١هـ) تخلص فيها من منافسة أمراء المماليك، واكتسب محبة الشعب المصرى لما قام به من إصلاحات والقضاء على مفاسد المماليك، وازدهرت الأحوال الاقتصادية والحياة الثقافية، وتقدمت الفنون وشعر المصريون بالاستقرار والرخاء، وامتد نفوذ الناصر إلى اليمن والحجاز، وطرد الناصر آخر فلول الصليبيين في الشام وهزم المغول في عدة مواقع، واستولى على جزيرة أرواد الصليبية، ووضع الناصر نظماً إدارية راقية منظمة، واهتم بالبناء والعمران، ومن آثاره المدرسة الناصرية، ومسجد الناصر بالقلعة، وجدد مارستان قلاوون، وبنى القصر الأبلق في القلعة؛ وبنى سبيلاً ألحقه بمدرسته، واهتم بالزراعة والترع والجسور، ولذا تألم المصريون لوفاته سنة ٧٤١هـ.

سقوط دولة المماليك البحرية :

تولى بعد الناصر ابنه **سيف الدين أبو بكر** سنة ٧٤١هـ (١٣٤١م)، وتولى قوصون منصب (أتابك)، وسرعان ما دب النزاع بينهما، ونجح قوصون في قتل سيف الدين بعد ثلاثة أشهر من الحكم، فخلفه أخوه علاء الدين كجك، وكان طفلاً في السابعة تقريباً ، أصبح قوصون أيضا أتابكاً، وما لبث أن خلع السلطان بعد خمسة أشهر وولى، أخاه **أحمد الناصر**، وما لبث أن خشى هذا السلطان على حياته من قوصون فرحل إلى الكرك، وأراد أن يتخذها مقراً له، ولكن أمراء المماليك لم يرضوا عن تصرفه فعزلوه وولوا **أخاه إسماعيل** سنة ٧٤٣هـ الذي بدأ عهده بالزحف إلى الكرك والقضاء على أخيه أحمد الناصر. توفى إسماعيل سنة ٧٤٦هـ فخلفه أخوه **شعبان** الذي خاف على نفوذه من أخويه **حاجي وحسين**،

فألقى بهما في السجن، فثار عليه أمراء المماليك وخلعوه، وولوا أخاه **حاجي** سنة ٧٤٧هـ الذي بدأ عهده بقتل أخيه شعبان، فثار أنصاره عليه وقتلوه بعد عام واحد من تولية السلطنة فخلفه **الناصر حسن بن قلاوون** سنة ٧٤٨هـ، وكان طفلاً في الحادية عشر، فعزله الأمراء المماليك سنة ٧٥٢هـ، ولكن اشتداد التنافس بينهم حول الحكم اضطرهم إلى إعادته إلى السلطنة سنة ٧٥٥هـ فاستمر يحكم إلى سنة ٧٦٢هـ، ومن آثار هذا السلطان مسجد السلطان حسن الموجود إلى الآن قرب القلعة.

هذه الفترة المضطربة (٧٤١-٧٦٢هـ) هي فترة تولى أولاد الناصر السلطنة، وقد تولى ثمانية سلاطين في فترة قصيرة تبلغ ٢١سنة. ثم بدأت فترة أشد اضطراباً هي فترة تولى أحفاد الناصر السلطنة، وكان السلطان **المنصور صلاح الدين محمد** سنة ٧٦٢ه، الذي اشتبك في نزاع عنيف مع أتابكه يلبغا، فعزله يلبغا من السلطنة، فخلفه **السلطان شعبان ابن السلطان الناصر حسن**(٧٦٤هـ)، وفي عهده أغار القراصنة الصليبيون على أبي قير فأعملوا السلب والنهب، واختلف شعبان مع أمراء المماليك كالعادة، فقتلوه وخلفه **السلطان علاء الدين بن شعبان** سنة ٧٧٨هـ، واختلف مع بعض الأمراء فولوا **أنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون** السلطنة وأصبح لمصر سلطانان في وقت واحد، وتمكن علاء الدين بعد كفاح طويل من التخلص من منافسه وقتل يلبغا، وظل شعبان يحكم حتى توفى سنة ٧٨٣هـ، فخلفه آخر سلاطين المماليك البحرية **حاجي بن شعبان** سنة ٧٨٣هـ، وكان طفلاً، فتولى برقوق منصب (أتابك).

بدأ برقوق يعمل ليتولى السلطنة، ونجح في أن يكتسب تأييد سائر أمراء المماليك، وما لبث أن عقد مجلساً دعا إليه الخليفة والقضاة والأمراء، وشرح لهم اضطراب أحوال الدولة نتيجة صغر سن السلطان وضعفه، وأن الدولة في حاجة إلى شخصية قوية تقبض على زمام الأمور، فوافقوا جميعاً على خلع السلطان وتنصيب برقوق سلطاناً، فكان هذا إعلاناً عن نهاية دولة المماليك البحرية، وبداية عصر دولة المماليك البرجية.

بين المماليك والمغول :

نبدأ بدراسة علاقات المماليك ومغول فارس: حاول هولاكو بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ فتح الشام، ولكن قطز- كما رأينا - نجح في هزيمة المغول في عين جالوت هزيمة ساحقة، وخلف هولاكو ابنه **أباقا**، وحاول محالفة الصليبيين، ولكن الصليبيين كانوا أضعف من أن يصبحوا عنصراً له فائدته للمغول، ورد بيبرس على مشروع التحالف بأنه تحالف مع مغول القفجاق(**القبيلة الذهبية)** أعداء مغول فارس وتزوج الظاهر بيبرس ابنة ملكهم بركه خان، وكان مسلماً وانتهز بيبرس فرصة وقوع انقسام بين المغول فأوقع الهزيمة بالمغول، وعرض **أباقا** الصلح مع المماليك، فرفض بيبرس، وهزم المغول في **موقعة البستان**.

بعد وفاة بيبرس انشغل المماليك بمشاكلهم الداخلية، فعاد المغول إلى الهجوم على الشام مرة أخرى، ولكن السلطان قلاوون تصدى للمغول، وهزمهم قرب حمص، وهرب أباقا إلى بغداد حيث مات بعد قليل، وخلفه أخوه **(تكودار)** الذي اعتنق الإسلام وأراد مسالمة المماليك والمسلمين، ولكن ثار عليه أخوه **أرغون** وقتله، وتولى أرغون الحكم، فاضطهد المسلمين، مما أثار سخط المماليك. وانشغل المغول بمشاكلهم الداخلية، فقد قتل أرغون سنة ٦٩٦هـ فخلفه أخوه **بيدو** الذي اعتنق المسيحية، ولكن تغلب عليه **غازان** وقتله، وتولى الحكم، واعتنق الإسلام، ولكن إسلامه لم يمنعه من الاصطدام بالمماليك، مستغلاً فرصة ضعف الدولة المملوكية نتيجة صغر سن الناصر محمد بن قلاوون.

واشتبك غازان والناصر في معركة عنيفة عند مجمع المروج قرب حمص، ولحقت الهزيمة بالمماليك، وأعمل المغول السلب والقتل في مدن الشام، ولكن غازان اضطر إلى العودة إلى فارس.

ولى غازان على حكم الشام (قبجق) الذي أعلن ولاءه للمماليك، وحاول غازان الفوز بمساعدة انجلترا وفرنسا ضد المماليك دون جدوى، فطلب الصلح من المماليك، وفشلت مفاوضات الصلح، واستؤنفت الحرب سنة ٧٠٢هـ، ونجح الناصر في هزيمة المغول في موقعة مرج الصفر، ومات غازان كمدا سنة ٧٠٤هـ، وخلفه ابنه (أولجايتو) الذي بعث إلى الناصر ينشد صداقته، ولكنه

اعتنق مذهب الشيعة وطلب مساعدة البابا وانجلترا وفرنسا، فأوقع المماليك به الهزيمة في ماردين، وتولى حكم المغول بعده ابنه (أبو سعيد) سنة ٧١٧هـ، الذي أعلن صداقته للناصر وعقد صلحاً معه، ليتفرغ للمشاكل الداخلية في الدول المغولية. واستمر الهدوء حتى عهد برقوق، حيث أغار تيمور لنك على الشام، وستتحدث عن ذلك فيما بعد.

أما مغول القفجاق (القبيلة الذهبية) فقد صادقوا المماليك، وتزوج الناصر من أميرة مغولية وطلب أمير القفجاق من الناصر أن يساعده ضد مغول فارس، ولكن الناصر كان قد صالح أبا سعيد، وانتهت المشكلة بعقد الصلح بين طائفتي المغول.

علاقات المماليك البحرية مع الخارج:

شهد العصر المملوكي نهاية الصليبيين في الشام، فقد انشغل الصليبيون بانقساماتهم ونزاعهم وفتر الحماس الديني، وتوقفت الحملات الصليبية. وبدأ بيبرس جهاد المماليك للصليبيين، فبدأ يعمل على القضاء على الإمارات الصليبية واحدة بعد أخرى، واهتم بالجيش والأسطول، واتخذ هجوم بيبرس شكل غارات خاطفة، فقد كان يقاتل المغول أيضا إلى جانب المشاكل الداخلية. ونجح بيبرس في عقد الصلح مع الإمبراطور البيزنطي وملك صقلية، وتمكن من انتزاع كثير من المدن الصليبية، واضطر الصليبيون إلى طلب الصلح، ورفض بيبرس، ونجح في القضاء على أنطاكية أكبر معقل صليبي، واضطرت طرابلس إلى عقد الصلح وتبعها مملكة بيت المقدس.

عاود السلطان قلاوون الجهاد ضد الصليبيين، ففتح اللاذقية وطرابلس، ونجح ابنه الأشرف في فتح عكا بعد أن حكمها الصليبيون مائة عام، كما استولى على بيروت وبعض مدن الساحل، وانسحب الصليبيون من الشام إلى جزيرة أرواد المجاورة، ونجح الناصر سنة ٧٠٢هـ في الاستيلاء على هذه الجزيرة أيضاً.

تحسنت العلاقات بين المماليك والبيزنطيين في عصر الظاهر بيبرس ووقعوا معاهدات تجارية، واستمرت العلاقات الودية في عهد السلطان قلاوون، وتبادل السلطان المنصور قلاوون والإمبراطور البيزنطي الهدايا، كما تحالف الإمبراطور

مع الناصر محمد ضد التركمان، ورفض الإمبراطور أن يقدم المساعدات إلى الصليبيين مجاملة للمماليك، واستمرت العلاقات الطيبة بين الدولتين، فقد انشغل البيزنطيون بقتال العثمانيين.

اهتم سلاطين المماليك بتوثيق صلاتهم مع **دول أوروبا**، وخاصة السلطان الناصر محمد الذي استقبل سفراء معظم الدول الأوروبية وقد قدموا بالهدايا النفيسة، وقد ذاع صيته نتيجة معاملته الطيبة للأجانب ورعاياه المسيحيين، وتبادل الناصر والبابا الرسائل والهدايا، كما توثقت صلاته بملك فرنسا وأمراء الإمارات المسيحية في أسبانيا، كما عقد السلطان المنصور قلاوون معاهدة دفاعية مع أمير قشتاله.

ومن الدول التي حرصت على صداقة المماليك، **إمارة أرجونه، ومملكة صقلية**، فقد تعهدوا بمساعدة المماليك ضد الصليبيين، وتبادل التجارة، ومنح المسيحيين الحرية الدينية، وتسهيل الحج لهم.

أغارت جيوش أرمينية في عهد بيبرس على بلاد الشام، فبعث بيبرس جيشاً هزم الأرمن وخرب عاصمتهم، فأعلن ملكهم قبوله حماية مصر ودفعه الجزية لبيبرس. وحاول الأرمن الخلاص من سيطرة المماليك، وانضموا إلى المغول، ولكن الناصر بعث جيشاً دخل العاصمة وأرغمهم على الطاعة، وحاولت أرمينية مرة ثانية أن تتحرر من دفع الجزية، فعادت جيوش الناصر لتأديب ملك الأرمن، الذي أقسم أن يظل على ولائه للمماليك.

حرص المماليك أن يبسطوا سيادتهم على **بلاد الحجاز** ليحتفظوا بزعامتهم للعالم الإسلامي، واستمروا على أنفاذ الغلال والكسوة إلى الحجاز سنوياً، وذكر أشراف مكة اسم بيبرس في الخطبة وعلى السكة، بل كان بيبرس يفصل في الخصومات التي كثيراً ما وقعت بين هؤلاء الأشراف، كما كان معظم ملوك اليمن يذكرون اسم السلطان المملوكي في الخطبة وعلى النقود أيضاً، ولكن بعضهم انتهزوا فرصة انشغال الدولة المملوكية، بمشاكلها الداخلية فامتنعوا عن إرسال الغلال إلى الحجاز كالمعتاد، ولكن تحسنت الصلات بين اليمن والمماليك في عهد الناصر.

ثانياً: مصر في عصر دولة المماليك البرجية :

يعتبر (وليم ميور) من أبرز المؤرخين الذين اهتموا بدراسة التاريخ الإسلامي، وقد أفرد كتاباً عن تاريخ المماليك، وبحث في هذا الكتاب نظم المماليك، وكيف أصبحوا طائفة لها مميزاتها وخصائصها، ونلخص هنا جانباً من دراسته القيمة:

لا نجد في تاريخ العالم نظيراً لعصر المماليك، فقد استطاع طائفة من الأرقاء المشترين بالأموال من أسواق آسيا أن يبرزوا ويحكموا قطراً غنياً كمصر، ثم يسيطرون على بلاد أخرى خارج مصر، ويتحول المملوك إلى سلطان كبير.

كان العباسيون أول من وضعوا نظام المماليك، ثم اتبع الفاطميون نفس النظام، وسار عليه صلاح الدين والأيوبيون مما أدى إلى القضاء على حكم الدولة الأيوبية.

كان المماليك في مصر لا يختلطون بأهلها، بل ظلوا بمعزل عنهم محتفظين بجنسيتهم وعاداتهم، فكانت حكومتهم (أوليجركية) على رأسها السلطان، واحتفظ سائر المماليك بجانب كبير من النفوذ. وإذا التمسنا العذر للمماليك في عدم اختلاطهم بالأقباط لاختلافهم في الدين، فإننا لا نجد سببا يبرر ابتعادهم عن المسلمين، اللهم إلا أنهم اعتبروا أنفسهم أرقى من غيرهم، ولكن هذا الابتعاد بث الهيبة في قلوب رعاياهم مما أدى إلى طول مدة حكمهم، أما في مجال النواحي الاجتماعية، فقد كان المماليك لا يتزوجون من نساء مصر إلا في حالات قليلة، كما أنهم لم يتزوجوا إطلاقا من المسيحيات، رغم أن الإسلام يبيح التزوج منهن، ولكن رغم هذا التزاوج المحدود، فقد ظل المماليك بعيدين عن الاختلاط بالأهالي.

تميزت طائفة المماليك بانقسامها إلى أحزاب، وتشيع كل حزب لزعيم، وكان المملوك شديد التعصب للسلطان أو الأمير الذي اشتراه، ويظل على هذا الوفاء مدة طويلة حتى ولو مات السلطان أو الأمير، وتجلى هذا في أحزاب المماليك ألأشراف ، والظاهرية، والمؤيدية، التي اكتسبت أسماءها من أسماء سلاطينها. وهذا النزاع بين الأحزاب أدى إلى انتشار الفوضى والإضطرابات في الدولة من جهة، لكنه من جهة أخرى ولد في المماليك روحا مستقلة، وبث فيهم الشجاعة وشدة البأس، فخافهم الناس وهابوهم.

كان معظم المماليك ينالون قسطاً كبيراً من التعليم، فإلى جـانب العلـوم الحربيـة والفروسيّة، كانوا يدرسون الفلسفة والفقه والعلوم، ولكن ظهر بعض السلاطين مـن لم يستطع كتابة أسمه.

لم يهتم المماليك بمبدأ الوراثة، فكان المملوك يخلف سيده على العـرش، ويعتـبر رابطة الملكية أقوى من رابطة الدم، وكانت العادة أن يتولى السلطنة ابن السـلطان وهو طفل صغير، ثم يخلعه أتابكه أو أي أمير آخر من المماليك، ولم نجـد بيتـاً استمر الحكم فيه فترة طويلة سوى(بيت الناصر) الذي حكم أبناؤه وأحفاده فـترة طويلة. وكانت السلطنة دائماً تؤول إلى أقوى المماليك نفوذاً وأعظمـهم احتمـالاً، وأكثرهم قسوة، ولكن المماليك اتفقوا على شيء واحد، هـو أنـهم أحـق النـاس بالسلطنة، فاستأثروا بها مما أدى إلى استمرار (الحكومة الأوليجركيـة)، وتمتـع المماليك بثروة عظيمة، وقصور فخمة وإقطاعات واسعة.

وإن ظهر بين المماليك أمراء خونة، فقد ظهر بينهم حكـام معتدلـون صـالحون يقدرون الشرف والأخلاق الطيبة ويتمسكون بالدين، فنجد منهم من اهتم بالأعمـال الخيرية والمنشئات الدينية والعمرانية، والاهتمام بالآداب والمدارس والعلوم، ولكـن في أواخر دولة المماليك اتصف الغالبية العظمى من المماليك بالخيانـة والقسـوة والظلم.

ولكن المماليك، رغم ما بينهم من نزاع وصراع داخلي، فقد كانوا يقفـون صفـاً واحداً أمام أي عدو خارجي فاستطاعوا أن يسودوا ويحكموا هذه المـدة الطويلـة، كما حرصوا على أن يملأوا خزانتهم بمبالغ طائلة من الأموال استعانوا بـها فـي تدعيم نفوذهم.

مميزات دولة المماليك البرجية :

أطلق اسم (البرجية) على هذه الدولة تمييزاً لها عن المماليك (البحرية)، ونسـبة إلى أبراج القلعة التي كانوا يقيمون بها، بينما أقام المماليك البحرية فـي جزيـرة الروضة، وكان يطلق على البرجية أيضا اسم (المماليك الشراكسـة) نسـبة إلـى موطنهم الأصلي وهو بلاد شركس وجورجيا، بينما كان معظم المماليك البحريـة

من الأتراك، وإن كان كل من المماليك البرجية والبحرية، لا يختلفون كثيراً في ظروف النشأة والتربية والأخلاق والطباع، وميلهم إلى الشقاق والانتقام والصراع، ولا تتميز دولة المماليك البرجية عن دولة المماليك البحرية في نظمها أو إداراتها أو حياتها الاقتصادية والاجتماعية.

ولكن دولة البرية حفلت بالإضطرابات الداخلية والفتن، بينما كانت دولة المماليك البحرية أكثر استقراراً وهدوءاً، وشهدت مصر في عصر الدولة البحرية فترة زاهية شهدت أمجاد حربية رائعة، إذ انتصر المماليك البحرية على المغول وعلى الصليبيين، كما شهدت مصر نهضة حضارية.

أما أسباب هذه الإضطرابات الداخلية التي تميزت بها دولة المماليك البرجية، فأولها وقوع سلاطين المماليك البرجية تحت سيطرة قواد الجماعات العسكرية أكثر من ذي قبل، كما أن حرس السلطان اخذ يكون لنفسه حباً مستقلاً، وكان يطلق على نفسه اسم السلطان، مثل حزب الأشرفي أو حزب الناصري، وكان الحزب يبقى عاملاً حافظاً كيانه رغم موت السلطان أو خلعه، وكثيراً ما نشب الصراع بين هذه الأحزاب، فأخذت تتقاتل من فوق أسوار القلعة، وفي الشوارع والأسواق، ومن عوامل الإضطرابات فقد سلاطين البرجية ما كان لسلاطين البحرية من هيبة وقوة وحماسة للقتال، ولذا ثار جنودهم دائماً ضدهم. ومن هذه العوامل، اعتماد السلاطين على المؤامرات والمكائد دون الاعتماد على الصفات الشخصية أو القتال.

سلاطين المماليك البرجية :

كان انتزاع **برقوق** السلطنة من السلطان حادي حفيد الناصر سنة ٧٨٤هـ إيذاناً بنهاية دولة المماليك البحرية، وبداية عصر دولة المماليك البرجية، وبدأت الإضطرابات الداخلية التي ميزت عهد هذه الدولة الجديدة منذ اللحظة الأولى لقيامها، فقد ظهر منافس خطير من بين أمراء البرجية وهو (برخ) وجاهد برقوق حتى قضى عليه، وما لبث أن قام بعض الأمراء بثورة، واتهم برقوق الخليفة العباسي المتوكل بالاشتراك فيها فعزله وولى بدله الخليفة الواثق، وتتبع برقوق

الثوار وأعمل القتل فيهم. وما لبث أن قامت في وجهه ثورة عنيفة في الشام بقيادة أمير حلب يلبغا الناصري الذي انتهز فرصة انشغال برقوق بالفتن الداخلية، فزحف إلى القاهرة فاضطر برقوق إلى الاستسلام، وتوسط الخليفة العباسي المعزول المتوكل فأحجم يلبغا عن قتيل برقوق ونفاه إلى الكرك.

اختار القواد للسلطنة السلطان الصالح حاجي آخر سلاطين المماليك البحرية الذي عزله برقوق، وتولى يلبغا الوصاية عليه، ولكن ظهر منافس خطير ليلبغا، وهو منطاش أمير ملطية الذي تحالف مع مماليك برقوق، ونجح في عزل يلبغا وأصبح وصياً بدله على السلطان حاجي، وهرب برقوق من الكرك وقدم على رأس جيش وعزل منطاش والسلطان، وتولى برقوق السلطنة مرة أخرى، وبدا سياسة جديدة تقوم على نشر الأمن وإلى التسامح، فرضى الشعب المصري عن سياسته، كما ركنت بلاد الشام إلى الهدوء، واستمر برقوق يتولى السلطنة إلى سنة ٨٠١هـ، وفي عهده ظهر الخطر المغولي بقيادة تيمورلنك.

خلف برقوق ابنه **السلطان فرج بن برقوق**، وكان في الثالثة عشر من عمره، في وقت حفلت الدولة فيها بالإضطرابات والفوضى، في مصر والشام، وقد أغار في مطلع عهده السلطان العثماني بايزيد على حدود الشام، وأعلن أمراء الشام الثورة، كما ثار عليه الأمراء الشراكسة، وجاهد فرج طويلاً حتى تخلص من هذه المشاكل الكبيرة. كما عاد الخطر المغولي إلى الظهور مرة أخرى، ولم ينقذ الموقف سوى وفاة زعيم المغول تيمورلنك، واشتهر فرج بالإسراف في قتل أعدائه والمماليك الثائرين، وهاجم الفرنجة الإسكندرية وشواطئ الشام، ويصف (ميور) حكم فرج بأنه كان حكماً ظالماً قاسياً مخالفاً للشرع.

تولى السلطنة بعد فرج سنة ٨١٥هـ(١٤١٢م) السلطان المستعين بالله، وهو الخليفة العباسي الذي كان قائماً في القاهرة في ذلك الحين، فأصبح خليفة وسلطاناً معاً، وقد اختاره الأمير شيخ أحد أمراء الشام الذين زحفوا إلى مصر وقضوا على حكم فرج بن برقوق، رغم أن الخليفة ليس تركياً، ولذا رأى بعض أمراء المماليك عدم شرعية حكم المستعين، ولكن المسلمين في أرجاء العالم الإسلامي أعلنوا سرورهم لتولى الخليفة السلطنة، أي جمعه السلطتين الروحية والزمنية، وانتهز

أمراء المماليك قيام البدو بثورة فطلبوا من الأمير شيخ عزل المستعين ورشحوه للسلطنة، وفي مقدمة الأمراء الأمير نوروز، واستجاب شيخ لطلبهم وأصبح سلطاناً.

بدأ عهد **السلطان شيخ المؤيد** سنة ٨١٧هـ(١٤١٤م)، وكان شيخ من مماليك برقوق، وبدأ صراع شيخ ونوروز، وقد أعلن الأخير الثورة في الشام، وخرج شيخ على رأس جيشه وقضى على منافسه الخطير، واستطاع أن يوطد نفوذه في بلاد الشام، وغزا الأراضي الأرمينية واسترد طرسوس. وعاد شيخ إلى مصر، حيث عاش في هدوء، وانصرف إلى الإصلاحات الداخلية، فضرب العملة المؤيدية، وبنى جامع المؤيد المعروف، وكان المؤيد يشجع العلم والعلماء، وأجاد الشعر والموسيقى، واشتهر بالتقوى والورع، وأحسن معاملة أهل الذمة، وأطلق لهم حريتهم الدينية، وأبدى النصارى واليهود ألمهم عند وفاة المؤيد، وفي عهد المؤيد عاود الفرنجة غارتهم للمرة الثانية على الإسكندرية، وانتشر القحط والوباء نتيجة انخفاض النيل.

بعد وفاة السلطان المؤيد، خلفه ابنه **السلطان أحمد بن شيخ** سنة ٨٢٤هـ، وكان طفلاً رضيعاً، فتولى الوصاية عليه الأمير(طونبغا) وأصبح صاحب السيادة الحقيقية في دولة المماليك، ولكن ظهر له منافس خطير وهو (ططر) الذي تنكر لصديقه وحليفه وغدر به فقتله، ثم قتل السلطان الطفل وسائر أفراد أسرته، ولذا يسميه (ميور) بأنه (الأمير الملطخ بالدماء).

وتولى **(ططر)** السلطنة، ولكنه شعر بالمرض، فعين ابنه **محمداً**، وكان طفلاً في العاشرة خليفة له في السلطنة، واختار **(برسباي)** وصيا عليه، وما لبث أن مات ططر بعد أن حكم ثلاثة أشهر.

أصبح **محمد بن ططر** سنة ٨٢٤هـ تحت وصاية برسباي، الذي كان – مثله مثل ططر– مملوكاً شركسياً من مماليك برقوق، وتخلص برسباي من منافسة أحد أمراء المماليك وهو (جاني بك) وأنصاره، واستعان بأمير دمشق، ونجح بعد سنة ونصف من وفاة ططر في أن يعزل السلطان الطفل محمد بن ططر، ويتولى السلطنة في أبريل سنة ١٤٢٢م.

بدأ عهد السلطان **برسباي** ورضي المصريون عن حكمه، فقـد عـامل السـلطان المخلوع محمد بن ططر معاملة طيبة، كما أصدر مراسـيم جديـدة تقـر النظـام والأمن، ومنع الناس من تقبيل الأرض بين يديه، وامتد الهدوء من مصر إلى بـلاد الشام، ولذا ركز برسباي جهوده للقضاء على القراصنة الذين كانوا يغيرون علـى شواطئ مصر والشام، ويهددون السفن التجارية، ونجح في القضاء عليهم، وهـزم ملك قبرص وأرغمه على تقبيل الأرض بين يديه، وعاد برسباي إلى مصر ومعـه كثير من الأسرى والغنائم ومن بينها تاج ملك قبرص وجواده وأعلامـه، وافتـدى ملك قبرص نفسه بالأموال، وعاد إلى الحكم على أن يكون تابعاً لسلطان مصر.

نجح برسباي في إعادة نفوذ المماليك إلى الحجاز، وخاصة مدينتي مكة وجدة، ممـا أدى إلى رواج التجارة المصرية في البحر الأحمر، وأصدر برسـباي مرسـوماً يقضي بضرورة مرور التجارة القادمة من بـلاد العـرب أو الشـام أو العـراق بالإسكندرية، أو القاهرة لتفرض عليها الضرائب.

واحتكرت صناعة السكر، وفي أواخر عهد برسباي عادت الثـورة إلـى الشـام، وأغار عليها زعيم التركمان فبعث برسباي جيوشه ونجحت في إخمـاد الثـورة، ولكنها أسرعت في القتل وانتشر في أيام برسباي الأخيرة الطاعون فـأهلك عـدد كبير من المصريين.

بعد وفاة برسباي تولى ابنه السلطان يوسف بن برسباي سنة ٨٤١هـ (١٣٤٨م)، وكان في الخامسة عشر من عمره، وتولى الوصاية عليه (جقمق) ولم يطل عـهد يوسف أكثر من ثلاثة أشهر، فقد نجح جقمق في استمالة الأمراء وخلع السـلطان الصغير وسجنه في القلعة.

تولى **جقمق** السلطنة، وهو مملوك شركسي من مماليك برقوق، وكان في الخامسة والثلاثين من عمره، وكما هي العادة برز له منافس من أمراء المـماليك، وكـان المنافس هذه المرة الأمير (قرقميش) الذي استمال المماليك الأشـرفية وحـاصر القلعة، ولكن جقمق تمكن من القضاء على حركة قرقميش وقتله. وقامت ثورة فـي حلب بسوريا تطالب بعودة لسلطان المخلوع يوسف بن برسباي، ونجـح جقمـق أيضاً في إخماد هذه الثورة، وتفرغ جقمق أيضاً لقتال الفرنجة الذين كانوا يغـيرون

باستمرار على الشواطئ الإسلامية، وبعث عدة حملات بحرية ضد جزيـوة رودس وجزيرة شاتورو، وتوثقت صلات جقمق بأمراء العالم الإسلامي في فارس وآسـيا الصغرى، ووثق صلاته بالدولة لعثمانية وتزوج من أميرة عثمانية، وشهدت مصر في الفترة الثانية من عهده فترة هدوء وسلام، وبذل جقمق جهده لإصلاح الحيـاة الاجتماعية والقضاء على الرذائل، وشجع العلماء، واهتم بجمع المخطوطات، وقبل وفاته عهد بالحكم من بعده إلى ابنه عثمان، وما لبث أن مات بعد أن حكـم دولـة المماليك خمسة عشر يوماً.

تولى **عثمان بن جقمق** بعد وفاة أبيه سنة ٨٥٧هـ(١٤٥٣م)، وكان فـي الثامنـة عشر من عمره، واشتهر بالقسوة والغرور والجشع، مما أدى إلى سـخط جميـع أحزاب المماليك، واتفقوا على خلعه ووافق الخليفة العباسي، فخلعوه، وولوا مكانـه **إينال**، وكان يتولى قيادة الأسطول الذي غزا جزيرة رودس، ورغم شجاعة إينـال في القتال، إلا أنه كان جاهلاً لا يصلح لمنصب السلطنة، فقد كان يجـهل القـراءة والكتابة فضلاً عن عدم درايته بشئون الحكم، وحرص إينال على إرضاء الممـاليك فأغدق عليهم ألموال، مما أدى إلى خلو خزانة الدولة، حتى أن رئيس المالية كـان يستجدى، وأن كبراء الدولة جلدوا ليقبلوا القيام بأعمالهم، وعاد الطاعون ثانية إلـى الانتشار وزاد عدد عصابات البدو التي أغارت على حدود مصر الجنوبية، وفـي عهده سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين وأعلن المصريون فرحهم وسـرورهم لسقوط عاصمة البيزنطيين في أيدي المسلمين، ولم يعلموا أن نهاية دولة الممـاليك تكون على يد الدولة العثمانية بعد فترة وجيزة.

بداية النهاية :

قبل وفاة السلطان إينال، عهد بالسلطة من بعده إلى ابنه أحمد بن إينال الذي تولـى سنة ٨٦٥هـ(١٤٦١م) وتلقب بالمؤيد، وكان في الثلاثين مـن عمـره، ويصفـه (ميور) بأنه كان مستقيماً فاضلاً، ولكن ضاع فضله في عهد ساد فيـه الفوضـى والفساد، وفي عهده القصير ثار المماليك دائماً ممـا أدى إلـى زعزعـة أركـان سلطته، فاضطر إلى التخلى عن العرش بعد أربعة أشهر وخلفه خشقدم.

تولى السلطان **خشقدم** واتخذ لقب الظاهر، وكان أصلاً من مماليك السلطان شيخ، وهو أول سلطان إغريقي الأصل، وكان أسلافه من البرجية جميعاً من الشراكسة مما أدى إلى سخط الشراكسة، وقامت ثورة في الشام تزعمها(جانم) والمماليك الأشرفية، وما لبث أن زحف جانم والأشرفية إلى القاهرة، فاضطر إلى استرضائهم وولى جانم حكم سوريا، وبدأ خشقدم بمساعدة المماليك الظاهرية يعمل للقضاء على جانم، ولكن اعتماد السلطان على الظاهرية أدى إلى غضب سائر أحزاب المماليك، وزاد سخطهم عليه حينما غدر بصاحب الفضل عليه في توليته السلطنة وهو (جاني بك).

وبدأ الأشرفيون والإينالبون يتآمرون على قتله، بعث السلطان عدة حملات إلى قبرص ومن أهدافه التخلص من بعض المماليك خلال القتال، ووثق السلطان صلاته بالدولة العثمانية، واضطربت أمور الأمن في أواخر عهده فتكرر هجوم البدو ونزاع المماليك، وانتشرت الفوضى.

توفى السلطان خشقدم سنة ٨٧٢هـ(١٤٦٧م)، فظلت القاهرة خلال الشهرين التاليين لوفاته مسرحاً للدسائس بين الأحزاب المتنازعة، وقد تولى العرش أولاً(يلباي) الشركسي ثم (**تمربغا**) الإغريقي، وخلع الول بعد شهرين، وسجن في القلعة، ولو ملك الوسائل التي يرضى بها أحزاب المماليك المتصارعة لاحتفظ بمركزه، ولكن الخزانة كانت خاوية، وقد نادى المؤيدون بواحد منهم سلطاناً وهو السلطان خير بك، ولكن الظاهريين عزلوه وولوا بدله قايتباي.

أصبح قايتباي سلطاناً سنة ٨٧٢هـ(١٤٦٧م)، وكان من أصل شركسي، من مماليك جقمق، وكانت الأحزاب المملوكية المتصارعة متكافئة مما أدى إلى نجاة قايتيباي، ولكن المشكلة المالية ظلت قائمة، وبدأ قايتباي عهده بصد البدو، ومواجهة الأخطار المهددة لآسيا الصغرى، وأعلن بعض الثوار العصيان في سوريا، فاضطر قايتباي إلى أن يطلب من الدولة العثمانية أن تكف عن مساعدة الثوار، فنجح في القضاء على الثوار وما لبثت أن توترت العلاقات بين قايتباي والدولة العثمانية نتيجة نزاع السلطان بايزيد الثاني مع أخيه جم الذي هرب ولجأ إلى قايتباي فأكرمه ورحب به، وأغار العثمانيون على حدود الشام الشمالية،

واستولوا على طرسوس وأطنه، ونجح المصريون في هزيمة العثمانيين عند قيسارية. وأبدى قايتباي عطفه على العرب في أسبانيا حينما اضطهدهم الأوربيون واهتم قايتباي بالمدارس والأماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين، وبنى قلعة قايتباي في الإسكندرية، وفي أواخر عهده انتشر الطاعون فقضى على كثير من الأهالي.

نهاية دولة المماليك البرجية :

بعد وفاة قايتباي بدأت – كما يقول ميور – صحيفة كثيرة الاضطراب، لأنه في مدى خمسة الأعوام التالية توالى على العرش خمسة سلاطين، حكم منها محمد بن قايتباي عامين، وكان قاسيا خليعا، وتولى الوصاية عليه في أول حكمه القائد(قانصوه الخمسمائة) وقد سمي كذلك لأنه اشترى بخمسمائة دينار، وظهر منافس خطير له كالعادة هو (أكبردي) الذي استعان بالسوريين ونجح في عزل قانصوه وتولى هو منصب الأتابك، ولكن أنصار قانصوه نجحوا في عزله أيضا، وأصبح **الناصر محمد بن قايتباي** ينفرد بالحكم، وشب الناصر محمد، وانصرف إلى اللهو والمجون والقسوة، مما أدى إلى ثورات المماليك بزعامة (طومان باي) رئيس المالية الذي انقض على السلطان ليلا وقطعه إربا.

تولى بعد الناصر محمد ثلاث سلاطين ضعاف، تعاقبوا على العرش، وهم على التوالي: قانصوه الأشرفي، وجانبلاط ، وطومان باي الأول، وتميز عهدهم بقصر مدة الحكم، وكثرة الاضطرابات وغارات البدو، وثورات السوريين، وظلم المماليك وتعسفهم، وانتهى حكم كل منهم بالعزل نتيجة ثورات المماليك ومحاصرتهم القلعة وطردهم. ويمكن أن نتبين مدى الضعف الذى انتاب سلاطين المماليك البرجية، من أن السلطان قانصوه الأشرفي هرب في زي امرأة، وأسر السلطان جانبلاط وسجن ثم قتل، وتمكن السلطان طومان باي الأول من الفرار.

ذعرت مدينة القاهرة عند اختفاء السلطان العادل طومان باي الأول، ولم تمض أيام قليلة حتى اختار الأمراء والمماليك قانصوه الغورى، وهو مملوك شركسي من مماليك قايتباي، وأبدى زهده في السلطنة ولكن الأمراء ألحوا عليه في قبولها وأقسموا على الولاء له، وكان في الستين من عمره، ولكن كان قوى الشخصية،

ونجح في الوصول إلى مخبأ طومان باي وقضى عليه وعلى أنصاره، وبدأ الغورى يهتم بمالية البلاد وتنمية موارد خزانة الدولة، ففرض الضرائب واهتم بجبايتها من جميع الطبقات على السواء، مما أدى إلى غضب بعضها لتعودها الفوضى، وفرض ضرائب على التركات، ,أنفق السلطان بعض هذه الأموال في شراء المماليك، وفي الإصلاحات العامة، مثل تحصين الإسكندرية ورشيد وغيرهما، وبنى مسجدا فخما ومعهدا في القاهرة، واهتم بالأماكن المقدسة في مكة والمدينة، وامتلأ البلاط بالشعراء والمطربين والموسيقيين ونعموا على حساب اليتامى والفقراء، كما يقول ابن إياس.

وفي عهد الغوري، أغار البدو على الكرك وبيت المقدس، وقامت ثورات في مكة وينبع، ولكن أهم ألأحداث ظهور الخطر البرتغالي، فقد اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح، وهاجم البرتعاليون الأساطيل التي كانت تحمل المتاجر والحجاج من الهند إلى البحر الأحمر، وأوقعوا الرعب في قلوب أهالي هذه الجهات، فطلب أمراؤها وأمراء اليمن النجدة من مصر، فجهز السلطان أسطولا من خمسين سفينة بقيادة أمير البحر (حسين الكردي) ولكنه أخفق في مهمته وتعرض البحر ألحمر لهجوم البرتغاليين، وهدد الغوري البابا بأنه سيهدم الأماكن المقدسة المسيحية إن لم يكف البرتغاليون عن تهديد الأماكن المقدسة الإسلامية، ولم يجد التهديد، فأعد الغوري أسطولا آخر نجح في هزيمة البرتغاليين، ولكن بعد سنوات قليلة نجح (ألفونسو بوكرك) في الاستيلاء على عدن، وأعد الغوري أسطولا لاسترداد عدن، ولكنه فوجئ بالفتح العثماني للشام ثم مصر، ولقى الغوري حتفه في موقعة مرج دابق في الشام.

الفتح العثماني لمصر والعالم الإسلامي :

كانت العلاقات في أول عهد الدولة العثمانية طيبة بين المماليك والعثمانيين، وزادت العلاقات وثوقا في عهد السلطان جقمق إذ تزوج من أميرة عثمانية، وتبادل الهدايا مع السلطان العثماني، وعندما استولى العثمانيون على القسطنطينية احتفل المماليك والمصريون بهذا الفتح احتفالا رائعا، وبعث السلطان إينال يهنئ السلطان العثماني محمد الفاتح.

نشأت الدولة العثمانية وترعرعت بعيدة عن البلاد العربية، فلم تحتك بها، ولم تشرع في الاستيلاء عليها بعد أن قضى على تأسيسها نحو قرنين من الزمان، وبعد أن تعاقب على عرشها ثمانية من السلاطين. فقد نشأت السلطنة العثمانية سنة ١٢٩٩ في مقاطعة صغيرة في شمال غرب آسيا الصغرى، ثم بدأت في التوسع فشملت آسيا الصغرى كلها، وعبرت الدردنيل إلى شمال بحر مرمرة. أما السلطان سليم الذي استولى على الشام والحجاز ومصر فكان تاسع السلاطين، والسلطان سليمان الذي أتم فتح سائر البلاد العربية كان السلطان العاشر.

قبل الفتح العثماني للعالم العربي كانت هناك ثلاث دول إسلامية كبرى: الدولة العثمانية وعاصمتها القسطنطينية، والدولة الصفوية وعاصمتها تبريز، ودولة المماليك وعاصمتها القاهرة، وكانت الدولة العثمانية تحكم بلادا واسعة في البلقان بأوروبا والأناضول وكانت الدولة الصفوية تحكم شرق الأناضول والعراق وإيران، أما دولة المماليك فكانت تحكم مصر وسوريا والحجاز.

كانت هناك جامعة إسلامية غير رسمية تجمع هذه الدول الإسلامية الثلاث: العثمانية ، الصفوية ، المماليك، فكان التجار والحجاج ينتقلون بين أقطارها، كما كان السلاطين يتكاتبون باستمرار، وكان العثمانيون يحرصون تماما على نشر أخبار انتصاراتهم في مختلف البلاد الإسلامية والعربية، وكانت هذه المكاتب تجرى باللغة العربية.

أقام العثمانيون دولتهم في الأناضول والبلقان على أنقاض الإمارات التركية وأملاك الدولة البيزنطية، وظل العثمانيون حتى أوائل القرن ١٦ متجهين إلى الفتح والتوسع في البلقان في طريقهم إلى وسط أوروبا، أما في الشرق فلم يكن لهم أي

مطمع إلا في تأمين حدودهم الممتدة على مشارف إيران والعراق والشام، حتى تولى الشاه إسماعيل الصفوي وبدأ في نشر التشيع خارج إيران، فبدأ اهتمام العثمانيين بالعالم الإسلامي، فبدأ اصطدامهم بالدولة الإيرانية الصفوية، ثم استيلاء العثمانيين على العالم العربي.

هزم السلطان سليم الأول الإيرانيين في موقعة (جالديران) سنة ١٥١٤م، ودخل عاصمتهم تبريز، ولكنه آثر الانسحاب لأنه خاف أن يقع بين عدوين، الصفويين في الشرق، والمماليك في الشام ومصر من الغرب.

كما كانت خطوط المواصلات طويلة والشتاء على الأبواب، ولذا آثر سليم الانسحاب ورأى أن يبدأ بالقضاء على المماليك ثم يتفرغ للقضاء على الدولة الصفوية.

وكان هناك سبب آخر شجع السلطان سليم على القضاء على دولة المماليك ويبين هذا العامل الشعور بالجامعة الإسلامية بوضوح، فقد كانت دولة المماليك الإسلامية في صراع عنيف مع دولة البرتغال المسيحية. وبدأ الصراع منذ أن حول البرتغال التجارة من الطريق المار بمصر إلى طريق رأس الرجاء الصالح، وكانت مصر أكثر الدول إفادة من طرق التجارة القديمة، ولذا كان أشدها تأثرا بالتحول التجاري الجديد الذي اتخذ لونا صليبيا صارخا حين عمل البرتغاليون على تحطيم القوى الإسلامية في الهند، وسعوا إلى النفوذ إلى البحر الأحمر للنزول في الحجاز وتحطيم الأماكن المقدسة الإسلامية، بالتحالف مع دولة الحبشة المسيحية، ونهضت مصر المملوكية للعمل ضد البرتغاليين في البحار الشرقية، فأنفذوا الأساطيل إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي، وبعثوا بالجيوش لفتح اليمن تأمينا لها من الخطر البرتغالي ولكن جهود مصر لم تقدرها لها النجاح، ووطد البرتغاليون أقدامهم في قواعدهم الحصينة وأمعنوا في احتكار التجارة الشرقية والضغط على القوى الإسلامية والعربية في البحار الشرقية.

لا شك أن هذا الخطر البرتغالي وتهديدهم الأماكن المقدسة في الحجاز كان يثير غضب ومخاوف السلطان العثماني سليم الأول بصفته رجلا مسلما، وسلطان أقوى دولة إسلامية وقتئذ، وشعر سليم أن دولة المماليك قد اصبحت في حالة من

الضعف الشديد مما لا يسمح لها بصد البرتغال، ولذا رأى أن يقضي على هذه الدولة التي لا تصلح للبقاء ثم يتولى هو تخليص العالم الإسلامي من خطر تحالف دولتي البرتغال والحبشة المسيحية.

هزم السلطان العثماني سليم الأول السلطان المملوكي قلنصوه الغوري في موقعة (مرج دابق) شماالي حلب سنة ١٥١٦م، واستولى على بلاد الشام جميعها، ثم دخل القاهرة سنة ١٥١٧م، وأصبحت مصر بعد الشام ولايتين عثمانيتين، وانتقلت الخلافة الإسلامية إلى آل عثمان. وبدأ العثمانيون يعملون على التخلص من خطر البرتغاليين، واقتضى هذا يبسط العثمانيون سلطانهم في البحر الأحمر بجانبه الأسيوي بضم الحجاز واليمن، وجانبه الإفريقي بضم الإمارات العربية في سواكن ومصوع وهرر تحت سلطانها ومحاولة إخضاع الحبشة، ومن البحر الأحمر بدأت الأساطيل العثمانية تخرج لمقاتلة البرتغاليين في المحيط الهندى والخليج الفارسي لفك الحصار الذي ضربه البرتغاليون على التجار العرب والمسلمين فتي تلك الجهات.

خضعت بلاد الحجاز للعثمانيين سلميا، وفي عهد السلطان سليمان القانوني تم فتح اليمن، والعراق، وعدن، وانتزاع مسقط من البرتغاليين، ونفذ العثمانيون إلى الخليج الفارسي حتى وصلوا إلى البصرة، وسيطروا على الإمارات العربية على الخليج الفارسي كعمان والإحساء والبحرين والكويت، وتم دخول الجزائر في حوزة الدولة العثمانية في سهولة ويسر.

وبالرغم من أن سيادة الترك العثمانيين في البلاد العربية كانت طويلة الأمد أكثر من كل سيادة أجنبية أخرى، فإنهم لم يستطيعوا أن يتركوا عربيا واحدا في أثناء حكمهم الطويل، لقد استعمروا البلاد سياسيا، ولكنهم في نفس الوقت عملوا على المحافظة على سيادتهم السياسية وتجنيب العالم العربي الأطماع الأوروبية فوضعوا حجابا كثيفا يحجب العالم العربي عن أوروبا، مما أدى إلى حرمان العرب من النهضة الأوروبية التي بدأت في ذلك الوقت، وعاش العرب في ظلام حضارة العصور الوسطى.

فهرس الموضوعات

....